

الرحلة الضوئيّة



مسرح

فاضل سوداني



الغاوون

الرحلة الضوئية

فاضل سوداني

الرحلة الضوئية

أربعة طقوس مسرحية بصرية عن العنف والتطهير

الفارون

ولد فاضل سوداني في ميسان بالعراق العام 1945. يحمل دكتوراه في الإخراج والعلوم المسرحية. عمل مخرجاً مسرحياً وممثلاً لسنوات طويلة في العديد من المسرحيات العربية والعالمية. صدرت مسرحيته «الصقر» العام 1993. يعيش في الدانمارك منذ العام 1991.

الطبعة الأولى، 2010

منشورات «الغاوون»

تصميم الغلاف: مايا سالم

لوحة الغلاف: فان كوخ

لبنان، ص. ب: بيروت – الحمرا 113 – 5626

ت: 573886 71 961+

U.S.A: 17953 Hanna St. Melvindale

MI 48122 - Tel:0013134299194

zeinab@alghaoon.com

www.alghaoon.com

الطقس الأول

الرحلة الضوئية

(طقس بصريّ عن وَجد الفنان فان كوخ)

الشخصيّات

فان كوخ

هو (الذات الأخرى للفنان)

المرأة الملاك

البدوية

أربعة من نزلاء المستشفى، ويمثّلون أيضاً كورس النقّاد.

الطقوس

الطقس الأول: قربان القيامة

الطقس الثاني: وهم الحبّ

الطقس الثالث: ملاك وشيطان يتخاصمان على جسدي

الطقس الرابع: ٠الاعتراف

الطقس الخامس: اليابان الضوئيان

الباب الأول: زهرة الشعراء وقدّاس النقاد

الباب الثاني: عينا ميدوزا الجميلتان.

الطقس السادس: غابة السديم في مرآة الأسرار

الطقس الأول
قربان القيامة

(يطفى اللون الأبيض على مكان الطقس. أدوات وأوانٍ مختلفة كالتي تُستخدم في مستشفى الأمراض النفسية، شموع لممارسة الطقوس وبانيو لتطهير المصابين بالجنون... أو الوجد. سنابل قمح ذهبية وزهور عبّاد الشمس مرمية على الأرض تحيل المكان إلى ما يشبه أماكن الطقوس. فان كوخ مسجّى ميّتاً داخل حوض الاستحمام. الممثّلون بوجدهم الصوفيّ وهمس تعاويذهم وتمتماتهم الغامضة، كما في السحر، يدعون فان كوخ إلى القيام من موته. «هو» يضع زهور عباد الشمس أمام جسد الفنّان. المرأة الملاك تضع أيضاً سنابل القمح أمامه. في زاوية شبه مظلمة تبدو البدوية مملوءة بالألغاز دائماً، لا تشارك المرضى طقوسهم. يقوم فان كوخ من موته مشماً ومندهشاً وسط هالة من ظلام المستشفى وكأنه في كابوس جحيميّ يتراءى فيه ظلّ المرأة الملاك والبدوية والمرضى الذين يباركون قيامة الفنّان بطقوسهم. فان كوخ يشعل شمعة في زاوية ما من المكان، ويقرأ على ضوئها رسالة كان قد كتبها في وقت سابق إلى أخيه ثيو).

فان كوخ: ثيو، الأمور لا تسير بشكل حسن، فأنا مضطرب وحزين ولم أعد أعرف أين أنا؟ أين أقف؟ أي أرض أقدّس وجهي بترابها؟ هل تصدّق أنهم سجنوني في قبر الأبدية هذا، فحرموا لوحاتي من النور؟ آه لو ترى الأخيرة منها. لكنها الآن معتقلة خلف الأبواب والحراس. رهيب أن يُحكم عليك بالصمت ولديك الكثير مما تودّ قوله. ثيو الشيء المضحك أنهم يعتبرونني مجنوناً وخطراً عليهم،

أرسم هلوسات سحرية، وإنني غير جدير بأن أكون حراً، هل يمكن أن تثق بهم؟ لا أعتقد ذلك، أنت أخي وتعرف نبضي جيّداً.

هو: (ساخراً كعادته في التعامل مع فان كوخ) فما نحن سوى حلقات في هذه الفوضى المجنونة.

فان كوخ: صدقتَ. (مستمراً) ثيو إن معايشتي حياة المجانين والمسوسين في بيت الأشباح هذا ستخلصني من الخوف؛ الخوف على عقلي من الجنون. (صمت). لكن العديد من زملاء المهنة كان مصيرهم كمصير هؤلاء البائسين.

هو: (ساخراً) لكن حياتي التي أُمضيها هنا موحشة إلى حد كبير لأنهم يمنعونني من عملي، فأصاب بكآبة.

فان كوخ: (متابعاً) والحراس يضايقونني بوضع تاج الجنون هذا على جبهتي ويطهّرونني في هذا الأقيانوس (بسخرية مشيراً إلى الحوض) كما لو أنني مجنون حقيقة (فترة) أمجنون أنا؟

هو: (ساخراً أيضاً) أمجنون أنا؟

فان كوخ: (يخلع التاج وهو عبارة عن حزام من الجلد كاللجام الذي يستخدم للجم حركة الحصان) تاج الجنون، تاج الجنون (يرمي التاج) أنا لست متوحّشاً. (صمت) لكن يجب أن أتكيّف لأنني في طريق مسدود. ماذا أفعل هنا؟ (صمت) ولكن ماذا سأفعل في مكان آخر؟ (صمت) إن الربيع في الخارج يزهو بألوانه وأنا هنا في جحيمي. يجب أن أجد لوحاتي. يجب أن أفتح الأبواب (فجأة إلى الآخرين) افتحوا الأبواب، افتحوا الأبواب، افتحوا الأبواب، اخرجوا إلى الربيع...

(يدور «هو» والمرضى معه في الاتجاهات كافّة. البدوية تراقبهم

بصمت وهي غارقة في طقوسها).

الجميع: (ما زالوا يدورون في المكان) افتحوا الأبواب... افتحوا الأبواب (فترة صمت).

فان كوخ: مهما فعلنا فنحن هالكون؟ من نحن؟ من أنا؟ هل أنا عدم؟ هل أنا مجنون؟ هل أُسجن هنا لأن روحي مليئة بالحب؟ وألواني كالموسيقى دائماً، وعواطفي تتّجه نحو الحياة الأبدية. إنه الوجد الذي لا يفهمونه يا ثيو فيعتبرونه جنوناً، نعم إنه الوجد، يبدأ دائماً في نقطة مظلمة في الروح ثم ينتشر حتّى أسرار العقل. إنه وجدي، فيه رأيت ملائكة تائهين في ليل الصحراء، يدلّهم شعاع إلى كوكب بعيد. وعندما اقتربتُ سمعت همساً كجريان مياه الوادي المقدّس.

حملني ملاك الرب،
«وشق لي الصدر بالسيف
واقتلع قلباً خافقاً،
وفي الصدر الفاغر ألقى
بالجمر المتأجّج».
استلقيت في الصحراء جثّة، وصوت أوحى إليّ...
(البدوية ما زالت تتحرك بطقوسية وهي في مكانها)

هو: (صوت كالصدى)
تمرَّد، تمعَّن، أصغِ
وكن إرادتي.
وإذ تجوب البحر والأرض
ألهب قلوب الناس بالحكمة

فان كوخ: الحكمة، الحكمة، الحكمة

المرأة الملاك: الحكمة، الحكمة

فان كوخ: فبدأ برق، رعد، طبول تقرع، ثم لم أعد أرى أي شيء في هذا الكون سوى وميض النور المتوهّج، فتحوّلت ذاكرتي إلى رماد وبصيرتي إلى صحراء ملتهبة وفراغ مخيف. نور، نور، أيها النور طهّرني حتّى لا أسمع طبول الخواء.(ينسحب ليحتميَ في الحوض)

المرأة الملاك: نور، نور

هو: نور، نور

(الجميع يهمسون الكلمة الأخيرة وهم ينسحبون إلى أن يعمّ الصمت)

الطقس الثاني
وهم الحب

(نسمع همسَ فان كوخ وهلوسته في الظلام)

فان كوخ: بعد الآلام والعذاب والعويل.
لا الصمت يوجد
في هذا القبر،
ولا الوحدة أيضاً.
آه لو كان ثمة حلم
أو نار أو نبع ماء.

هو: (هامساً وساخراً)
وحده في قبره الأبدي،
أحيطوه بلهيب النار المقدّسة
فيبزغ في السماء
ملاك كظلّ الحب، كظلّ الحب، كظلّ الحب.

(فان كوخ يحاور المرأة الملاك متخيّلاً أنها حبيبته القديمة سين. في هذا المشهد تبدأ لعبة الوهم والواقع واختلاط الماضي بالحاضر وتبادل الأدوار ما يُضطرُّ المرأة الملاك إلى تمثيل دور حبيبة الفنان بالرغم من تردّدها وعدم قناعتها وخوفها في البداية. يجب أن يكون التحوّل، من شخصية الحبيبة في الماضي إلى شخصية المرأة الملاك في الحاضر، وبالعكس، واضحاً).

فان كوخ: (مستذكراً الماضي، إلى المرأة الملاك التي يعتبرها حبيبته القديمة

سين) سين، لمَ أنت قلقة؟

هو: (يعوي سخريةً) عو عو عو عو...

المرأة الملاك - سين: (إلى هو) اششش. (تضحك في سرّها، ثم تُجاري كوخ فتمثّل دور الحبيبة) كل هذا يبدو كالكابوس، إنهم لا يؤمنون بفنّك.

فان كوخ: لا يهمّني، أنتِ من يجب أن تؤمني بي.

المرأة الملاك - سين: أؤمن بك، لكن ما ترسمه لا يُدرّ مالاً. كيف سنعيش؟

فان كوخ: كما كنّا، أعتني بك وبطفلك، ومن أجلكما سأبيع ما أرسمه بأبخس الأثمان.

المرأة الملاك - سين: يرفضونها، كيف سنعيش؟

فان كوخ: (مرتبكاً ومتردّداً) كما عشنا سابقاً.

المرأة الملاك - سين: ومن أين سنأكل؟

فان كوخ: سأرسمكما بدمي حتّى أدخلكما حقول النور.

هو: (ساخراً) حقول النور؟! بدأتَ تحلم مرّة أخرى.

المرأة الملاك - سين: (ساخرة) لكن كيف سنعيش؟

فان كوخ: بهدوء في مرسم تمتدّ جذوره في قلب الحياة، مرسم وألوان وإبداع متواصل ولا مجال للركود، لا مجال للكآبة، لا مجال لليأس لأني أحبّك أنت والطفل.

المرأة الملاك - سين: أي حب أمام هذا الكابوس الفظيع من الإهانة والجوع؟

فان كوخ: إنه حبّي وحلمي.

المرأة الملاك - سين: نعم إنه حلمك الذي أعيش فيه كفأرة محاصرة باحتقار الآخرين.

فان كوخ: لنتزوَّج إذاً.

المرأة الملاك - سين: كيف؟! وأنت تعيش عالةً على أخيك ثيو، بالتأكيد سنموت جوعاً. ثم إن والدك وجميع العائلة لن يوافقوا على الزواج منّي لأنهم يعتبرونني مومساً. أنت تعبث بي وبطفلي وبنفسك أيضاً. (صمت) أنا الآن مضطرة إلى أن أعيش معه من بيع جسدي من جديد.

هو: (ساخراً يضحك مع المرأة الملاك) هل تظنّ رسوماتك فنّاً.

المرأة الملاك: إشش يظنّ أنني حبيبته، (إلى فان كوخ) من دون هذا كيف سنعيش؟

فان كوخ: (بهدوء) هل تريدين حقاً العودة إلى حياتك السابقة، إلى الشارع؟

المرأة الملاك - سين: نعم، لأن الجميع لن يبارك زواجنا.

فان كوخ: المهم أن نبارك نحن أحدنا الآخر.

المرأة الملاك - سين: وكيف سأُرضع طفلي، كيف؟ انظر، ألا تراني كشجرة يابسة؟ (تضرب على صدرها بعنف وتمزّق ثوبها) انظر هل يمكن لهذا الصدر أن يمنح الحياة لطفل؟ كيف سأرضعه، كيف؟

هو: (ساخراً) يبدو أن بيع الجسد في زماننا هذا أكثر ربحاً من بيع لوحة فنية. (عواؤه يأتي من بعيد) عو، عو، عو...

فان كوخ: (مرعوباً) ما هذا؟!

المرأة الملاك - سين: (إلى هو) إششش... (إلى فان كوخ) اهدأ، اهدأ.

هو: (يعوي) عو، عو، عو...

المرأة الملاك – سين: اصمت، إششش.

فان كوخ: من أين يأتي هذا الصوت؟

المرأة الملاك – سين: إنها الريح وثرثرات الجيران تأتي من تحت الباب.

فان كوخ: يجب أن نرحل من هنا إذاً، هل نرحل سويّة؟

المرأة الملاك – سين: لن أرحل.

فان كوخ: لنبتعد عن هؤلاء حتّى لا نسمع هذا الضجيج، لنرحل.

المرأة الملاك – سين: لن أرحل.

فان كوخ: أرجوك أنا بحاجة إليك، لنرحل من هنا كصديقَين وحبيبَين مخلصَين.

المرأة الملاك – سين: لا أستطيع، لقد ولدت هنا في هولندا وسأموت هنا.

فان كوخ: أستحلفك أن ترحلي معي إلى باريس.

المرأة الملاك – سين: (صمت).

فان كوخ: (بعد فترة) إذاً سأرحل وحدي.

المرأة الملاك – سين: ارحل (ضحكة مخنوقة).

فان كوخ: حتّى أنت ترفضين صحبتي؟ ظننت أن حبّي يعني لك شيئاً، (فترة) يا إلهي الآن أرى كل شيء بوضوح. الآن وحدتي هي قدري من جديد.

المرأة الملاك – سين: اهدأ، اهدأ لا تغضب، أنت في محرابك، أما أنا فليس لي مكان فيه.

فان كوخ: (لنفسه) لقد استعدت توازني معها، وأردت أن أنجز فناً كوخز الشرايين بالإبر، أردت أن أكتشف معها عمق البحر والغابة والحقول الذهبية.

هو: عو، عو، عو...

المرأة الملاك – سين: (إلى هو) إشش... (وإلى فان كوخ) اهدأ، لا تغضب، تعال (تحتضنه).

فان كوخ: ارحلي معي.

المرأة الملاك – سين: اهدأ.

فان كوخ: أرجوك ارحلي معي.

المرأة الملاك – سين: اهدأ، اهدأ.

فان كوخ: (يمسكها بعنف) لنسافر سوية، هنالك أستطيع أن...

المرأة الملاك: (تخلّص نفسها) لن أرحل (تعود إلى شخصية المرأة الملاك) لأنني لست حبيبتك، أنا هنا في المستشفى مثلك، اتركني وإلا سأنادي الحراس (إلى الآخرين) يظنّني حبيبته، هل كانت سين تحبّه أم تستغلّه؟ (الى كوخ) مؤكّد أنها كانت تحبّك بالرغم من أنكما عشتما في زقاق الفئران.

هو: زقاق الفئران؟ عو، عو، عو...

المرأة الملاك: إشش... إشش.

فان كوخ: (مذهولاً) زقاق الفئران!!

المرأة الملاك – سين: (تعود إلى شخصية الحبيبة) يا حبيبي أنت روح قلقة، هائمة، إن حياتك لن تتحمّلنا نحن الاثنان، ارحل، ارحل لوحدك، سأتذكّرك دائماً، لأنك الوحيد الذي عطف عليّ وانتشلني من الشارع. والآن يجب أن أبحث عن قوتي، معدتي خاوية وطفلي جائع، عليّ أن أذهب، ليس لديّ وقت، يجب أن أذهب، وداعاً (تبتعد).

هو: وداعاً.

فان كوخ: واأسفاه.

المرأة الملاك - سين: كانت أجمل الأيام.

هو: أجمل الأيام.

المرأة الملاك - سين: أجمل الأيام.

هو: أجمل الأيام.

المرأة الملاك - سين: (كالصدى) الأيام. الأيام. الأيام.

هو: (يقلّدها) الأيام. الأيام.

فان كوخ: (متمتماً) أردت أن أجعل منها قدّيسة، لكنها فضّلت أن تكون كنجمة انطفأت في سماء مظلمة (يعدّ النجوم) نجمة، نجمتان، ثلاث نجوم، أربع، خمس، ست، سبع... نجوم، نجوم، نجوم كالمرايا في البحر، كالمرايا في البحر، كالمرايا في البحر.

هو: (يعوي كذئب مجروح) عو، عو، عو.

(تُضاء خلفية المسرح بإنارة ساطعة، نرى فيها البدوية واقفة في هالة الضوء، والمرأة الملاك تنجذب نحوها باستسلام)

الطقس الثالث

ملاك وشيطان يتخاصمان على جسدي

(صوت الريح في الظلام لفترة وجيزة. «هو» يدور حول نفسه وفان كوخ في دائرة النور الذي ينهمر على جسده العاري كشلّال، إنه يستحمّ بالنور وكأنه يتطهّر به. البدوية تقف في هالة الضوء أيضاً مغطيةً وجهها بحجابها، فلا يُرى منه سوى عينَيها، حيث ارتدت ملابس نساء الصحراء السوداء. المرأة الملاك مرتبكة وخائفة تتجه نحوها وكأن ثمة قوّة ما تسحبها إلى الأمام. يبدأ رقص عنيف بين المرأتَين يدلّل على الصراع بينهما؛ وهو صراع مصيريّ. الرقص يوحي بانتصار المرأة الملاك مرّة والبدوية مرّة أخرى، وفي النهاية تُنهَك المرأةُ الملاك وتنجذب نحو البدوية خاضعةً لها باستسلام قدريّ. البدوية تمسك المرأة الملاك وتفقأ عينَيها لتصبح عمياء حتّى النهاية، فيحدث نوع من الخضوع يوحي بأنه أبديّ. البدوية تشعر بالانتصار، فتبدو وكأنها الصقر، تبدأ البحث بحركة وحشية عن فان كوخ، المرأة الملاك في حالة من الاستسلام. يشعر فان كوخ بالرعب ويهرب منها في الظلام. يعمّ الصمت بدل الموسيقى، وعندما نسمع فان كوخ يجلد جسده بوحشية في ظلام زاوية من المسرح، يتغيّر المشهد)

الطقس الرابع
طقس الاعتراف

(فان كوخ شبه عارٍ يجلد جسده بعنف)

فان كوخ: بينما القدر يقترب
والساعات لا تكاد تتنفّس،
تتحوّل رمال الزمان
إلى ذرّات من ذهب،
تشتعل لهيباً،
يحرق روحي
نور، نور أيها النور كن دليلي.

المرأة الملاك: أيها النور كن دليلنا.

فان كوخ: (وهو ما يزال يؤنّب نفسه) إني خجل من هذه الحياة حيث يُستلب فيها الفنان، خجل من هذا الزمان، خجل لأنهم سجنوني ومنعوا أي اتصال بي، إني لخجل. (فترة صمت) لكن المهم ألا نجهل هذا كلّه. أليس لنا الحق في أن نحلم بعالم آخر لا ندفع فيه ثمناً قاسياً؟

المرأة الملاك: نور، نور، أيها النور كن دليلنا.

هو: (ما زال يتعامل مع الفنان بعُنف وسخرية) لماذا تتشكّى دائماً، ماذا تريد؟

فان كوخ: (كأنه يعترف) ألا تفهم؟ أريد لألواني أن تواسي الناس كالموسيقى. أريد أن أفجّر الألوان بالموسيقى التي تشبه أمواج البحر الصاخبة. أريد أن أرسم اللانهاية كنجمة زرقاء غامضة

في روح الإنسان. أنني بحاجة إلى النور لأن الظلام يمنع بزوغ الروح، لا بدّ من أن أرى شموساً أخرى، لا بدّ. فبنقاء الروح يصل الإنسان إلى المطلق و...

هو: (ساخراً) أريد... أريد... ماذا جرى لك؟ قل ماذا تريد؟

فان كوخ: أريد أن أحوّل اللون الأصفر إلى نور، أن أصوّر البشر لأدعَ فيهم شيئاً من الأبدية، فالحياة قصيرة كالدخان.

هو: (مقاطعاً) دائماً مضطرب ومرتبك. لا تثرثر هكذا. قل بوضوح ماذا تريد.

فان كوخ: أن تُضيء ألواني روح الإنسان.

هو: هذه أفكار مجانين. وأنت أضعت حياتك في البحث عنها كمن كان يبحث عن سراب. قل بكلمة واحدة ماذا تريد؟

فان كوخ: أريد الحقيقة.

المرأة الملاك: (تشهق) حظ عاثر، لن تتحمّل هذا العذاب كلّه.

فان كوخ: لماذا؟

المرأة الملاك: كي تحوّل اللون إلى نور لا بدّ لجسدك وروحك من أن يتطهّرا، أنت لن تتحمّل هذا العذاب كلّه.

فان كوخ: ليس عذاباً، إنه معنى لحياتي.

هو: إذاً عليك أن تتحمّل نتائج رحلتك، هل تريد من يساعدك؟

فان كوخ: نعم.

هو: (يهمس له مشيراً إلى البدوية) اذهب واركع أمام سيّدة الأسرار، هي فقط القادرة على رؤية المجهول الذي يُفني الإنسان حياته في الصراع الأبدي معه، من دونه ليس ثمة معنى للحياة. اعترف الآن في حضرتها وتشفّع لديها لتساعدك في تحقيق ما تريد. ستنبئك

سيّدة الأسرار بهذا. (فترة) داتا، دايا، داميانا.

(يبدأ طقس التطهير الخاص الذي يمكن أن يركّز عليه المخرج بطريقة قريبة من الطقوسية، ومن ضمنها نرى «هو» وهو يقوم بتعرية فان كوخ لتهيئته للرحلة، مدلّكاً جسده كلّه بالطين أمام البدوية)

هو: إنك لا ترى الآن سوى الفراغ في هذا الكون. ليبتعد قلبك وفكرك عن الأوهام، فمن أجل أن ترى الجمال لا بدّ من أن ترى القبح. وكي ترى شموساً أخرى لا بدّ من أن ترى ما في الظلام وتسمع الصمت. ولا يمكنك أن تعرف الخير ما لم ترَ الخطايا والشرور.

المرأة الملاك: ومن أجل أن تمتلك الحكمة لا بدّ من أن تبحث عنها وتتعذّب.

(تبدأ البدوية طقوسها وتعاويذها لرؤية المستقبل، تلطم جسدها كلّه بإيقاع بطيء يكون فيه للصمت حضور، ثم يتسارع هذا اللطم، إنه تعذيب الجسد من أجل استجلاء الروح والنبوءة، فيبدأ الجميع بتوهان الوجد الطقوسي والإيحاء بعملية الطّلق لمساعدة البدوية في ولادة النبوءة؛ لمساعدة فان كوخ في رحلته. يجب أن يأخذ هذا الطقس التنبّؤي وقته الطبيعي الكافي لفهم معناه. يقوم الجميع و«هو» بطقوس تتخلّلها أصوات وفحيح وحشرجات، والمرأة الملاك تقوم بتأوّهاتها ووجدها ورقصها ونواحها الجسدي الصوفي، فتتصاعد أصوات الآخرين وآهاتهم وحركات لطمهم إلى الذروة، ومن ثم يهدأ كل شيء فجأة، صمت طويل في انتظار النبوءة)

المرأة الملاك: سترافقك سيّدة الأسرار لتساعدك على عبور باب الحياة وباب الموت اللذين ستكتشف من خلالهما أسراراً من الصعب معرفتها،

وسترى رؤى غريبة. وعندما تعود ستكون ملكها وتتبعها إلى مملكتها في الصحراء التي تستعر جحيماً... ستأخذك إلى هناك عند سقوط القمر في البحر. تذكَّر هذا العهد. (البدوية سترافق فان كوخ في رحلته؛ تراقبه وأحياناً تشترك في بعض المشاهد)

هو: هل أنت مستعدّ؟

فان كوخ: نعم...

المرأة الملاك: حظ بائس.

هو: انهض وارحل إذاً (صمت، ثم يستمرّ بالتعويذة)... داتا، دايا، داميانا.

المرأة الملاك: (تمنحه شارات الرحلة) خذ هذه شارات رحلتك الضوئية، يجب أن تتسلّح بها. هذا هلال الحكمة، وهذه تعويذة الرؤيا، وهذه كفّ سيّدة النور، احذر أن تفقدها. بها ستجتاز العتبتَين وعند كل عتبة سترى رؤيا توسّع خيالك وفكرك. هناك ستلتقي حارسة النار المقدّسة التي يخافها البشر جميعاً. لا تخف أنت. وعندما تعود من رحلتك عليك أن تفي بوعدك. تذكَّر ليلة سقوط القمر في أعماق البحر ستكون في حضرة سيّدة الأسرار، ستكون ملكها، تابعها، تفعل بك ما تشاء.

هو: هيّا انهض واعبر البحر المقدّس إلى النار المقدّسة، إلى المجهول. اعبر دكّة الأسرار الأولى.

فان كوخ: (لنفسه) هل حُكم عليَّ الآن بالتشرّد إلى الأبد؟

هو: (فان كوخ يتبع البدوية مأخوذاً) داتا دايا، أعبر فنسنت فان كوخ. اعبر سلالم النور. داتا دايا داميانا.

(فان كوخ والبدوية يسيران مأخوذَين في الفضاء الخالي الذي

لا نسمع فيه سوى همس الآخرين بكلمات غير مفهومة والحوار المتوتّر التالي، من الممكن استخدام الفيلم كخلفية توحي بالرحلة الضوئية)

المرأة الملاك: احذر أيها البشر الفاني، احذر رحلتك الضوئية.

هو: اعبر سلالم الرؤيا ونورها.

المرأة الملاك: احذر أيها الفنان من نور المستحيل.

هو: (يتصاعد إيقاع الحوار والحركة) اعبر سلالم الأسرار، فكل إنسان يحارب الفناء في داخله.

المرأة الملاك: احذر أيها الفاني كي لا تسقط في الظلمات النتنة.

هو: داتا دايا داميانا... اعبر أوقيانوس النور.

المرأة الملاك: احذر كي لا تندم.

هو: اعبر نحو المجهول... اعبر.

المرأة الملاك: يا إله البشر، أنقذ هذا الإنسان الجموح.

هو: داتا دايا داميانا... اعبر السلالم الضوئية أيها السيّد فان كوخ وتطهّر بالنور.

فان كوخ: (هاذياً) الأزرق ملتوٍ. الأخضر منساب. الأصفر نار. الأبيض ملتاث. واللؤلؤ مستباح في البحر، في الصحراء، النار، الجحيم، الفضاء، الفجر. جحيم. جحيم. جحيم ليل. جحيم الروح، جحيم اللون، لون، لون، أحمر، أسود، أصفر، أخضر، نور، طبل، رقص، نور، جنون، عشب، ليل، حب، رقص، حلم، حزن، ظلّ، ضوء، طفل الليل، نور، يأس، ثيو، ثيو، رقص، رقص، رقص.
(يستمرّ بالهذيان، ويمارس الجميع الهذيان الجسدي أيضاً، وكأنه ضرب ولطم لمعاقبة الجسد)

هو: داتا دايا داميانا، داتا داتا داتا.

(الجميع يهذي ويهمس بصوت مخنوق، وأجسادهم تتلوّى)

المرأة الملاك: (تصرخ بشكل متواصل ومخيف) يا رب العباد أنقذنا.

الجميع: أنقذنا يا ربّ.

(موسيقى تتبؤنا بالرحلة نحو المجهول)

الطقس الخامس
طقس البابَين الضوئيَّين

الباب الأول: زهرة الشعراء وقدّاس النقّاد

(نزلاء مستشفى المجانين بملابسهم التي تميّزهم وحقائب السفر وكأنهم على سفر وشيك في الخيال. في البداية نراهم جالسين بجمود ملحوظ على شكل دائرة يحتضنون حقائبهم وبعضهم يجلس عليها، واحد أو أكثر داخل حقيبته. الجميع ينظرون طويلاً وبتركيز كبير نحو الجمهور. وعندما يدخل فان كوخ متوجّساً هذا المكان الجديد، يتحرّكون بهدوء ويدورون مشكّلين دائرةً كما في السجن، ونرى معهم أيضاً البدوية و«هو» والمرأة الملاك. حركاتهم مشتركة وآلية أحياناً، لكنها بطيئة بالرغم من أنهم يتمتمون بهمس غير مفهوم، من الممكن أن يكون آيات دينية. مكوّنات السينوغرافيا تتميّز بالأبيض، وكأنهم في عالم غير عالمنا. النزلاء لا يتكلّمون في ما بينهم مباشرة، وإنما كلّ منهم يهمس مع نفسه، وكلّ له عالمه الخاص. وعندما يتكلّمون على فان كوخ فإنهم يتكلّمون عنه وكأنه غير موجود).

هو: هنا الطريق إلى غابة العذاب الأبدي
هنا الطريق إلى عالم الأسرار والمجهول.

النزيل الأول: (مرعوباً) مَن هذا الذي يطرق أبواب مملكتنا بلا خوف؟

النزيل الثاني: (همساً) إنه الفنان المجنون الذي قطع أذنه وأهداها إلى مومس.

هو: ماذا يريد؟

النزيل الثالث: لا أعرف لكنه مجنون حقاً. كيف يجرؤ أن تطأ قدماه هذا

المكان؟

النزيل الرابع: خُدع، (ضاحكاً) لم يخرج من هذا المكان كلّ من دخله، ليعد إلى عالمه الذي جاء منه.

النزيل الأول: (دون أن يلتفت إليه) ليبتعد عنّا، ليرجع في طريقه المجنون.

النزيل الثاني: ليبتعد عنّا. (بإيقاع متصاعد وعنيف ومتداخل الأصوات ومن دون صراخ).

النزيل الثالث: مجنون، ليبتعد عنّا.

النزيل الرابع: ليبتعد عنّا.

المرأة الملاك: ليبتعد عنّا.

البدوية: ليبتعد عنّا.

النزيل الثالث: مجنون.

النزيل الأول: مجنون.

النزيل الرابع: ليبتعد عنّا إنه طاعون.

النزيل الثاني: ليبتعد عنا سيلوّثنا.

هو: لا نريده، فليبتعد عنّا، فنان مصاب بالجرب.

المرأة الملاك: بشر يسعى ضدّ قَدَره،كل طموحه أن يرى المستحيل.

البدوية: مخضّب بالدم من رأسه إلى قدمَيه.

النزيل الثاني: (إلى كوخ) انظر إليّ «فترة» اللعنة، إنه شبيهنا.

هو: (هامساً إلى كوخ) إذا أردتَ النجاة من هذا المكان الموحش، عليك أن تسلك طريقاً غيره، فما زال لديك متّسع من الوقت.

فان كوخ: (إلى قرينه «هو») لماذا أنتم هنا؟

النزيل الثاني: إشش، لا تسأل.

النزيل الرابع: هل تعتقد بأنه يمكن العيش في مكان آخر، لا يمكن.

فان كوخ: ماذا فعلتم كي تتعذّبوا هكذا؟

النزيل الثالث: لا شيء كانت الحياة لي سراباً.

النزيل الأول: وكان وجود الآخرين بالذات يزعجني.

النزيل الرابع: عانيت كثيراً وكنت مجنوناً منذ البدء لأنني تحمّلتهم طوال الوقت، صمتُّ ولم أرفضهم، لقد ذبحوني أولئك المزيّفون.

النزيل الأول: (يهجم على فان كوخ) لماذا تلاحقني؟ لا تتبعني. لم أقتله. لا تستغفلني. أعرف مَن تكون. ليس لك الحقّ في أن تلاحقني، لأنني لم أقتله. هو الذي انتحر يوم الأربعاء، نعم الأربعاء. اغرُبْ عنّي واتركني وحدي. (ينهار على الأرض في نوبة صرع متشنّجاً بلا ضجيج، وجسده يظلّ يدور حول مركزه) أعرف أنهم لن يكفّوا عن مطاردتي. سأعترف، فقط ليبتعدوا عني. (صمت، ثم ينفجر بصراخ طويل) نعم لقد قتلته، قتلته من أجل نقوده، كان يخبّئ مالاً كثيراً، وهو الآن معي وقد خبّأته، سأريك إيّاه. وإذا رغبت سأعطيه لك، لكن بشرط أن يكفّوا عن ملاحقتي. أعرف كيف أنال حرّيتي حتى لو كنتُ القاتل، لأنني أعرف جميع ثغرات القوانين وسأتلو عليك، النصوص القانونية التي تسند دعواي، لأنني درست المحاماة وعلم القضاء والعدالة وأعرف بأن القوانين مثقوبة وهي سبب المآسي جميعها. قل لهم أن يتركوني وسأكون بخير، سأكون بخير، القوانين مثقوبة، القوانين مثقوبة، مثقوبة... (يتلو نصوصاً قانونية عن القتل والجريمة، يتمتم بها، لكننا لا نفهمها حتّى يتلاشى صوته، يجمد ساهماً وكأنه تجمّد).

هو: (إلى فان كوخ همساً) أتعب دماغه بدراسة القانون، كان لا

ينام، فقط يقرأ... ويقرأ القوانين صباح مساء، ولا أعلم لمَ كانوا يطاردونه.

النزيل الأول: (يهمس إلى «هو» قاصداً فان كوخ) قل لشبيهك هذا المجنون أن يعود من الطريق المجهول الذي جاء منه، قل له أن يبتعد عنّا.

النزيل الثاني: (هامساً) ليبتعد... ابتعد.

النزيل الثالث: ليبتعد... ابتعد.

النزيل الرابع: ابتعد.

(الثاني يبدأ بعواء ذئب ويستمرّ بأقصى طاقته؛ يجب أن يُعطى هذا الفعل وقته الكافي، ثم صمت ثقيل)

هو: هنا الطريق إلى العذاب الأبدي، هنا الطريق إلى عالم الأسرار والمجهول.

(تُعرض على الشاشة لوحة فان كوخ «آكلو البطاطا». يفرش فان كوخ شرشفاً أبيضَ على الأرض، ويرسم بيدَيه عليه؛ بالطين الذي على جسده من المشهد السابق. النزلاء يتكوّمون حوله ولا يفهمون ما يفعله. البدوية والمرأة الملاك و«هو» يضعون في رقابهم أحذية قديمة ويتحوّلون إلى نقّاد من أجل السخرية من الفنان، يساندهم النزلاء، يمسك بعضهم بخيط دميته البالونية الهوائية التي يلعب بها في الفضاء. المرأة الملاك العمياء الآن تجلب كرسيَّ المقعدين وكأنه العرش لتجلس البدوية عليه كرئيسة النقّاد. ومنذ الآن يشوب المشهد شيء من السخرية والتهريج تمارسه هذه الشخصيات بسذاجة. يدور النزلاء ساخرين ومندهشين حول الفنان وهو يرسم.

يشتركون بحركات موحّدة في ما بينهم وكأنهم دمى تهريجية)

البدوية (رئيسة النقّاد): دائماً يختار الألوان القاتمة والقذرة.

النزيل الأول: لماذا؟

هو: لا أحد يعلم كيف يفكّر.

المرأة الملاك (الناقدة الثانية): تبدو وكأنها ألوان طينية.

النزيل الثالث: مُقرفة.

هو (الناقد الأول): مُقرفة... وخراء.

النزيل الثاني: هل جنّ من الرسم، أم أن جنونه دفعه إلى أن يرسم؟

البدوية (رئيسة النقّاد): يقول إنه يريد التعبير عن روح العصر، ها ها ها.

المرأة الملاك (الناقدة الثانية): لا يرى جمال الحياة بل يرى قبحها فقط.

البدوية (رئيسة النقّاد): يرسم أحذيته القديمة كلوحات على الناس أن يعلّقوها في غرف نومهم. وإذا رفضوا لعن العصر الذي يعيش فيه. وعندما نكتب عنها وننصحه، يشتمنا في سرّه، أمعقول هذا؟

هو (الناقد الأول): نعم معقول. ولا أعرف هل هذا بسبب جنونه، أم بسبب خياله الواسع؟

(يبدأ النزلاء بوضع الأحذية بأشكال مختلفة وتعليقها واللعب معها سخريةً من الفنان، فيتحوّل المشهد إلى تهريج، وجميع الشخصيات إلى دمى تتحرّك بإيقاع خاص

ومن ثم يجمدون. النزيل الثاني مستمرّ في العواء بأقصى طاقته).

فان كوخ: تأمّلي فيهم يا روحي. إنهم فظيعون حقاً

أشبه بتماثيل الأزياء.

عن أي شيء يبحث

هؤلاء العميان؟

البدوية (رئيسة النقّاد): بدأ يشتمنا.

هو (الناقد الأول): رجل انفعاليّ قادر على القيام بأفعال خطرة.

المرأة الملاك (الناقدة الثانية): يرى البؤس في الوجود دائماً.

هو (الناقد الأول): ويرانا مجانين ومهرّجين أغبياء في سيرك كبير. (صمت) لقد صار الجنون هو العقل. (عن لوحة «آكلو البطاطا») انظر إلى هذه اللوحة، لا يمكن للإنسان أن يتحمّل ألوانها القاتمة والكئيبة.

فان كوخ: (إلى «هو») كلما ازداد وجدي اتّسعت رؤيتي، فانبعث الإبداع كشلال من النور، وتكوّنت اللوحة جمالاً خالصاً. (عن لوحة «آكلو البطاطا») أردت لهذه اللوحة أن تكون دعوة إلى التفكير في حياة حقيقية مختلفة عن الحياة المزيّفة، إنها ستتوهّج في المستقبل كتوهّج حقول القمح الذهبية (صمت). يا إلهي لمَ الإنسان بائس إلى هذا الحدّ؟ لمَ هو عاجز عن القيام بفعل ما.

هو (الناقد الأول): أنت أكثر عجزاً من الآخرين، ما الذي فعلته في حياتك؟ بلا وعي قطعت أذنك وأهديتها إلى مومس الماخور حتى تحتج وتسخر من نفسك ومجتمعك ومنا جميعاً، حاولتَ الوصول إلى عمق الجمال، جرَّبتَ إعادة إبداع الحياة من جديد، تجرأت بالمطالبة على تنظيم الفوضى الكونية، لكنك لم تستطع حتى تنظيم فوضى روحك. (بهستيريا) لكن عن أي فوضى تتحدّث؟ كل شيء منظّم في هذا الكون. أنت فاشل أيها الفنان، فاشل في كل شيء. لم تبع سوى لوحة واحدة في حياتك، ولا بد من أن يكون أخوك ثيو هو الذي اشتراها، فهو تاجر لوحات. وحتى بورتريه الدكتور فيلكس ري الذي رسمته وأهديته له، أخذه منك ليضحك عليك ويستخدمه في غلق ثقب ببيت الدجاج الذي كان يملكه، إن لوحاتك تحمي الدجاج من البرد أيها السيد فنسنت فان كوخ. (يستمرّ في الضحك) أنت فنان فاشل ومخضّب بالدم من رأسك إلى قدمَيك، يا ليتني لم أعرفك.

(تبدأ عاصفة الأجساد من جديد، ويدور الجميع في أنحاء المسرح بحركة بطيئة جداً أثناء الحوار الآتي)

البدوية (رئيسة النقّاد): (تضع قناعاً ولحية رجل) في ساعة الشفق

رغم العمى، أخفق بين حياتَين،
لكني قادرة على أن أرى.
في ساعة الشفق، ساعة المساء
التي تُعيد الملاّح إلى أهله من البحر.
أنا العجوز أرى ما لا يُرى،
أقدر أن أراك الآن رغم العمى
وأتنبّأ بك كبشر ملعون،
شبيه المنتحرين في الحياة
أولئك الذين تلهث للانضمام إليهم.
وبالرغم من كل الظلام والعمى
أقدر أن أراك بين الموت والحياة.
وفي لحظة غضب هناك قرب شجرة السرو الوحيدة
ستُنهي حياتك في يوم قائظ.
ستُطلق الرصاصة المنتظرة
أو ستُذبح من الوريد إلى الوريد.
وستشهد غربان الحقل زهرة روحك الدامية.
ستغذّي دمك زهور عبّاد الشمس
وحقول القمح،
فتتوهّج سنابل النار.
ستفرّ الغربان التي رسمتها في لوحتك الأخيرة،
وسيكون الدرب الطويل الذي رسمته بلا نهاية... قبرك
وستهيم أنت في سموات المجهول.
الآن وقد جرى ما جرى، يسرّني أنه انتهى، حانت لحظة

الطيران.

سنطير من جديد.

سنطير... سنطير.

وداعاً... وداعاً.

النقّاد: سنطير... وداعاً... وداعاً.

(بعضهم يمسك الدمى كبالونات ويتهيّأ للطيران، لكنه يجمد مبتهجاً كما في صورة فوتوغرافية)

فان كوخ: هؤلاء هم الموتى الأحياء، أصحاب الدماء الباردة والضحك الغليظ

لقد سرقوني، سرقوا زمني.

وهأنذا أسمع طبول الخواء في هذه الفوضى وأشمّ رائحة نتنة.

موسيقى

الباب الثاني
عينا ميدوزا الجميلتان

(تنبثق البدوية من الظلام من دون نقاب وبشعر وحشيّ، مهيبة وصامتة. تغوي «هو» بجمالها وغموضها وسرّها. يدوران حول بعضهما. بقية الممثّلون جامدون وشبه عراة وبأوضاع مختلفة، يبدون وكأنهم أشباح حجرية. المرأة الملاك وفان كوخ يراقبان ما يجري)

المرأة الملاك: (هامسةً إلى فان كوخ) انظر إليهم لقد خدعتهم بجمالها، فتحوّلوا إلى حجر بلا روح عندما لمسوها ونظروا في عينَيها. في النهار حرارة الشمس تشويهم، أما في الليل فأجسادهم تمتصّ حرارة الحجر. إن عذابهم أبديّ.

(هذا المشهد يعتمد على روح الصمت وتأويلات حركة الجسد ودلالة الرمز الداخلي للتعبير عن الفكرة الأساسية التي هي إغراء الزيف والجمال الخادع وقوّته في التأثير على الإنسان، ولا يتمّ هذا من خلال التعبير عن قوّة الجسد، وانما من خلال العلاقة السرّية غير المرئية التي تفرضها قوّة الرمز الذي تمثّله الشخصية وتأويل حركتها، فالصراع بين هذين القطبَين أو الرمزَين هو الذي يجب أن يؤكّد ويأخذ حجمه وإيقاعه الطبيعيَّين في الفضاء وفي ذهن المشاهد. إنه بين شبيه فان كوخ الإنسان، أي الذات الأخرى للفنان «هو»، والبدوية كرمز للغموض والسرّ والجمال الزائف أو الموت أو المرض الذي يخرّب روح الإنسان ويشوّهها. لذلك يجب إعطاء الحركة المعبّرة المتقنة

إيقاعها، والصمت تأثيره في الفضاء، وإعطاء كل هذا المدى الواقعي في التعبير. إن الإيقاع والصمت المتوتّر هما اللذان يُعطيان الحدث معناه. وهذا الصراع بين «هو» (الذات الأخرى) والبدوية يُعبَّر عنه بواسطة رقصهما العنيف وتصادم جسدَيهما نتيجة لخشونة الحركة وعنفها. ويتصاعد إيقاع الحركة حتّى نهاية المشهد، إلى أن يصبح كأنه انفجار، فيتحوّل «هو» إلى خرقة بالية. إن مثل هذا الإيقاع المتدرّج والمتصاعد للحركة والرقص له ضرورته في هذا الحدث. من خلال ذلك يمكن التعبير عن ذاكرة الجسد الإبداعية، وهذا يعني التعبير بالجسد من خلال تخلّيه عن عاداته اليومية بحيث يكون له وظائف إبداعية جديدة يفرضها الحدث الفنّي، أي أن تكون الحركة تعبيرية. وبما أن البدوية رمز، فإنها تمتلك القدرة على استلاب كل ملكات الإنسان. إذاً شخصية «هو» (الوجه الآخر والروح الأخرى المشاكسة للفنان) تُعتبر رمزاً للتحدّي والدخول في المغامرة لتحقيق حيوية الإنسان في صراعه مع المجهول أو الموت. لذلك فإن «هو»، وفان كوخ نفسه (الذي كان يراقب كل شيء منذ البداية) يبدوان حذرَين من هذه المغامرة، فكوخ مرتاب وخائف من هذه المرأة البدوية (الرمز) الغريبة ذات الدلالة المليئة بالغموض، فيتراجع أمامها في البدء حذراً، لكنه بعد ذلك يكتنفه عناد الإنسان في صراعه الأبديّ. يقترب جسد «هو» وجسد البدوية ليلتحما ثم يدورا ببطء في المكان. تحاول البدوية اختراق جسده بحركتها والتصاقها به إلى درجة تبدو فيها وكأنها تريد الدخول في أعماقه، وإفراغه روحياً، فرقصها معه يتحوّل إلى العنف المفاجئ. تبتعد هي عنه لتتمعّن فيه وتدرس قوّته وضعفه، لترى من أي زاوية تنقضّ عليه، ثم تلين معه وتداهن

بالرغم من أن حركتها توحي بهيمنتها عليه. وفجأة يقفزان سوية فيلتحم صدراهما إلى درجة أننا نسمع قوّة الاصطدام ولهاثَيهما. تقذفه أرضاً ومن جديد يقومان بالحركة نفسها، ليتكرّر ذلك مرات عدّة، لكن روحه دائماً ممتلئة وقوية. وبالرغم من عناده في التحدّي والصراع، إلا أنها تمتلك القوّة الداخلية السرّية الغامضة في تحويله إلى حجر وتخريب روحه، وبشكل مفاجئ تصطدم بجسده وتقذفه أرضاً من جديد)

الحجر الأول: (بهمس مخنوق) شغّي عليه بنورك.

الحجر الثاني: فنان ملعون.

الحجر الرابع: وبشر أكثر لعنة.

الحجر الثالث:حوّليه إلى حجر.

الحجر الرابع: احرقيه بمقلتَيك الجميلتَين.

(في النهاية ينهض «هو» ليبدأ صراعه من جديد، وعندما تقذفه أرضاً يسقط منهاراً فتجثم فوقه طويلاً. وحالما تتركه وتهمّ بالذهاب يتبعها متحدّياً، وفجأة تنقضّ عليه، وبعنف ترميه فيتلوّى على الأرض منهاراً وصارخاً بشكل مخيف وعنيف لا يُطاق لفترة طويلة من الزمن نشعر من خلالها بعنف آلامه وحجمها، نتيجة لشعوره باليأس وقدرتها على الانتصار عليه وإفراغ روحه. وفي النهاية تغطّي البدوية رأسه بقطعة قماش حمراء شفّافة. وتختفي في الظلام بزهو، ويبقى «هو» يئنّ ألماً)

ظلام

الطقس السادس
غابة السديم في مرآة الأسرار

(«هو» ما يزال منهاراً. المرأة الملاك تساعده، تنزع ملابسه القديمة فيبقى عارياً إلا من وزرة يمانية تغطّي وسطه الأسفل، وما يزال وجهه مغطّى بقطعة القماش الحمراء الشفّافة. في زاوية المسرح توجد مرآة كبيرة. البدوية تراقب كلّ ما يدور)

هو: (يهمس منهاراً يتمعّن دائماً بمرآة صغيرة)
أيها الإنسان الحرّ
دائماً ستحب البحر.
البحر مرآتك
فتأمّل روحك في حركة أمواجه اللامتناهية
(فان كوخ يأتي من البعيد، يحاول أن يرى وجه «هو»)
أتعرفني؟

فان كوخ: هل التقينا من قبل؟

هو: كيف ترد على سؤالي بسؤال؟!

فان كوخ: (مرتبكاً) يخيّل إليّ أننا التقينا من قبل.

هو: (ينظر إليه بزاوية عينه، وكأنه عرفه) ربما... ما الذي جاء بك إلى هنا... ماذا تريد؟

فان كوخ: جئت هرباً من العيش في غابة من المتوحّشين وفي عالم ليس حرّاً، ومن أجل هذا أريد أن أكون قادراً على تحويل ألواني إلى نور يضيء روح الإنسان.

هو: (يضحك) هذا مستحيل. هل أنت مجنون؟ لن تستطيع ذلك لأننا نعيش في عالم مليء بالفوضى. الإنسان فيه بشر بائس، مسكين، لا يملك مرآة الخيال ليرى حقيقة الأشياء، أو ليرى الأسرار الخفيّة أو المجهول أو الرؤيا، ولا يملك حتّى الوسائل الأخرى التي يمكن أن تساعده على السباحة في البحر المقدّس بعيداً عن خطاياه، أنانيته، ومقاومة شغفه لتدمير الحياة وتشويه الجمال، أو حبّه للعنف المتوحّش، فيفضّل هو نفسه أن يعيش في غابة. إن هذه مصاعب تفوق تحمّل ذلك الذي يريد أن يحوّل هذه الغابة المتوحشة إلى جنّة.

فان كوخ: لكن من أجل هذا أعطيت نصف عقلي.

هو: لأنك فنان حريص على استخدام عقلك بمنتهى حدوده، فتطلب المستحيل.

فان كوخ: ليس مستحيلاً.

هو: أو نور يضيء روح الإنسان! سيكون هذا مستحيلاً إذا بقي فكرة فقط، فأنت بمساعدة خيالك وقدراتك كفنان تستطيع أن تخلق الأشياء المستحيلة، نعم أعرف هذا. أما الآخرون فالخيال هو مشكلتهم جميعاً، وعدم قدرتهم على الحلم. نعم الحلم والخيال سيحيلان ألوانك نوراً، درباً للإنقاذ. لماذا تلهث وراء هذا المستحيل؟ لماذا تُتعب نفسك؟

فان كوخ: لأني أشعر بأن الإحساس بالجمال يشعّ في روح الإنسان نوراً.

هو: نعم ممكن، لكن الإنسان... (ساخراً) الإنسان... الإنسان (يضحك) إنه كائن عاجز، ولا يودّ الخروج من عجزه، وها هو يعيش في فراغ رهيب.

فان كوخ: نعم ومحاصراً من الموت.

هـو: نعم صدقت، إنه أهم الأفكار. لكن بالرغم من هروبنا الأبدي منه إلا أن الزمن هو الفخّ الذي يصطادنا ويضعنا في شِباكه. لماذا تفكّر في الموت بهذا الضجيج... هل تخافه؟

فان كـوخ: لعلّ الموت ليس أصعب ما يواجهه الفنان، لكن ماذا أفعل؟ إنه يجذبني بإغراء لا محدود، وفي كل مرّة يتسرّب نور يغشى بصري، يتحوّل إلى عاصفة نارية، تتراءى لي فيها حورية بشعرها الذهبي المرصّع بصدف البحر، وهي تنحدر بعيداً في هوّة غريبة، وقبل أن تغور في الأعماق السحيقة تلتفت نحوي وتدعوني بابتسامتها الشيطانية، فأفقد إحساسي بالحياة.

(فان كوخ يقترب من «هو» لرؤيته)

هـو: (ضاحكاً) إذا كنت ترغب في رؤية وجهي، انظر في تلك المرآة. (صمت، كوخ ينظر في مرآة كبيرة وُضعت كجزء من الديكور) ماذا ترى؟

فان كـوخ: أرى وجهي يُخفي ملامح غريبة.

هـو: أنت ترى وجهي وليس وجهك.

فان كـوخ: حقاً أنت تشبهني.

هـو: وأنت أيضاً تشبهني.

فان كـوخ: نعم أنا أشبهك.

هـو: الوجوه متشابهة دائماً، لكنها تحمل ملامح موتها، ولأنك أكثر حساسية من الآخرين سيكون عذابك عظيماً.

فان كـوخ: إذاً كانت رحلتي عبثاً؟

هـو: كلا، الفنان كالقدّيس، منفيّ هو على الأرض إلا أنه يتحدّى. (يتمعّن فيه جيّداً) لكني أراك إنساناً مضرّجاً بالدم من رأسه إلى

قدمَيه. أنت متوحّش في عالم وحشيّ، وستكون روحك جمرة ملتهبة. (صمت) وبما أنك تشبهني، اسمك اسمي، وصفاتك صفاتي، وذاتك ذاتي، ونور وجهك من نور وجهي، خذ... خذ هذه الزهور لتساعدك (يناوله زهور عبّاد الشمس). وعندما تعود إلى المكان الذي أتيت، استيقظ مبكراً ليلة أفول القمر في البحر واستحمّ بأمواجه وادهن جسدك وعينَيك بهذه الزهور. حينذاك سترى الغابة البنفسجية المعلّقة بين السماء والأرض، تذكّر عند أفول القمر، عندما يتحوّل إلى ظلام... ظلام... ظلام.

(«هو» يلحّن بعض كلماته بالرغم من أنها تكون أقرب إلى التعويذة)

«وسط مئة مرآة
كاذب مع نفسك،
ووسط مئة ذكرى
تقف بعيداً عن اليقين،
مرهقاً، سئماً، عند كل جرح
تختنق بشِباكك.

لكنّ قدمَيك قد عبرتا
حتى هذه اللحظة،
الطرق القذرة الموحلة
نحو أرض لم تُعرف بعد».

لقد وجدتَ نفسك

ولن تستطيع الفرار.
ها أنت امتلكت السرّ
والقدرة على إخفائه حتّى عن قلبك.

(يبدأ تعويذته) داتا، دايا، داميا نا...
أيها الإنسان الحرّ
دائماً ستحبّ البحر
البحر مرآتك
فتأمّل روحك في حركة أمواجه اللامتناهية
داتا دايا داميا نا...
داتا دايا داميا نا...
(يبتعد صوته ويركع جانباً وسط الظلام)

المرأة الملاك: لقد حوَّلته إلى روح خاوية وعقل مشوّش، لقد خدعته.
(المرأة الملاك تخلع ملابس فان كوخ لتطهيره. تصبّ قطرات من الماء على رأسه وتمسح جبهته وعينَيه بزهور عبّاد الشمس، ويتقاطر الماء في الإناء حتّى نسمع سقوطه)

فان كوخ: (يدور تحت نور وهّاج وكأنه يتطهّر بشلال النور وهو نصف عارٍ)
كانت رحلتي عبثاً إذاً.

المرأة الملاك: كلا... ما زالت روحك غنيّة.

فان كوخ: اللعنة لقد ذُبحت. كان شبابي مظلماً حقاً وإني لنادم، لأن الحياة كانت قاسية علي. كأن هنالك شيطاناً يطاردني. حقاً لقد سرقوا زمني، ومارسوا كل وحشيتهم ضدّي، عذّبوني، نعم عذّبوني كثيراً. وكالغريب المنبوذ كنت أتهاوى بينهم، لكني كنت بعيداً

عن أفكارهم، فلم تؤثّر عليّ كلماتهم، وغير هؤلاء لم يفهمني أحد منهم. لكني عرفت كيف أحفظ سرّي. (صمت، إلى المرأة الملاك) ألا يمكن أن تكون حياتي كلّها خطأ؟

المرأة الملاك: ممكن...

فان كوخ: إذاً ماذا سأفعل؟ ما هو مصيري الآن؟ أي مكان ألوذ به؟ إلى أين أفرّ؟ آه لو يوجد مخبأ مظلم في مكان ما من هذا العالم، أو ليتني أصبح دخاناً أسودَ يتصاعد إلى السماء، أو ليتني أتحلّل إلى لا شيء وأحلّق في الفضاء، أتلاشى عن الأنظار كغبار غير منظور. (يمسك حزمة من التخطيطات والرسومات) ماذا أفعل بهذا كلّه، إنها انفعالات غير مُجدية ومُريبة. (يرميها في الفضاء بانفعالية وتوتر) إنها جحيم روحيّ ولن تتكرّر. إنها يأس. كانت كصراخ في وادٍ مظلم، كإيقاع طبول في ليل الغابات وليل الغرباء، كالكابوس، كوحشة الغربة، كفقدان دفء العائلة وحنان الحبيبة، كعذاب يحفر في روحي. إنها الآن لا تساوي شيئاً، فهي كومة أوساخ. كان المفروض أن أحرقها، أن أتخلّص منها منذ زمن بعيد.

المرأة الملاك: اهدأ، يجب أن تعاني دون أن تشتكي، هي الحكمة الوحيدة التي يتعلّمها الإنسان من هذه الرحلة. اهدأ، اهدأ. كن قدّيساً في هذا العالم الملوّث. كن هادئاً في عالمنا المملوء بالعنف. اهدأ. (صمت) والآن ليس لديك ما يكفي من الوقت، عليك أن تفكّر في كل شيء قبل أن تذهب. وقبل أن تفي بالميثاق الذي ألزمت نفسك به مع سيّدة الأسرار عليك أن تفكّر في الحياة، وتلك الأمسيات التي كنت تأنس فيها. هل نسيتها؟ هل فكّرت فيها؟ هل فكّرت في

الندى ساعة الفجر.

فان كوخ: نعم (ويستمرّ بالتمتمة أثناء حوارها وهو مستسلم تماماً)

المرأة الملاك: والقمر عندما يكتمل في ليالي الصيف،
والطفل الذي يُدفئ حضن والده الذي كان غائباً،
ورائحة جسد الحبيبة عندما تستيقظ بعد إغفاءة مليئة بالأحلام.
والصحارى التي لم تزرها...
هل فكّرت في هذا كلّه؟

فان كوخ: نعم.

المرأة الملاك: والمدن التي كانت تستقبلك وقت المساء،
والبحار الغاضبة الموحشة. هل فكّرت في هذا أيضاً؟

فان كوخ: نعم.

المرأة الملاك: والموانئ التي لم ترها بعدُ، هناك ما زالوا ينتظرونك فيها لترسم حياتهم من جديد. هل نسيتهم؟

فان كوخ: كلا.

المرأة الملاك: وهل نسيت العشب الذي يلامس قدمَيك في همس الليالي، وبحيرات المدن الهادئة وقت الغروب، هل فكّرت في هذا كلّه؟

فان كوخ: نعم.

المرأة الملاك: (ما زالت تطهّره بالماء) إذا كنت قد فكّرت في هذا كلّه، يمكنك الذهاب لوحدك.

فان كوخ: من يمنحني بهجة الحياة وقمر الليالي؟ من يمنحني النور؟ من يُريني الغابة البنفسجية المعلّقة بين السماء والأرض؟ (صمت)

المرأة الملاك: وحتّى لا يفوتك الوقت يمكنك الذهاب الآن، اذهب، اذهب لوحدك

نعم لوحدك، لوحدك، لوحدك.

فان كوخ: من أين الطريق؟

المرأة الملاك: طريق المرآة. (فترة) ادخل.

فان كوخ: أدخل؟

المرأة الملاك: ادخل ولا تتردّد.

(يدخل في المرآة، فنراه من خلال شفافيتها ونرى أيضاً خيالات أخرى وصوراً غريبة. يمكن عرض لوحات الفنان في الفضاء بشكل سريع، أو يمكن تحويل ما يُوصف من عالم غرائبي إلى صور يراها الجمهور. وللمخرج الحرّية في إيجاد الحلّ المناسب)

ادخل لترى نبوءتك الأخيرة. سيشتدّ النور وهجاً، ويتحوّل إلى شمس، ويأتيك القمر، لا تُصغِ إليه، حتّى يحترق ويصير فحماً، لكن الشمس ستعيد إليه نوره، عندها يمكنك أن تتطهّر في بحر المرآة. (وكأنها تراه) لا، لا تخلع مئزرك. إذ من دونه لا يمكنك الغوص. ماذا ترى؟

فان كوخ: (يأتي صوته وكأنه من أعماق بئر عميقة) ثلاث قباب من لازورد.

المرأة الملاك: ادخل القبّة الأولى، تنزّه فيها وخذ العبرة. (فترة انتظار، تشعّ بنور باهر وموسيقى صوفية كالهمس، تعرض لوحات فان كوخ بشكل سريع على خشبة المسرح وفي سقف القاعة) ماذا ترى بداخلها؟

فان كوخ: أرضاً بيضاء لامعة مثل الفضّة حجارتها من الياقوت والزمرد وترابها المسك، ونباتها من الزعفران، وأوراق أشجارها ورقة من فضّة وأخرى من ذهب، وثمارها مثل النجوم المضيئة، من

بينها ثمرة تتلألأ سيشتهيها أي إنسان إذا اقترب منها.

المرأة الملاك: احذر لا تقطفها، اخرج سريعاً، أخرج. (صمت) هل دخلت القبّة الثانية؟

فان كوخ: ها إني أسير في وادٍ لم أرَ مثله في حياتي، فيه قبّة عظيمة من الكريستال الأخضر.

المرأة الملاك: ماذا ترى فيها؟

فان كوخ: في وسطها خزائن مقفلة من الكريستال الشفّاف أيضاً، فمن السهولة أن أرى ما بداخلها من الدرر والزمرد وجواهر أخرى ليس لها مثيل، يهرول حول الخزائن خلق عظيم لا يرى بعضه البعض الآخر، فوق رأس كل منهم نسر أبيض، يخفق بجناحَيه. يدورون لاهثين طوال الوقت، فإذا توقّفوا، تنقرهم النسور بمناقير كالسكاكين. ما زالوا يهرولون، لا يستطيعون الدخول في الخزائن، بعضهم يتعلّق بالأبواب ويقرعها والكل يصرخ متضرّعاً ويستمرّ طرق الأبواب ويكثر الصراخ، حتى يصبح لا يطاق.

المرأة الملاك: وماذا ترى أيضاً؟

فان كوخ: أراهم يهدأون قليلاً، لأن كوّة انفتحت وخرج، خرج منها سراج منير كأنه كوكب درّي، والبشر يمسحون وجوههم وأجسادهم بنوره، فيرى بعضهم بعضاً، مستأنسين ومبتهجين. لكن لماذا أغلقت هذه الخزائن، أين مفاتيحها؟ كأن هاجساً أوحى لي أن أنظر فوق أبوابها (صمت).

المرأة الملاك: هه ماذا ترى؟

فان كوخ: لوحاً من نور كُتب عليه: لقد أُلقيت مفاتيح هذه الخزائن في البحر، فلو اطّلع البشر على ما بداخلها لأصابهم الجنون واقتتلوا

حتى آخر كائن منهم. (صمت)

المرأة الملاك: لماذا تصمت؟ ماذا ترى أيضاً؟ تكلّم. (صمت) ما الذي جرى لك؟ تكلّم، ماذا ترى؟

فان كوخ: أرى القبّة الثالثة، يا إلهي لؤلؤة بيضاء معلّقة بسلالم من نور. (نسمع الموسيقى الصوفية، إنارة المناسبة تساعد الجمهور على التخيّل)

المرأة الملاك: هل ترى ما بداخل اللؤلؤة؟

فان كوخ: لا يمكن الوصول إليها، إنها بعيدة جداً، فالسلالم تصعد إلى السماء ولا يمكن رؤية نهايتها.

المرأة الملاك: غامر، تسلّق السلالم. (فترة) هل بدأت الصعود؟

فان كوخ: (فرحاً) شيء غريب ومدهش، ما إن وضعت قدمي على سلالم النور حتى شعرت بأنني أحلق، ها إنني أحلّق حقاً، أحلّق كالنسر. (فترة، موسيقى، يصرخ) هه، هه إنني أطير...

فوق الأودية والجبال،

فوق الغابات والنجوم والبحار،

حلّقي يا روحي بعيداً

في حقول النور،

في حلمي الذي يتراءى كغابة بنفسجية.

بعيداً، بعيداً عن ذاك الجنون كلّه.

(صمت)

المرأة الملاك: استمرّ في الصعود حتّى تدخل اللؤلؤة. (فترة) تكلّم، لمَ تصمت؟

فان كوخ: (صمت)

المرأة الملاك: تكلّم.

فان كوخ: (مرتبكاً وخائفاً) لا أستطيع الوصول.

المرأة الملاك: جرِّب، استمرّ.

فان كوخ: لا أستطيع، لا أستطيع (صمت، يصرخ) هه.

المرأة الملاك: ماذا جرى؟

فان كوخ: قُذفت بعيداً عن سلالم النور، لا أرى أي شيء. فقط، غيم أسود وعاصفة ترابية. التراب يملأ عينيّ، أين أنا؟ اللعنة ماذا فعلتُ؟ لماذا تسلّقت السلالم؟ الآن أنا أهبط، بل أنا أسقط. (يصرخ طويلاً) أسقط، ماذا أفعل، ماذا أفعل الآن؟ لمَ لا تساعدينني؟ النجدة. النجدة. هه إنني أسقط على الأرض من جديد.

(صمت، يهدأ كلّ شيء، يتراءى كوخ من بعيد في الظلام)

المرأة الملاك: نور، أيها النور كن طريقنا، كن طريقنا، كن طريقنا، كن طريقنا.

(تغيب جانباً في الظلام).

فان كوخ: (أمام قرينه «هو») اللعنة كمن يستيقظ من حلمه.

(تدخل البدوية وتضرب جرساً صغيراً لتدعوه إلى مملكتها، يتبعها مسحوراً، لكن في اللحظة الأخيرة يتذكّر شبيهه وذاته الأخرى «هو». يتّجه نحوه ويمنحه زهور عبّاد الشمس ويحتضنه بهدوء. فتُصاب البدوية بالخيبة والهستيريا الصامتة، يجب أن يُعطى لهذه الخيبة الوقت الكافي ليُعبَّر عنها بالحركة الجسدية، وكذلك لسلام الفنان وهدوء ذاته. يبدأ كوخ بالصراخ الحاد الذي لم نسمعه منه من قبل ويستمرّ طويلاً حتّى النهاية)

(موسيقى صوفيّة تُفرحنا)

الختام

الطقس الثاني

النزهة

أو

النار المتوحّشة

الكتابة الأولية في بغداد، أكتوبر 1979

الكتابة النهائية في كوبنهاكن، أكتوبر 2003

الشخصيات

الرجل
الحارس
الأم
الابن

(نور أزرق يغمر أرضاً ناتئة وسط مياه يمكن أن تكون جزءاً من جزيرة صغيرة، يقف في وسطها رجل في السبعين من عمره، لكنه ما زال قوياً وحيوياً، توسّطت وجهه نظّارة طبّية بإطار أسود كبير، ما يستوجب دفعها بين الحين والآخر، مع ذلك فالرجل لا يرى جيّداً أحياناً. سترته القديمة مزيّنة بزهرة عبّاد الشمس، يبدو محترماً بملابسه هذه. ضعيف الذاكرة، ينسى أحياناً فتخرج كلماته متباعدة، أو أنه قد يفتعل هذا كلّه لأسباب لها علاقة بمهنته، قلقاً ينفجر بغضب غير متوقّع بين الحين والآخر. يُصاب بانهيار قد يكون نتيجة مرض الصرع المزمن. أحياناً لا يخضع الحدث على خشبة المسرح إلى منطق الواقع وانما إلى الزمن الفنّي الذي يتطلّبه الحدث. من الضروري الفصل بشكل واضح بين الحاضر والماضي أو بين الكابوس «الماضي» والواقع «الحاضر»، أي بين ما يتذكّره الرجل في الماضي وبين وجوده في الحاضر الآني على خشبة المسرح).

الرجل: (كمن يستيقظ من كابوسه) أين أنا؟
(ينظر في الأفق ويخطو في المكان باحثاً) لا أرى شيئاً سوى الماء يحيط بي من كل مكان وكأنني غريق (يدفع نظّارته، صمت) كيف وصلتُ إلى هنا؟

الحارس: (يتعامل دائماً بقسوة مع الرجل لكن بهدوء أعصاب وكأنه يقوم بالتحقيق معه أو كأنه يعرفه ويُخفي الأمر، وبالرغم من أنه يعطف عليه إلا أنه يتعامل معه بسخرية واضحة، وعادة يحمل أدوات غريبة مثل حبل وفأس (طبر). من الضروري أن يبدو كأنه هبط من مكان مجهول أو كأنه معلّق في الفضاء، فيظهر في كل مرّة من مكان لا يتوقّعه الرجل أو الجمهور، كل شيء كأنه وهم أو كابوس): ماذا تفعل هنا؟

الرجل: لماذا تسأل، من أنت؟

الحارس: أنا حارس هذا البستان.

الرجل: بستان! تقصد هذه الجزيرة.

الحارس: جزيرة، بستان ليس هنالك فرق كبير. (صمت) لماذا أنت هنا؟

الرجل: ماذا؟

الحارس: ماذا تفعل هنا؟

الرجل: أنتظر...

الحارس: ماذا تنتظر؟

الرجل: أنتظر... أ... أنتظر... (صمت) لا أتذكّر.

الحارس: (بمغزى وعدم رضا) كيف، لا تتذكّر؟

الرجل: (بغضب) قلت لك لا أتذكّر.

الحارس: سأساعدك على... أين كنت قبل هذه اللحظة؟

الرجل: (لا يجيب عن أسئلته مباشرة. صمت، يحاول التذكّر، كأنه يحدّث نفسه مأخوذاً) خرجت للنزهة على شاطئ النهر (يتذكّر) حقيبتي؟ (يبحث عن أشياءه المبعثرة) أين حقيبتي؟ إنها تحمل كل متاعي وذكرياتي، آه ها هي. (منذ الآن تبدأ الأشياء التي يحملها بالتساقط)

(يطمئن على أشيائه) الحمد لله كل شيء موجود فيها، (فرحاً) وهذه مظلّتي أيضاً.

الحارس: كيف جئتَ إلى هنا؟

الرجل: (يتذكّر) تنزّهت أولاً في المدينة.

الحارس: (مشغول بما في يده) أية مدينة؟

الرجل: المدينة... مد...

الحارس: (يقاطعه، يضحك وهو ما زال مشغولاً) عن أي مدينة تتحدّث؟ هل

ترى آثار مدينة هنا أو في الجانب الآخر من النهر مثلاً؟

الرجل: كلا. لكن ماذا تريد؟ لماذا تحدّثني بهذه اللهجة... ولماذا... لا...؟

الحارس: (مقاطعاً) اشش اهدأ... حتّى تتذكّر... لماذا أنت هنا.

الرجل: لماذا؟

الحارس: النسيان ممنوع. لماذا أنت هنا؟

الرجل: لماذا، لماذا؟ أ... آه تذكّرت... أنتظر من يساعدني على الخروج من هنا فأنا لا أعرف السباحة، وها أنا كالمتورّط (فترة) أتساعدني؟

الحارس: بشرط أن أعرف كل شيء عنك، فأنا لم ألتقِ بك من قبل.

الرجل: لماذا تريد أن تعرف؟

الحارس: حتّى أساعدك.

الرجل: أم هي عادتك أن تدسّ أنفك في كل شيء، أم...؟

الحارس: ولأني الحارس هنا.

الرجل: آه الحارس. ولماذا تحمل الحبل وهذه الفأس؟

الحارس: (ساخراً) أتلهّى بهما. والآن لنبدأ. كيف وصلت إلى هذا البست... أعني الجزيرة؟

الرجل: أغراني الفضول لرؤيتها، فهي المكان الوحيد الذي تُحيطه المياه من كل جانب، لقد سمعت الكثير عن غرابتها وهوائها المنعش، إضافة إلى الحفلات التي تقام فيها.

الحارس: من أخبرك بذلك؟

الرجل: زملائي الذين كانوا يمضون أياماً في الواجبات والمهمّات هنا.

الحارس: ما هي هذه المهمّات؟

الرجل: لا أعرف.

الحارس: ألم نتفق على أن تخبرني كل شيء؟

الرجل: حقاً لا أعرف، ثمة أقسام عديدة في الدائرة التي أخدم فيها وكل قسم لا يعرف أسرار القسّم الآخر. من الممكن أن تكون واجبات خاصة.

الحارس: (مشغولاً) أين تخدم؟

الرجل: في التحقيقات.

الحارس: التحقيقات؟

(صمت)

الرجل: لماذا تبتسم؟

الحارس: من أوصلك إلى هنا؟

الرجل: ركبت مع شباب كانوا يرقصون ويغنّون على ظهر المركب، يبدو أنهم يحتفلون، (يضحك) وشعرت بأنهم يحتفلون معي، ولا إرادياً صعدت معهم، أعني بحكم مهنتي. (ينظر في أرجاء المكان) أين ذهبوا؟

الحارس: لماذا ركبت معهم؟

الرجل: لأتنزّه أولاً، وأردت أن أعرف لماذا يحتفلون؟

الحارس: وهل عرفت؟

الرجل: مناسبة عيد ميلاد.

الحارس: وأنت لماذا خرجت للنزهة؟

الرجل: مناسبة؟... بمناسبة (صمت) لكن لماذا تسأل عن كل شيء؟

الحارس: ألم نتفق، أجب عن سؤالي. ما هي المناسبة؟

الرجل: (صمت، تسقط الحقيبة فيتذكّر، يضحك فرحاً) بمناسبة مرور 10 سنوات على تقاعدي (يضحك، متفاخراً) قبلها خدمت 30 سنة في قسم التحقيقات في الدائرة. كنت أفتخر بعملي.

الحارس: لماذا؟

الرجل: لأني أستطيع حماية الوطن من أصحاب الأفكار الخطرة (يضحك

فرحاً) عظيم بدأت أتذكّر الآن بوضوح، كدت أنسى كل شيء (يدفع نظارته، مؤنّباً نفسه) كيف أنسى وأنا أحتفل بمناسبة عزيزة عليّ؟ لأنني أعتبر هذا اليوم من الأيام السعيدة في حياتي بعدما أتممت واجبي، ومنذ ذلك اليوم وحتّى اللحظة ما زلت أحتفل به كل عام. في البداية شعرت بالفراغ والوحدة والقلق في البيت.

الحارس: ألأنهم أحالوك على التقاعد؟

الرجل: نعم، وخفتُ من أن يكون بسبب تقصيري بواجباتي في الدائرة.

الحارس: وهل كان هو السبب؟

الرجل: لا أعرف، بالرغم من أنني ذهبت إلى رئيس القسّم أسأله عن السبب، طمأنني وأخبرني بأنني كنت أكثر الموظفين إخلاصاً في العمل، فشكرته وسألته إن كانوا يحتاجونني في الخدمة من جديد.

الحارس: وماذا قال؟

الرجل: قال إنه سيستدعيني، وكجزء من المناسبة تعوّدت الذهاب إلى الدائرة في كل عام لتذكيرهم عسى أن يحتاجوني.

الحارس: وهل ما زلت تقلق كما في السابق.

الرجل: الآن أنا أكثر هدوءاً وأشعر بالسعادة لأنني أدّيت واجبي بكل إخلاص. كانت الدائرة تملكني وتأخذ كل وقتي. كنت مشغولاً بوظيفتي وكتابة التقارير والكتب وتنفيذ الأوامر والواجبات النهارية والليلية، كنت سعيداً بعملي، لكن مع الأسف لم يكن لدي وقت للتمتّع بالحياة ورؤية جمال الطبيعة والقمر عندما يتلاعب ضوؤه في ماء النهر الذي يقسم المدينة إلى جانبَين.

الحارس: أي مدينة؟

الرجل: مدينتي.

الحارس: (يضحك) مدينتك؟

الرجل: نعم مدينتي. (صمت) أنت لم تحدّثني شيئاً عن نفسك؟ ألم نلتقِ سابقاً؟

الحارس: لماذا تسأل؟

الرجل: لأني...

الحارس: (مقاطعاً) أنا الذي أسألك، ألم نتفق؟

الرجل: نعم.

الحارس: إذاً أجب عن أسئلتي. (صمت) لماذا تركتَ الشباب الذين كانوا معك على المركب يفلتون منك؟

الرجل: إنهم صبيان.

الحارس: ألم تفكّر في أنهم قد يكونون خطرين؟

الرجل: نعم وكان هذا أحد أسباب ركوبي معهم، رغم أني تعوّدت على الاحتفال في كل عام في مثل هذا اليوم وحدي.

الحارس: لماذا؟

الرجل: كي لا يشاركني أحد فرح الذكرى عندما كان رؤسائي يقدّمون لي تقارير الشكر لإخلاصي في عملي. كنت لا أضيّع يوماً، ولا ساعة، ولا دقيقة، ولا ثانية، ولا لحظة. أعمل في الدائرة والبيت، وما لم أستطع تكملته في النهار، أنشغل في إنجازه ليلاً، وحتى في إجازاتي كنت أذهب مساءً لمساعدة زملاء المهنة. لذلك شكرني رؤسائي بـ500 تقرير. إنها تقارير حياتي، وهأنذا أحملها معي أينما ذهبت. (صمت) أين حقيبتي؟ (فرحاً) آه، ها هي. الآن أتذكّر بوضوح. (يحمل الحقيبة، تسقط المظلّة، يحملها، يدفع نظّارته، تسقط أوراقه، يجمعها، يشمّها) إنها مكتوبة على ورق معطّر، وما زال عطرها يُدخل

الهدوء إلى نفسي، إنها كالدواء الشافي، أي والله كالدواء. (يتمعّن بها، يشكّ بأنها بيضاء، يتهرّب من الفكرة رغم أنه يبقى متشكّكاً) إن هذه التقارير هي ثمرة أيام طويلة من العمل.

الحارس: أكان شاقاً؟

الرجل: نعم في أيامي الأولى فقط لأنني لم أتدرّب جيّداً، إلا أنني تعوّدت عليه وأحببته حتّى أصبح جزءاً مني، من دونه حياتي لا تساوي شيئاً، كنت أجلس على الكرسي في الدائرة ولا أنهض إلا ظهراً، أذهب إلى البيت، آكل قليلاً لأن عملنا يتطلّب خفّة الحركة واللياقة، ثم أنام وأستحمّ وأتعطّر بانتظار المساء. أذهب إلى الدائرة من جديد لممارسة التحقيق أنا وزملائي من المتناوبين لساعات متأخّرة من الليل. حفلة الليل لها خصوصيتها ورومنسيتها (يضحك) لا تندهش، نحن نسمّي عملنا الليليّ بالحفلة، وعندما أتعب أنام هناك.

الحارس: لماذا تمارس التحقيق كلّ ليلة، بينما زملاؤك يتناوبون؟

الرجل: هكذا الأوامر معي. (صمت) من الممكن لأني أكثر زملائي دقّة وإبداعاً في العمل أو... لأن (لنفسه) لا أظنّ.

الحارس: مع من كنت تحقّق؟

الرجل: مع الخونة والمعارضين.

الحارس: خونة؟

الرجل: نعم، مع المخرّبين أعداء النظام والوطن، إنهم مجرمون يخونون وطنهم ثم ينكرون ويكذبون علينا.

الحارس: هل يعترفون عادة؟

الرجل: يتحدّونا بلا خوف في البداية. وبعد يوم أو يومين وووو ههه هه هه، يصيرون خرقة قذرة، لكن بعد أن يفعلوها في أنفسهم هكذا بوط،

بوط، بوط (يضحك ساخراً مشيراً إلى مؤخّرته) ثم نحوّل أجسادهم إلى جيفة، يحدث هذا بعد أن نعلفهم جيّداً.

الحارس: تعلفونهم.

الرجل: عندما نريد إذلالهم، أولاد القحبة يأتوننا متكبّرين.

الحارس: وماذا تفعل أنت بعد ذلك؟

الرجل: تصبح الرائحة لا تطاق فأغلق أنفي وأخرج، وتنتهي الحفلة، لتبدأ حفلتنا نحن.

الحارس: ماذا تعني؟

الرجل: (يؤشّر بيدَيه) حفلتنا مع السجينات.

الحارس: حتى وإن كنت أنت وزملاؤك متعبين.

الرجل: (يتحسّس ظهره) نعم، نجلس لاحتساء الخمر أولاً، ثم نجلبهن واحدة بعد الأخرى، نضاجعهنّ جميعاً، وهذا جزء من واجبنا. لكن بعد انتهاء كل حفلة يؤلمني ظهري. (صمت) كان الألم يزداد يوماً بعد يوم (يدفع نظّارته) في أحد الأيام (صمت) في أحد الأيام ذهبت إلى الطبيب وقلت له (يثبّت مظلّته في الأرض ويتحدّث بسرعة كبيرة، فلا نفهمه أحياناً): إنني كما تعلم أتعذّب ليس فقط من ظهري، بل من كل هذا الذي يحدث و... وغيره... وأخاف أن أموت أو أقتل...(مرتبكاً) إنني... إنني... (يقسم حواره بين الحارس والمظلّة) أنت لا تعلم... (يبدأ ارتباكه لأنه يرى ابنه في خلفية المسرح عارياً يتلوّى ببطء، هذه اللقطة تومض مرّات عدّة كحالة من حالات التذكّر، وأخيراً تبقى ساطعة بإنارة قوية) أنت لا تعلم ما جرى وما الذي فعلتُه. وهم مهما فعلوا بي، محقّون فهم حراس مخلّصون. (يتصاعد إيقاع حواره حتى يتحوّل إلى هستيريا وينهار) ماذا فعلتُ أنا، هل آسف

على شيء ما؟ لكنه... لكنه أجبرني على ذلك، وشجاعته أجبرتهم أيضاً، شجاعته أذلّتهم، مرّغتهم، إلا أنهم حرّاس للوطن. هو ابني... وقد كان شجاعاً، لم يكن خائفاً. نعم لم يكن خائفاً. عرفت كل شيء في وقت متأخّر. نعم إنه ابني، لكن واجبي... هل عرف هذا قبل أن يُقتَل؟ هه هل فهم؟ (إلى الحارس) إنه واجبي ألا تفهم، هل يمكن أن أخون واجبي؟ إنه قوي وصلب وشجاع لم تلد امرأة أخرى مثله. تحمَّل كل شيء ولم يخبرهم، أو يقل لهم ما يشاؤون. وعندما أخبروني بذلك خفت واضطربت، فهل أفرح لشجاعته أم أخاف لأنه عصى ولم يُطِع؟ هذه الأخطاء وغيرها، تُعتبر ذنوباً (يضحك) أوهووو، أوهوووو ثمة الكثير منها، نعم الكثير. وهو... هو، آه لو تعاون معهم، أقصد معنا، لاستطاع تخليص نفسه، لو وافقهم، لو قال: نعم، لو تاب وذهب إلى الجبهة لمحاربة العدو لو لو لو... لكان هو الآن مكرّماً معززاً كمواطن أو شهيد. لكنه صمت، أصبح أخرسَ كي يتحدّاهم، لم يخبرهم ولم يوافق. نعم أي والله لم يخبرهم فغرسوا خناجرهم في رقبته: خنجر، اثنان، ثلاثة، أربعة، عشرون خمسون مئة ألف مليون... في الرقبة، في الرقبة، في الرقبة (يرى الابن في الخلفية من جديد) وأيضاً في أماكن أخرى، هناك في موضع الموت. غير أنه، أنه، هو... هو... يتحمّل الـ... لكن أيضاً هم... هم... جميعهم، والذبح... الذبح... كل هذه الأخطاء وغيرها. هل تعلم بأنني كثيراً ما أودّ، أنه هو... هو... هو... انذبح... عرفت كل شيء عرفت، انذبح انذبح انذبح بح بح، و...، و... (يلهث، يفقد توازنه، يُخرج أصواتاً غير مفهومة ومن ثم يعوي كذئب مطارد وتائه) ووو... ووو... ووو... (يرى الابن) ووووووووووووووو (الأب ينهار أرضاً ويصاب بنوبة من الآلام تشبه الصرع، تستمرّ فترة

ليست بالقصيرة ثم يهدأ ببطء... الابن يختفي من المشهد) أين أنا؟ أين. آخ، إنها النوبة، هذا المرض يعذّبني كل يوم.. وما زال. أمر ربّنا (صمت).

الحارس: مزمن وسيُلازمك طوال حياتك.

الرجل: نعم وكأنه في قلبي وذاكرتي وروحي، سيقضي عليّ دون أن أشعر.

الحارس: وفي يوم ما ستجد كل شيء قد فات أوانه.

الرجل: نعم إنها اللعنة. لكن عصاي تساعدني (تسقط الحقيبة، يحملها) أين هي؟ أين هي؟ (يبحث) ها هي (باعتزاز) كل شيء فيها، تنقذني من عثرات الطريق.

الحارس: (ساخراً) وغدر الأصدقاء وقسوة الأشرار.

الرجل: كيف عرفت؟

الحارس: هذا ما كان يقوله أجدادنا.

الرجل: صدقوا (صمت طويل).

الحارس: لماذا تنظر إليّ هكذا؟

الرجل: أشك، هل رأيتك في مكان ما؟

الحارس: كفّ عن السؤال. (فترة) ألم تذهب إلى الطبيب بعد ذلك؟

الرجل: لا لم أذهب لأنه لم يعد ينفعني فلم أثق به. ولا أتذكّر هل كشفت لهذا الطبيب القوّاد أسراري، أم لا؟ على كل حال أخبرت رئيس دائرتي بآلامي جميعها فنصحني أن أذهب إلى طبيب الدائرة وكتب لي تقرير شكر جديد، ها هو، انظر. (الرجل ينظر إلى التقرير متشكّكاً، يلعقه، يشمّه بارتياح، يشك به، يخدع نفسه) هذه التقارير هي حياتي (خائفاً) إن الهواء يفسد تقاريري (يخفي الملفّ) يجب أن أحافظ على رائحتها، إنها للذكرى بسببها أشعر بأنني أدّيت واجبي

وأصبح لديّ الوقت للخروج أينما أشاء، للنزهة، للسفر... (تتساقط حاجياته)

الحارس: (يضحك) وماذا تسمّي هذه: نزهة أم ورطة؟

الرجل: طبعاً نزهة ممتعة، وكأني أقوم بها لأول مرّة في حياتي (صمت). الآن تذكّرت كيف جئت إلى هنا، حملت معي كل شيء، حقيبتي ومظلّتي وكل ما أملك واحتطت لكل شيء. فقد تعوّدت ألا أدخل إلى مكان جديد دون أن أكون مستعداً لمواجهة الظروف الطارئة كلّها (يدفع نظّارته) هأنذا أتذكّر بعمق. خرجت على عجل من البيت بعدما ارتديت هذه الملابس التي اشتريتها قبل عشر سنوات بمناسبة إحالتي على التقاعد، لكني لم ألبسها إلا مرّة واحدة في كل عام، هي تبدو شاحبة الآن.

الحارس: إنه الزمن يقسو على الإنسان وحاجياته.

الرجل: إنك على حق. عندما وصلت المركب شاهدتهم متجمّعين، كانوا لطيفين معي حتى أن أحدهم دفع أجرتي. وعندما وصلنا إلى هنا تعبت من ضجيجهم، فذهبت أتنزّه بعيداً عنهم، بعيداً بعيداً، بعيداً لأستطلع الجزيرة. شعرت بالتعب فاستلقيت على الرمل كان بارداً، خدّرني، واجهتني الشمس فلم أرَ شيئاً، لم أسمع شيئاً وأثقلت جفني، غفوت، ونمت نوماً عميقاً وفجأة شعرت بطيور البراري ترفّ بأجنحتها ورأيت قمراً أحمرَ كأنه وجه مُدمَّى.

الحارس: أنت تحلم، فحينما يكون الإنسان وحيداً تختلط في ذهنه الأشياء.

الرجل: ممكن.

الحارس: فيبدو كأنه معلّق بين السماء والأرض، هل تشعر بهذا؟

الرجل: إني على الأرض الآن، وأعيش في مدينة لم أتركها يوماً واحداً. إنها

مدينتي، نعم مدينتي بالرغم من إنني أشعر بالوحدة لأنهم يتحاشونني لا أعرف لماذا؟ أجلس في المقهى وحيداً، وأحياناً مع أحد زملاء المهنة، وعندما أطلب من أحدهم أن نلعب الشطرنج أو الدومينو يجاملني، لكنه سرعان ما يتوقّف ويتذرّع بشتّى الأعذار. فأغضب واشتمه لأنه من الملاعين أولاد الملاعين الذين يستحقّ كل واحد منهم أن يُجلد كلّ يوم مئة جلدة، يجب أن... أعوذ بالله... لكني كنت أكتفي بشتمهم، نعم، أشتمهم وأشتم أمّهاتهم ومدينتي أيضاً لأنها ملعونة مثلهم، ومع هذا اعتبرها مدينتي. ليس لديّ مكان آخر (صمت، لنفسه) هل هي حقاً مدينتي، هل هؤلاء هم أهلي؟ أيحترمونني؟ أين هم؟ لا أرى أحداً، أين ذهب ذلك كلّه، أين ذهب الجرف الآخر؟ لا أحد هناك، كيف يحدث هذا؟ لا أرى أحداً، لا أسمع صوتاً ولا ضجيجاً ولا همساً أو طيراً، أنا وحدي والنهر. (عليه أن يوهمنا بمحاصرة الماء له، قلقاً ينادي...) هه... هه، النجدة، أنتم في الجرف الآخر، هل تسمعونني، هه... النجدة أين أنتم، أين ذهبتم؟

(الرجل والحارس يدوران في المكان وهما يصرخان)

الحارس: (كالصدى) أين ذهبتم، أين ذهبتم، ذهب... تم تم... تم تم... تم تم... تم، تم م م م م م م

الرجل: (يصرخ) هه... هه أين ذهب ذلك كلّه؟

الحارس: (كالصدى) أين ذهب ذلك كلّه... كلّه... كلّه له له.

الرجل: هه، هل أحد هناك.

الحارس: (ساخراً) لا أحد... (صدى) هه هل أحد هناك، هناك ك... ك... ك... ك...

الرجل: (يحاول سماع الصدى) ليس هنا سوى الصدى.

الحارس: نعم ليس سوى الصدى، ألم أخبرك.

الرجل: هل ستساعدني في الخروج من هنا.

الحارس: لا أستطيع الآن.

الرجل: لماذا؟

الحارس: تقتضي الأوامر ألا أخبرك.

الرجل: أية أوامر؟

الحارس: أنت لحوح تسأل كثيراً.

الرجل: ساعدني بالخروج من هذه الورطة أرجوك.

الحارس: لماذا أنت ملحاح هكذا.

الرجل: إنني خائف.

الحارس: لا تقلق.

الرجل: أنا وحيد.

الحارس: لا تحزن (يهمّ بالذهاب).

الرجل: قف، إلى أين ذاهب؟

الحارس: لا تخف.

الرجل: متى ستعود؟

الحارس: سأعود.

الرجل: هل ستساعدني.

الحارس: سأعود.

الرجل: أحقاً؟

الحارس: سأعود (يختفي فجأة كما ظهر)

الرجل: في أي وقت؟

الحارس: سأعود.

الرجل: متى؟

الحارس: غداً أو بعد غد... سأعود؟

الرجل: نهاراً أم ليلاً؟

الحارس: لا أعرف.

الرجل: وأنا ماذا سأفعل؟

الحارس: انتظر.

الرجل: أنتظر؟

الحارس: انتظر. سأعود، سأعود، سأعود.

(صمت طويل، تسقط أشياء الرجل ينشغل بها قلقاً. نسمع الأم تتمتم في الظلام. هذا المشهد يشعّ في ذاكرة الرجل كذكرى يحاول الهرب منها. في الضوء الساطع تتراءى الأم وهي تحتضن ابنها، كأنهما أيقونة)

الأم: اللهم إني أعوذ بك من شرّ كل سلطان عنيد، ومن شرّ كل ضعيف وشديد ومن شرّ كل وضيع وضنين، وحسود وحقود. إني أعوذ بك من شرّهم (بحقد) آخ هم، هم سبب بكائي ونحيبي. قتلوني عندما قتلوا وحيدي، ويقتلونني في كل دقيقة الآن. ليس لي أحد سواك فأنت شفيعي ومن يأخذ بثأري منهم.

الرجل: (يقفز يجوس المكان ليتأكّد من هذا الذي يسمعه) لمن هذا الصوت (فترة) لا أحد، يبدو أنه صوت الريح.

الأم: إنه صوتي.

الرجل: (فزعاً) من أنتِ؟(فترة) آه... أهذه أنتِ؟ (يتمعن جيّداً يبدأ المشهد في الماضي) ماذا تفعلين في الظلام؟

الأم: أرشّ جروح ابني بالمسك.

الرجل: اشش اخفضي صوتك (صمت) متى جاؤوا بجثّته؟

الأم: هذا المساء بعدما رفضتَ استلامها.

الرجل: من أخبركِ؟!

الأم: هم أخبروني ساخرين منه ومنّا.

الرجل: اصمتي.

الأم: وطلبوا منّي ثمن تعبهم في تعذيبه وثمن رصاص قتله.

الرجل: اصمتي.

الأم: ومنعونا من القيام بواجب الموتى.

الرجل: اصمتي.

الأم: لن أصمت.

(أثناء الحوار الآتي الأم تشعل البخور وتنثر الآس وتهيّئ المكان وتطهّره وترشّ جثّة الابن أيضاً بماء الورد لقيامته من جديد)

الرجل: يجب أن ندفنه بلا ضجيج.

الأم: ودمه.

الرجل: مهدور لأنه رفض محاربة العدو، هرب ولم يذهب إلى الجبهة، وانزوى بعيداً ليحارب ضدّ وطنه، وعندما دعوهم للتوبة لم يتب ولم يأتِ لأنه حمار ورأسه كالحجر.

الأم: نعم، إنه ابني، ابن بطني، لا يخاف ومثل السيف ضدّ الباطل.

الرجل: أنتِ السبب لأنك هكذا ربّيته، والنتيجة لم يصغِ حتى لي.

الأم: هل تسمع يا بني،أنا السبب (إلى الأب) وماذا عنك أنت،أنت الذي لم تصغِ في حياتك لحظة واحدة إلينا. تطلب منا أن ننفذ أوامرك كالخدم. تأتي الفجر وعليّ أن أستيقظ وأنزع لك حذائك وأغسل قدمَيك، وأختنق برائحة العرق الممزوج بالدم الذي أشمّه في جسدك

وملابسك. دم متجمّد كل صابون الدنيا لا يزيل رائحته، عندما تريدني أو تغتصبني كل ليلة كنت أتقيأ. أما هو فأنت لم تكن تراه سوى مرّة أو مرّتين في الأسبوع. مشغول ولم تكن تهتم إلا بعملك.

الرجل: إنه واجبي، به أحافظ عليك وعليه، وأنا أعرف كيف أسيّر أمور الحياة.

الأم: ولهذا سلّمته لهم، انظر بأي حال رموه أمام البيت.

الرجل: اصمتي سأهيّئ السيّارة لدفنه ولا أريد صراخاً ولا لطماً.

الأم: لن يكون هذا أبداً.

الرجل: ماذا تريدين؟ هل تريدين أن يهدموا البيت على رأسي.

الأم: ليس لديّ غيره.

الرجل: أتريدين أن يقتلوني أو يطردوني من وظيفتي.

الأم: أتريد أن تتخلّص منه؟

الرجل: أتخلّص من ابني؟

الأم: ابنك!! دمه في رقبتك.

الرجل: اصمتي هو المذنب، نعم هو، لماذا لا يسمع كلامي، لماذا لم يسلّم نفسه، لماذا لم يذهب إلى الجبهة؟ لماذا عاد متسللاً؟ لماذا؟ لماذا...

الأم: أنسيت لماذا؟ اسأله.

الرجل: ماذا؟ والله العظيم أنت مجنونة، أأسأل ميتاً؟

الأم: ميت؟ إنه مقتول، نعم مقتول، الشهداء لا يهدؤون في قبورهم، تظلّ أرواحهم هائمة ينتظرون من يصغي إلى عذابهم.

الرجل: اصمتي.

الأم: اسمعه الآن، أنت تعرف أنه رضع حليبي، من هذا الصدر؛ صدر الأم المنكوبة. ابني وأعرفه، مخلص لحليب أمّه وعندما أتحدّث معه

سيسمعني. اسمع، لماذا عدت يا بنيّ؟

الرجل: اصمتي كي لا يسمعك الجيران.

الأم: هل نسيت ماذا فعلت به؟ اسأله.

الرجل: كفى جنونً.

الأم: سأنثر الآس على عينَيه ليُزيل عنهما النعاس الثقيل. وأُرضعه من صدري مثل ما كان في مهده، وبدل الحليب، يرضع دمي الذي سيجعله يتحدّث حتى يُشفيني من عذابي.

الرجل: (ساخراً) تفاهات، أنت خرفتِ.

الأم: سيقوم ليكشف العذاب الذي تحمّله. تكلّم بني، ماذا فعلوا بك؟

الرجل: اصمتي.

الأم: سيقوم وسيذكّرك، تكلّم من سلمك لهم ومن قتلك؟ من؟

الرجل: اصمتي.

الأم: لا بدّ من أن يقوم.

الرجل: اصمتي، كان مجنوناً مثلك عندما لم يسمع كلامي.

الأم: لأنه طاهر ويريد أن يظلّ كذلك.

الرجل: إذا كان هكذا لماذا عاد كاللص؟

الأم: اسأله. لماذا عدت إلى هنا؟ لماذا عدت إلى نار جهنم يا بني؟

الرجل: اصمتي وإلا سأكسر رأسك.

الأم: كيف أصمت؟! سأصرخ في كل مكان ليعرف الناس ما الذي فعلته بابنك.

الرجل: لن يسمعوك لأنك جننت.

الأم: إنك تخاف أن تسأله. اسأله. من سلّمك لهم يا بني؟

الرجل: مجنونة.

الأم: تكلّم بني كيف عذّبوك وقتلوك؟

الرجل: اصمتي.

الأم: لن أصمت.

الرجل: اصمتي يجب أن ندفنه سريعاً، سيأتي من يتأكّد من ذلك.

الأم: ندفنه، هل يُدفن الأحياء. سيقوم الآن. إنك تخاف منه، لأنه حيّ.

الرجل: ما زلت تهذين. الجو حارّ وإذا لم ندفنه ستكون هنالك مصيبة لن تنتهي بسلام.

الأم: لن تكون أكبر من هذه المصيبة. لماذا سلّمته؟ تكلّم.

الرجل: أنت لن تفهمي الواجب الذي في رقبتي.

الأم: إذا لم تُنفّذ تُقتَل.

الرجل: إذاً ليس هنالك حلّ آخر.

الأم: أنت الذي وضعت نفسك في مصيدتهم كالجرذ، كان يمكن أن تعمل في وظيفة أخرى.

الرجل: والله العظيم أنت جاهلة، لا تفهمين أننا نحمي وطننا. هيا أحضري جثته سأجلب السيّارة.

الأم: لن يحدث هذا إلا بعد أن يخبرني هو بكل شيء.

الرجل: (يصرخ) كفى جنونّ. كوني عاقلة وأصغي إلى ما أقول.

الأم: تكلّم لماذا عدت؟ لماذا بني؟ ما الذي حدث؟ تكلّم يا شهيدي (صمت، ترش ماء الورد وتنثر الآس، وبصوت حزين كالأنين) تكلّم بني، كيف عذّبوك (تتمتم) اللهم أنا عبدك المسكين، الضعيف، الفقير، المستكين.

الرجل: اصمتي. تهذين كالمجنونة. اصمتي وإلا طلّقتك ورميتك إلى الكلاب.

الأم: أنت لم تطلّقني، أنت تقتلني في كل دقيقة، تكلّم بني ماذا فعلوا بك؟

الرجل: اتركي جثته بسلام.

الأم: ولماذا لم يتركوه هم بسلام؟ لماذا؟

الرجل: لأنه لم يكتفِ بالخيانة، بل عاد ليتحدّى ويخرّب، فاصمتي كي لا يسمعوننا.

الأم: تكلّم لماذا عدت؟ تكلّم يا بني.

الرجل: أنت مجنونة حقاً.

الأم: اللهم إنك الأول قبل الأحياء والآخر بعد فناء الأشياء. أنت العليم الذي لا يخيب من دعاه ولا يقطع رجاء من رجاه، اللهم إني أشهدك وكفى بك شهيداً. بنيَّ أخبرني بعذابك.

الرجل: اتركيه بسلام.

الأم: (إلى الابن) لماذا عدت يا بني؟

الرجل: اسمعي إن هذا جنون. إذا لم تصمتي سأقتلك.

الأم: هذا واجبك ووظيفتك (صمت، تشهق لتستنهضه) بنيّ!!

(يقوم الابن بهدوء. يذهب إلى الرجل وهو في عزلته، أي في الحاضر، يدور حوله ثم يعود إلى الأم في الماضي يتجه نحوها، يهمس حواره حذراً من أن يسمعه أحد ما. الرجل يبقى يراقب طوال المشهد لأن الماضي يلحّ على ذاكرته)

الابن: أمّي.

الأم: بنيّ (تحتضنه) هل عدت؟

الابن: هل ستغفرين لي.

الأم: اششش تعال، تعال أيها العريس المحروم من عرسه. يا حلمي البعيد (تشمّه) كيف وصلت إلى البيت، إنهم مثل الدود في كل مكان. يبحثون عنك ولم يهدؤوا إلا بعد قتلك أنت وأصدقاءَك. ألم يرك رجالهم؟

لماذا عدت يا بني؟

الابن: يا أمّي، عدت كئيباً أطلب غفرانك.

(الحوار الآتي بين الابن والأم يكون حواراً مخنوقاً هامساً، لكن يجب الحفاظ على توتّره وإيقاعه الذي يتسارع تدريجاً. الأم تحاول في البداية الهرب من الإجابة الصريحة عن أسئلة ابنها، الرجل ما زال يراقب المشهد وهو في عزلته في الحاضر)

الأم: أشمّ في جسدك رائحة غريبة.

الابن: رائحة الغربة،كم تمنّيت الرقاد في حضنك، حضن الغزلان البهيجة. (يقبّل قدمَيها بقدسية)

الأم: اهدأ، اهدأ، عدت إلي حياً من جديد. أحلمٌ هذا؟ لا أصدّق، تعال، تعال. ماذا فعلت هناك؟

الابن: هناك توسّدت الشوارع وأكلت العشب والصخور، والتحفت السماء الغريبة حالماً بالنجوم والقمر.

الأم: (تشمّه) يا فرحي، لماذا عدت؟

الابن: شمّيني يا أمّي.

الأم: لماذا عدت؟

الابن: ضاقت بي الدنيا.

الأم: أجائع أنت؟

الابن: ماتت طيور الوادي جميعها.

الأم: لماذا عدت؟

الابن: وطيور السنونو هجرت أعشاشها إلى أرض غريبة.

الأم: أعطِشٌ أنت؟

الابن: أما نحن يا ملاكي فقد تمزّقنا في الغربة حتى تخثّرنا.

الأم: أتعِبٌ أنت؟

الابن: وما زلنا نمتصّ دماء بعضنا، وفي النهاية وجدنا أنفسنا منهكين.

الأم: لمَ عيناك حزينتان؟

الابن: جئتك مستوحشاً، مطارداً بعدما ضاقت بي السبل.

الأم: (تريد تغيير الموضوع) هل تريد أن تنام؟ تعال، تعال.

الابن: كلا. أمّي ماذا جرى في غيابي؟

الأم: (تتهرّب) لمَ أنت حزين؟

الابن: حدّثيني

الأم: هزلتَ كثيراً.

الابن: حدّثيني.

الأم: تغرّبتَ طويلاً.

الابن: حدّثيني.

الأم: تعال.

الابن: ماذا جرى؟

الأم: (مندهشة) ماذا جرى؟! جرى الكثير، والآن اهدأ واسترح.

الابن: كلا، حدّثيني، ماذا جرى يا أمّي؟ لا أسمع همساً ولا صوتاً، لا ضوءاً أو دفئاً، لماذا؟

الأم: رحلوا.

الابن: إلى أين؟

الأم: إلى ديار أخرى لا يعلم مكانها إلا الله.

الابن: حدّثيني يا أمّي.

الأم: تقاطر علينا الأغراب.

الابن: حدّثيني.

الأم: جاؤوا بعاهاتهم.

الابن: حدّثيني.

الأم: مرضى.

الابن: حدّثيني.

الأم: مجانين.

الابن: حدّثيني.

الأم: جاؤوا قواويد وأنذالٌ.

الابن: حدّثيني.

الأم: كلاب ووحوش ليس في قلوبهم رحمة.

الابن: حدّثيني.

الأم: يسمّموننا كل يوم.

الابن: حدّثيني.

الأم: ينهبوننا كل يوم.

الابن: حدّثيني.

الأم: يعتدون على شرفنا كل يوم.

الابن: حدّثيني.

الأم: في الفجر نعثر على مئات الرضَّع في المزابل.

الابن: حدّثيني.

الأم: وأطفال يتامى يأكلون بُرازهم من الجوع.

الابن: حدّثيني.

الأم: فتيات صغيرات تحوّلن عاهرات. ملائكة تستغيث.

الابن: حدّثيني.

الأم: زوجات طُلّقن بالقوّة من أزواجهن الهاربين.

الابن: حدّثيني.

الأم: أرامل تحوّلن قوّادات من أجل لقمة العيش لأطفالهن.

الابن: حدّثيني.

الأم: كان الليل وحشةً وظلاماً يا بني.

الابن: حدّثيني.

الأم: وما زال موحشاً.

الابن: حدّثيني.

الأم: حتّى الطيور كانت تنتحب عندما تغيب الشمس.

الابن: حدّثيني.

الأم: باع الناس كل شيء حتّى أجسادهم.

الابن: حدّثيني.

الأم: والرافضون للحرب لا يجدون مكاناً ورغيف خبز (فجأة) لماذا عدتَ؟

الابن: اشتقتُ أن أقبّل تراب قدمَيكِ.

الأم: يئستَ؟

الابن: حتّى أموت هنا بين يدَيكِ.

الأم: لماذا أتيت؟

الابن: يا مباركتي عبرت البراري وصعدت الجبال وهمت في المدن الغريبة، لكنني اشتقت إلى حليب طفولتي، حدّثيني يا أمّي.

الأم: لماذا عدت؟

الابن: حدّثيني بما في قلبك.

الأم: تأخّرت.

الابن: اغضبي إن شئت لكن اتركيني أتوسّد تراب قدمَيك.

الأم: ما الذي أتى بك؟

١

الابن: ضاقت بي السبل يا أمّي.

الأم: تأخّرت كثيراً.

الابن: بقيت وحيداً مكتظاً بجروحي بعدما مزّقتنا الغربة.

الأم: تطلّع في وجهي، لماذا أتيت، قل بصراحة؟

الابن: ضاقت بي السبل يا أمّي.

الأم: (غاضبة) اش، اش، كُفَّ، كُفَّ اخزن أحزانك، بعد كل هذا الذي حدث تقول ضاقت بي السبل! (تمسك به) لمَ تقلّصتم، ما الذي أخّركم كل هذا الوقت، تاركين كل شيء يحترق في انتظاركم، الجذور والمدن والأبواب والمحطات والبشر والأرامل واليتامى، أعوذ بالله أعوذ بالله لمَ تأخرتم لمَ؟

الابن: ضاقت بي السبل يا أمّي.

الأم: آآنستم الغربة؟

الابن: ضاقت بي السبل يا أمّي.

الأم: أبعدَ انتظار الثكالى لفَرَج لم يأتِ، بعدما قتل الأب ابنه، بعدما قطّعوا المئات من الشباب بمكائن الثرم، بعدما أجبروا الزوجة على التبرّؤ من زوجها، بعد هذا كلّه تعود لتقول: ضاقت بي السبل؟!

الابن: وأمل؟

الأم: اشش اصمت.

الابن: أمل يا أمّي، أمل زوجتي.

الأم: أمل... الآن تذكّرت أمل؟

الابن: أين أمل يا أمّي؟

الأم: أمل (صمت طويل) عاشت سنوات تنتظرك وفيّة لعودتك بالرغم من أنك لم تعش معها سوى أسبوع واحد. أمل، أجبروها على الطلاق

والتبرّؤ منك، وسجنوها أشهراً. بعد هذا كلّه تأتي لتقول ضاقت بي السبل يا أمّي. اصمت، اصمت، اصمت. (صمت)

الابن: والآن أين هي؟

الأم: (تتمتم من دون أن نفهم منها شيئاً. ينظر واحدهما في عينَي الآخر): أين يمكن أن تكون برأيك؟ تبحث عن رزقها في مكان ما. تبيع...

الابن: جسدها؟

الأم: (صمت تحاول عدم مواجهته)

الابن: (يتلوّى كأنه على جمر. يجب إعطاء الوقت الكافي للتعبير وفهم المعنى) إنه كابوسي. زوجتي، يا إلهي لماذا حدث هذا كلّه؟ لماذا تسمح بكل هذا العذاب يا رب؟ لماذا؟ أين غضبك؟ وأنا؟ من أنا؟ أنا نذل جبان وخنزير مصاب بالطاعون لأنني عدت هكذا. إنهم وحوش أغلقوا سبل الحياة كلّها.

الأم: خذلتني يا بني، انتظرتك طويلاً، ها هو شعري الأبيض يشهد على ذلك، وتعود لتقول ضاقت بي السبل، انظر في عيني، يا لعذاب عينَيك. (تنثر فوق رأسه تراباً وبعض الآس) اخزن أحزانك وكُلْ من تراب الأرض واشرب ماء الرماد حتّى لا تنسى، حتّى لا تنسى.

الابن: لن أنسى.

الأم: حتّى لا تنسى.

الابن: لن أنسى.

الأم: لا تنسَ.

الابن: لن أنسى يا أمّي.

الأم: تعال أُباركك لأني خائفة فقلبي يحدّثني. خبّرني ماذا ستفعل؟

الابن: سأعود من حيث أتيت.

الأم: لا تستطيع الآن، إنهم في كل مكان، لقد جئتني ولن أعطيك لهم ليقتلوك، سأحفر لك تحت البيت، تعيش هناك حتّى يفرجها الله.

الابن: وأبي؟

الأم: أبوك؟! سأقاتل من أجلك يا بني حتى لا يخبرهم، لا تخف.

الابن: لن يغفروا له إذا علموا، سيقتلونه.

الأم: لكنه أبوك، عليه واجب الأبوّة، حتى الحيوانات تخاف على ذرّيتها.

الابن: إنك تعرفينه جيّداً؟!

الأم: (تحتضنه وتهدهده) اهدأ اهدأ، الله معنا، لقد طلع الفجر، غداً سيكون كل شيء كما نريد، حلماً كان أو حقيقة.

الأم: (إلى الرجل وهو في الحاضر) وعندما عدتَ فجراً غضبتَ وهجمتَ عليّ كالوحش وضربتَ رأسي بالحائط ورفضتَ أن تحميه. لم تمهله يوماً واحداً ليستريح فأخبرتهم، وكأنك تُخبر عن غريب.

الرجل: نصحته كثيراً أن يسلّم نفسه، لم يسمعني.

الأم: وسمحت لنفسك أن تخونه ليقتلوه.

الرجل: هل يمكن لأب أن يخون ابنه؟

(الأب لا يُبدي أي مشاعر تجاه ابنه، بل هو فَرِحٌ يتشفّى به عندما يسلّمه إلى المقتلة، فهو يقدّس التزاماته وواجباته الوظيفية)

الابن: نعم يا أبي في ذلك الوقت وضعتني أمام خيارهم،أن أسلّم نفسي.

الأب: حتّى أنقذك.

الابن: حتّى تنقذ رقبتك أنت، وكما ترى قتلوني مثلما قلت لك، وهأنذا بين الحياة والموت. لمَ لم تساعدني يا أبي؟

الأب: إذا أخفيتك في البيت لا بدّ لهم من أن يعرفوا و ستحل الكارثة عليّ.

(منذ الآن يتمّ نوع من تناوب الحدث بين الماضي والحاضر)

الابن: لماذا ترفض يا أبي؟

الأب: لا يمكن أن تختبئ هنا يا بني.

الأم: لا أحد يعلم، أنا وأنت فقط. سنحفر له حفرة تحت الأرض يعيش فيها. من سيخبرهم بذلك؟

الأب: من سيخبرهم!؟ (يضحك بصوت عالٍ وهستيري) يخبرهم الهواء، الماء، الشجر، الجيران، الكلاب السائبة. كل هذا سيكتب لهم تقارير مدفوعة الثمن والخوف. أنت مجنونة تطلبين منّي المستحيل. يجب أن يسلّم نفسه الآن وسيغفرون له، فهنالك عفو دائم للتائبين.

الابن: لماذا تصرّ على تسليمي؟

الأب: حتّى لا تقتل.

الأم: وإن قتلوه؟

الابن: مثلما قتلوا الآلاف.

الأب: سأبذل جهدي كي يغفروا لك، سأعطيهم كل ما أملك.

الابن: يأخذون مالك ويطلبون منك أنت بالذات أن تحقّق معي، تعذّبني وتقتلني بيدَيك انتقاماً منّي ومنك.

الرجل: اصمت، الحيطان لها آذان، إذا لم تسلّم نفسك فأنت مجنون.

الابن: ما تطلبه منّي هو الجنون.

الرجل: بعد غياب عشر سنوات متشرّداً في الغربة ومعارضاً ضدّ وطنك. عشر سنوات وأنا أتحمّل هذا العار، لأن ابني يرفض الجبهة ويهرب، وشباب مثل الزهور وأصغر منه يحاربون العدو وكأنهم في نزهة، وإن مات أحدهم يُلفّ بالعلم وأمّه تزغرد أياماً. ابني أنا يحارب الوطن الذي عاش من خيراته. ابني هارب من حرب الوطن ويحارب ضده في بلاد الأجانب؛ أعدائنا. ابني، يحارب أمّه وأباه وأهله. (لا يصغي)

عشتُ قلقاً وخائفاً ومحتقراً من رؤسائي وزملائي هذه السنوات كلّها، وأنا أعلم بأن جميع خدماتي لا تُزيل هذه البقعة السوداء في جبيني بالرغم من أنهم يعرفون إخلاصي. والآن يا بني أحمد الله الذي هداك، سأخبرهم بأنك عدت تائباً، سيغفرون لك ولي كل شيء وسأعود مرفوع الرأس من جديد. إذاً إعقَل وسلّم نفسك.

الابن: كثور يسلّم رقبته للذبح.

الرجل: يسامحونك، وهذا هو الحلّ لي ولك.

الابن: لا أستطيع.

الرجل: وحتّى لا أخون واجبي، لا تطلب مني أن أساعدك بعد الآن. اخرج ولا تريني وجهك أبداً.

الابن: سأخرج، فقط أمهلني أياماً هنا، ولن تراني أبداً.

الرجل: (قلقاً يتمتم) ولا دقيقة واحدة لن أغفر لنفسي إذا خبّأتك، إنه جنون، لا بدّ من أن يجدوك هنا. سلّم نفسك وسيغفرون لك خيانتك.

الابن: هنا لا أحد يشكّ في وجودي.

الرجل: لا أستطيع، فقط عندما تسلّم نفسك.

الابن: لا يمكنني هذا أبداً؟

الرجل: نعم يمكنك، ستنقذ حياتك، وتعيد إليّ شرف الواجب.

الابن: عن أي واجب تتحدّث! ألا ترى الجريمة في كل مكان؟!

الرجل: أية جريمة؟! الجريمة هي أن أخبئك.

الأم: (تتمتم تعاويذها) اللهم أنا عبدك المسكين الضعيف.

الرجل: سلّم نفسك.

الأم: دائماً قاسي القلب، إنه ابنك، وحيدك.

الابن: أنا ابنك يا أبي.

الرجل: القانون هو القانون.

الابن: هم يكيّفونه كما يريدون. لا يمكنك أن تسلّمني.

الأب: (متردّداً) إذاً اترك البيت الآن، الآن.

الابن: ليس الآن، إنهم في كل مكان.

الرجل: وإذا سألوني عنك مرّة أخرى ماذا سأقول؟

الابن: لا شيء، تصمت.

الرجل: واجبي يستدعي أن أخبرهم بكل شيء، إنه الوطن.

الابن: هو وطني أيضاً.

الرجل: أنسيت أنك خذلته وهربت من الدفاع عنه، وعشت عشر سنوات في أحضان الأجنبي تحارب ضدّه؟

الابن: حاربت من أجله أيضاً، فأنا لست عدواً لوطني، أنا دافعت عنه ضدّ هذه الحرب المجنونة.

الرجل: تصبح عدواً عندما ترفض تأدية واجبك، سلّم نفسك.

الابن: إنه جنون، أرفض حتّى لا أموت بلا هدف و بلا معنى...

الرجل: إذا لم تسلّم نفسك فأنا لست مسؤولاً عمّا سيحدث لك.

الابن: لكنك أبي.

الرجل: ليس ثمة مكان للمشاعر، يجب أن نستغلّ الوقت. سلّم نفسك.

الابن: لا أريد أن أكون جثّة.

الأب: لن يحدث هذا إذ تبتَ، أنا متأكّد من أنهم سيغفرون لك، فرئيسي أخبرني بذلك منذ وقت طويل.

الابن: لن يحترموا عهودهم.

الأم: (إلى الأب) لماذا تريد تسليم الأمل الذي كنت أنتظره إلى وحوش مثلهم؟ عشتُ عشر سنوات عند كل غروب شمس أنتظره أن يأتي

ليقول: باسم الله، ويدخل البيت ليقبّل رأسي.

الرجل: لن يدخل البيت مرّة أخرى إذا تحجّر هكذا (إلى الابن) سأتبرّأ منك.

الابن: أنت قاسٍ يا أبي.

الرجل: إنها فرصة لك ولي، سلّم نفسك وإلا ستهدم كل ما بنيته.

الابن: وترضى أن يسلموني جثّة لك.

الرجل: لن يحدث هذا إذا وافقت وسلّمت نفسك.

الابن: أنت تؤمن بالوهم.

الرجل: سلّم نفسك يا بني حتى ينتهي قلقي وخوفي.

الأم: اللهم أنا عبدك الفقير المستكين.

الابن: سيقتلونني.

الرجل: سيغفرون لك من أجلي.

الابن: يذبحونني أو يصنعوا منّي مُخبراً.

الرجل: إذا لم تسلّم نفسك لن يغفروا لك أبداً.

الابن: لن أفعل.

الرجل: إذاً لا أستطيع حمايتك.

الابن: أنت تقتلني يا أبي.

الرجل: (صمت، يفكّر قليلاً، يتمتم) ابقَ إذا شئت وتحمّل تبعات بقائك. اللهم اغفر شرور بني آدم. (تمتمة تختلط مع حوار الابن)

الابن: سيذبحونني، يذبحونني، يذبحونني...

(الأم والابن يختفيان فجأة)

الرجل: (في الحاضر) أين أنتِ، أين ذهبتِ به؟ أين ذهبتما؟

(صمت طويل نسمع الريح تتحوّل تدريجاً إلى عاصفة)

الرجل: ماذا، هل وصل الماء إلى هنا أيضاً؟ لقد بدأ يحاصرني. كيف لم ألحظ هذا من قبل؟ (صوت الريح الذي يشتدّ) حتماً إنها عاصفة ترابية، لا أستطيع أن أرى شيئاً (أثناء العاصفة يتحرّك بصعوبة، يحاول أن يثبّت قدمَيه) لا بدّ من أن أثبّت قدمَي وألا أتحرّك، (يستنجد) هه... هل أحد هناك؟ هه هل تسمعونني، أين أنتم؟ أين ذهب الجميع؟ هه، أيها الحارس أين أنت، لا أرى شيئاً، العاصفة سترميني، سأغرق، هه أيها الحارس أين أنت؟

صوت الحارس: لا تقلق.

الرجل: أين أنت؟ أتسمعني.

صوت الحارس: ثبّت قدمَيك، إنها عاصفة وقتيّة وسرعان ما تتوقّف.

الرجل: أين أنت؟ هل ستعود؟

صوت الحارس: سأعود قريباً.

الرجل: كل شيء سيء هنا.

صوت الحارس: لا تخف، أيها الغريب سأعود.

الرجل: بدأت تمطر أين مظلّتي؟

صوت الحارس: هه لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام.

الرجل: متى؟

صوت الحارس: في يوم من الأيام.

الرجل: متى؟

صوت الحارس: قريباً، لا تحزن

الرجل: وأنت؟

صوت الحارس: سأعود.

الرجل: متى؟

صوت الحارس: في يوم من الأيام.

الرجل: ماذا تقول لا أسمعك؟ متى ستعود؟

صوت الحارس: (يوقّع حواره)

في يوم ما

في ساعة ما

هناك في مدينتي

الرجل: (يصرخ وهو يقاوم العاصفة والمطر) لا أسمعك.

صوت الحارس: كنّا نسير بجانب النهر

أنا وصديقي كنا نسير

دون

مأوى

مشرَّدَين

وقرب النخلة

الوحيدة

داهمنا الليل

فغفونا

الرجل: ماذا تقول؟ لا أسمعك

صوت الحارس: غفونا.

وعندما أفقت

وجدت كلباً كبيراً

يلعق جثّتي

فعرفت مصيري

مصيري

مصيري

مصيري

(فترة صمت)

مصيري

الرجل: هه ماذا قلت؟

صوت الحارس: مصيري

يا مصيري

يا مصيري

الرجل: ماذا تقول؟

الحارس: أقول ها قد توقّفت العاصفة.

الرجل: لكنها ما زالت تمطر.

صوت الحارس: (بسخرية) المظلّة ستحميك.

الرجل: ماذا تقول، لا أسمعك.

الحارس: (ضاحكاً) مظلّتك لا يمكن أن تحميك من المطر.

الرجل: أين مظلّتي؟ أين حقيبتي وعصاي؟ أين عصاي؟ (يجد المظلّة ينشرها ويظلّ يقاوم المطر) كأنها تمطر دماً. لقد ساءت الحال. متى يعود كل شيء إلى هدوئه؟ متى ينتهي هذا الكابوس، متى؟ (صمت، ثم فرحاً) لقد استجابت الريح. اللعنة ماذا فعلت العاصفة والمطر بمظلّتي؟ لا يمكن أن تفيدني، لقد تمزّقت (يرميها في الماء) والآن انتهى كل شيء وتحسّن الحال(يسأل نفسه) هل تحسن الحال؟ متى ينتهي هذا كلّه؟ (صمت) كيف سأخلّص نفسي من هذه الورطة؟ هل

أستطيع؟ فماء النهر ما زال يزحف. أين حقيبتي، أوراقي؟ مظلّتي؟ ما هذا الذي يتراءى أمامي؟

(الحارس الذي يدخل المسرح فجأة، يدفع كرسياً متحرّكاً فيه دمية مدير الدائرة بملابسه ونظّارته السوداء الكبيرة، الحارس يشبه دمية المدير بالنظّارة والملابس. يبقى مشهد الأم والابن وهما على حالَيهما مضاءً بإنارة ضبابية في العمق، إنهما ما زالا في ذاكرة الرجل)

الرجل: (فرحاً بعودته) أين كنت؟

الحارس: ماذا بك، ما الذي جرى لك؟

الرجل: عاصفة ووو...

الحارس: (ساخراً) وماذا أيضاً؟

الرجل: لا شيء.

الحارس: ماذا تريد؟

الرجل: بحثت عنك.

الحارس: لماذا؟

الرجل: لتساعدني.

الحارس: أساعدك، كيف؟

الرجل: للخروج من هنا.

الحارس: ستخرج إنشاء الله.

الرجل: متى؟

الحارس: لا أعرف لست أنا الذي يقرّر ذلك.

الرجل: من الذي يقرّر إذاً؟ (صمت، ينظران إلى بعضهما وإلى الدمية)

الحارس: لماذا تسأل كثيراً؟

الرجل: لأنك وعدتني بالمساعدة.

الحارس: نعم، وما زلت عند وعدي.

الرجل: إذاً ساعدني.

الحارس: ليس الآن.

الرجل: متى؟

الحارس: عندما نعرف أين ابنك؟

الرجل: (مرعوباً) ابني؟

الحارس: نعم، أين هو الآن؟

الرجل: كيف عرفت أن لي ابناً؟

الحارس: (يضحك) مثل هذا لا يمكن إخفاءه، أنت تعمل في دائرة تعرف كل شيء عن الناس، فكيف لا تعرف عن عملائها وموظفيها؟

الرجل: الدائرة؟

الحارس: (يكمل) نعم رؤساؤنا يعرفون حتّى عندما يختلي الإنسان بزوجته.

الرجل: (مذهولاً) بزوجته.

الحارس: وتريدهم ألا يعرفوا شيئاً عن ابنك الذي رفض الحرب وهرب ليحاربنا وهو يقتات هناك على فتات موائد أعدائنا!

الرجل: يحاربكم، من أنت؟ أتكون...

الحارس: (صمت)... وكفى أسئلة ساذجة.

الرجل: (فرحاً) هل كنت تخدم أيضاً في التحقيقات.

الحارس: أحياناً، لكني دائماً في المهمّات الخاصة التي أحب العمل فيها.

الرجل: لماذا؟

الحارس: لأنها تُشعرني بقوّتي وتفوّقي وتحتاج إنساناً يمتلك معرفة بالتكنولوجيا، ميّزات ليست عادية، خصوصاً منذ أن استوردت الدائرة المكائن الكبيرة لتسهيل عملنا.

الرجل: تكنولوجيا؟ ماذا تفعلون بها؟

الحارس: لمالجة الحالات المستعصية. فإذا كنتم أنتم في القسّم تنجزون مهمّة واحدة أو مهمّتين، فإننا في ليلة واحدة ننجز المئات، لأن المخرّبين يأتوننا جاهزين من قبلكم. إن تعبكم تسهيل لمهمّتنا. نحن نسأل المذنب سؤالاً واحداً، واحداً فقط وهو في طريقه إلى ماكينة الثرم، إذا لم يوافقنا يستمرّ ولن تراه مرّة أخرى. أما الذين يوافقون فإننا نحوّلهم إلى الممر الآخر، ممرّ النجاة. أغلبهم يختار الحياة عندما يرى زملاءه وهم يُثرمون في هذه المكائن العظيمة. فيطلب النجدة في اللحظة الأخيرة، نستطيع أن ننقذ بعضهم، والبعض الآخر يثرم ويتحوّل غذاء للسمك. إن دائرتنا ساعدتنا كثيراً، فالمكائن اختصرت زمن العمل الشاق. لذلك فأنا جزء من دائرتي وخادمها الأمين، أأتمر بأوامرها حتى يوم الدين، فالحياة لا تعني شيئاً من دونها.

الرجل: وأنا كذلك.

الحارس: الدائرة تعرف أسرار الناس وحياتهم، بما فيها أسرار النهر والبحر والغابات والطبيعة، وكل شيء.

الرجل: إذاً أنت رفيق المهنة، كم أنا غبي إذاً، فات عليّ الأمر ولم أتعرّف إليك.

الحارس: ولهذا أنت تعسّ.

الرجل: تعس؟!

الحارس: نعم لأنك فقدت حاستك السرّية، كان عليك أن تعرفني من اللقاء الأول، فهذا مهم لأن إهماله يدل على التفكك بين رفاق المهنة، إنك قد لا ترى الأمر بهذه الأهمية لأنك لم تعد تملك البصيرة التي كنت تتمتّع بها عندما كنت تخدم في الدائرة، لذا من السهولة أن تخطئ،

لكن ألا تعلم أن أمثالنا يجب ألا يخطئوا.

الرّجل: لقد غفلت.

الحارس: وهذه خطيئة لا تُغتفر، وخطيئتك الثانية أنك لم تعرف أن الذين ركبت معهم في المركب كانوا تنظيماً خطراً، ونحن نراقبهم حتى نعرفهم جميعاً.

الرجل: خطرون؟ لم أرهم هكذا، كانوا صبياناً.

الحارس: ألا يكفي أننا نراهم هكذا؟

الرجل: هل يثير مثل هذا غضب رؤسائي بالرغم من كوني متقاعداً؟

الحارس: ممكن.

الرجل: وماذا أفعل لأكفّر عن أخطائي؟

الحارس: أن تخبر كل شيء تعرفه عن ابنك الآن؟

الرجل: (مرتبكاً) منذ... منذ أن سمعت بأنه هرب خارج الوطن قبل عشر سنين، لم أعرف شيئاً آخر عنه فتبرّأت منه، وكتبت تقريراً في حينها إلى رئيسي.

الحارس: نعم أعرف ذلك. أين هو الآن؟

الرجل: اعتبرته مقتولاً، غارقاً، فقدته، ليس لديَّ ابن الآن.

الحارس: أعرف، لكني أتحدّث عن تحرّكاته في الوقت الحاضر. أين هو الآن؟

الرجل: أين عصاي، حقيبتي، مظلّتي؟

الحارس: (يصرخ به) لا تتحرّك هكذا، إنك تُقلقني.

الرجل: أعتذر.

الحارس: غير كافٍ ولا بدّ من أن تعرف بأنني هنا لمساعدتك.

الأب: شكراً، إنني...

الحارس: (يقاطعه، مُلقياً حواره بشاعرية وحب كبيرَين) لكن أخطاءَك حدثت

بسبب فقدانك الحاسة السرّية لأنك شخت، فالقانون يتسامح مع الإنسان في بداية حياته الوظيفية وفي نهايتها. لكنه يبقى كمقصلة فوق جميع الرؤوس. أما الغفران فلمرّة واحدة. لقد كنتُ أقوم في شبابي بمثل أخطائك، طبعاً عن عدم خبرة ودراية، وكنتُ أعاقب نفسي أياماً طويلة، خصوصاً في ليل الشتاء البارد حيث أذهب إلى البرّ خارج المدينة، والريح تصفر وتُنذر بعاصفة، وأبقى هناك أرتجف حتّى الصباح وحيداً. وفي إحدى الليالي انبثقَ من وسط الظلمة طيفُ رئيسي في الدائرة، كان كالنور الذي يُدخل الهدوء إلى النفس، والسكينة الممزوجة بالفرح الذي يغمر القلب. ظهر شامخاً يبتسم ابتسامته التي تميّزه. وبالرغم من أنه كان طيفاً، لأن الرؤساء لا يظهرون عادة، إلا أن هالة نور كانت تحيط به. وبما أنني كنت خائفاً وأشعر بكوني مذنباً في ذلك الوقت، فلم أجرؤ على النظر إليه. أمرني أن أقترب منه، وقفت أمامه مرعوباً من عينَيه، لكنه طمأنني عندما مدّ يده الحانية ليمسح على رأسي. بكيت من شدّة فرحي، فأمرني أن أتبعه. مشيت خلفه حتّى وصلنا النهر، فأشار إلى أعماقه. شاهدت رأسي العاجي هناك في الماء يهمس: «الخطأ ثمنه حياة، الخطأ ثمنه حياة»، التفتُّ فلم أجد طيف رئيسي، ومنذ ذلك الوقت لم أخطئ أبداً، لأن الخطأ في مهنتنا ثمنه حياة حقاً. إذاً لا تخطئ وإلا اعتُبرتَ مذنباً.

الرجل: نعم، واجبي يحتّم عليّ ذلك.

الحارس: هل رجع ابنك تائباً؟

الرجل: نعم.

الحارس: هل هو في البيت؟

الرجل: نعم.

الحارس: مختبئ؟

الرجل: طلب منّي ذلك غير أني رفضت.

الحارس: لماذا لم تخبر عنه حتّى الآن؟

الرجل: كنت سأفعل، لا أخفي شيئاً عن رئيسي ودائرتي.

الحارس: هنالك أمور لا تتحمّل التأجيل، لقد أخطأت، كان المفروض أن تخبرنا في الحال؟

الرجل: كنت سأفعل.

الحارس: تأخّرت.

الرجل: والله غير متعمّد.

الحارس: هل كنت تحاول إخفاءه؟

الرجل: كلا، أنا خدمت سنوات كثيرة في الدائرة و... و...

الحارس: (مقاطعاً) أعرف، أعرف، ولهذا سأدافع عنك أمام رؤسائي (ينحني على الدمية للإصغاء)

الرجل: شكراً (إلى الرجل الدمية) ماذا تقول يا سيّدي؟ هذه (يشير إلى زهرة عبّاد الشمس التي في صدره) أنا أحبّها، إنها زهرة تتحرّك مع الشمس. ماذا، أهي شؤم؟ لا تحبّها؟ أعتذر يا سيّدي، سأرميها في النهر، نعم سأرميها (يرميها. صمت) ماذا سأفعل الآن؟ (الحارس يهمّ بالخروج) هل تذهب؟ وأنا؟

الحارس: انتظر (يذهب).

الرجل: ما هذا؟ هل أنا في كابوس؟ دم؟ د....، لقد تحوّل ماء النهر إلى دم، دم يجري، يجري و سيغمرني. دم دم (يفرك عينَيه) هل حقاً هذا، أم أنني لم أعد أرى؟

(ضربُ أبوابٍ بعنف، أصواتُ مطارق، أصواتٌ غير مفهومة مختلطة، صراخ)

الأم: (مرعوبة) لقد جاؤوا، فعلها النذل، اهرب يا ملاكي، اهرب.

الابن: عندما خرجتُ كانوا ينتظروني في الظلام. (صمت)

الأم: (إلى الأب) عندما جاءوا في الفجر، كنتَ تعلم لأنك كنتَ قلقاً وتهذي ساهراً.

الابن: قادوني في ممرّ خانق،أرضه مغطّاة ببقع دم يابس، تحت قدمي شيء لزج كالصمغ، دم في كل مكان، دم في الاتجاهات كلّها، يا إلهي، يا إلهي. لماذا لطّخوا الجدران بالدم؟ لماذا رقّموا الزنزانات بالدم؟ دم، دم، دم. (أحياناً يتداخل حواره مع حوار الأم بتناغم)

الأم: خجلتُ من ضعفي لأنني وحيدة وأرى ابني في قبضتهم.

الابن: لم أصدّق عينيَّ، فالأمور اختلطت عليّ، أحقيقة ما أرى أم كابوس؟ كنت أسمع نباحاً بشرياً، كانوا ينبحون بلا توقّف طوال النهار والليل ووووو أووووو أووووو... وكأنهم جاؤوا من كهوف مظلمة تطاردهم حيوانات متوحّشة، كانوا كغابة تشتعل بخيولها المجنونة، والدم في كل مكان. دم دم دم دم.

الأم: دم دم دم دم يا الله، يا الله. (تهمس المقطع الآتي كخلفية لحوارات الابن) أنت المولى وأنا العبد، أنت العزيز وأنا الذليل.

الابن: ارتعبت لبقايا إنسان منسيّ في الزاوية، كتلة بلا ملامح مغطّاة بالدم (يدخل الحارس يدفع عربة صغيرة فيها بقايا إنسان، بقيّة سيقان وأيدٍ ورؤوس بشرية وغيرها، يسحل وراءه رأساً بشرياً كبيراً مربوطاً بحبل، يمكن للمخرج أن يبتكر صوراً قريبة من هذه البشاعة وتتكرّر طوال مشهد الابن) دم، دم في كل مكان.

الأم: أنت الخالق وأنا المخلوق، أنت المعطي وأنا السائل. (تستمرّ في التمتمة)

الابن: وشعرت بأني وحيد، وغريب، فلم أعد أرى سوى الدم في ضباب مظلم.

الأم: أنت المغيث وأنا المستغيث، أنت الباقي وأنا الفاني.

الابن: صرخوا بي: اركض، ركضت وأنا أنتظر ناراً ملتهبة ستشتعل بين ضلوعي وستصيب القلب.

الأم: أنت الدائم وأنا الزائل،أنت الحيّ وأنا الميّت.

الابن: لحقوا بي، اقترب أحدهم وطعنني في رقبتي سقطت وشعرت بدم دافئ يسيل حتّى غطّى جسدي.

الأم: أنت القوي وأنا الضعيف، أنت الغني وأنا الفقير.

الابن: تراجعوا وهم يرقصون، وانتظروا حتّى أنهض.

الأم: يا رب أنت الكبير وأنا الصغير، أنت المالك وأنا المملوك، اهرب بني اهرب.

الابن: نهضت، ركضت كالتائه بينهم، اقترب منّي آخر وطعنني بين ضلوعي، سقطت.

الأم: الرحمن، الرحيم، العليم، الحكيم، السميع، اهرب، اهرب يا بني.

الابن: كانوا يدورون حولي كالوحوش.

الأم: أنت المنير البصير.

الابن: يصرخون بوجهي ويضربوني على جروحي.

الأم: يا رب أنت الأكرم.

الابن: تراجعوا فتقافزت أمام عينيَّ غزلان خضراء.

الأم: أنت الرحيم.

الابن: ومن جديد طعنني أحدهم في ظهري.

•

الأم: وأنت الكريم.

الابن: نهضت حاملاً جروحي، فتراءت لي غزلان أخرى بوجوه صبايا.

الأم: أنت العظيم. اهرب يا بني.

الابن: هرولت، اقترب أحدهم فرأيت وجهه، تذكّرت أني أعرفه، كان زميلي في المدرسة.

الأم: أنت الدائم.

الابن: مددت يدي نحوه أطلب أن يساعدني، لكنه طعنني في الرقبة مرّة أخرى، كان دمي يسيل، غطّى جسدي وامتزج بتراب الأرض دمٌ يسيل، يسيل، يسيل. سقطت، فقادني شرر من عيني إلى كهف مظلم.

أنت الكبير العلي.

الابن: صبايا شقراوات بأجنحة ملائكة تنقر على الدفوف. تقدّمت إحداهن فتحوّلتْ نوراً، شقّت لي الظلام بسيفها فانحدرتُ بعيداً في هوّة باردة رطبة. وعندما تسلّل أول شعاع لنور الفجر صمت كل شيء. نشرت يديَّ فتحوّلتا إلى جناحَين خضراوَين، حلّقت في سماء بعيدة كأني أطير في لهيب نار وأتلوّى هائماً وما زلت أهيم... أهيم، أهيم، أهيم.

الأم: بنيّ.

الابن: لم أنهض، تعثّرتُ. لم أنهض، تعثّرتُ. لم أنهض، تعثّرتُ. تعثّرتُ تعثّرتُ. وعندما تعثّرت مرّة أخيرة شعرت بأني في بئر مظلمة وعميقة جداً.

الأم: يا رب وأنت الشديد.

الابن: وميض، ونسور انقضّت على رأسي والتهمت عينيَّ.

الأم: وأنت الغالب.

الابن: وخيول هائجة تقدح حوافرها شرراً.

الأم: وأنت الحامي.

الابن: تأكل بعضها.

الأم: وأنت المغيث.

الابن: تصهل، وتصهل، وتصهل مجنونة.

الأم: يا ربّ.

الابن: تصهل، وتصهل، وتصهل (صمت طويل) لم أعد أسمع سوى تعاويذك يا أمّي.

(وسط التعاويذ التي تكرّرها الأم، تبدأ مع الابن رقصاً وحشياً، هو بالنسبة إليها حماية لجسد الابن وروحه من القتل، وهو بالنسبة إلى ابنها ما يشبه الانتماء والهرب إلى دفء رحم الأم من جديد والحماية من العذاب. الرقص كالتعويذة، كالهمس، كاللهيب الروحي الداخلي، يمكن أن نسمع من خلف الكواليس همساً مبحوحاً. ما زال الهمس، لكن الأم الآن تحتضن الابن كجثّة كما في أول ظهور لهما، وكأن كل هذا الذي حدث هو إما حلم وإما كابوس. يجمدان كأنهما إيقونة مضاءة. يتحوّل الهمس إلى أنين مع الموسيقى. الرجل لوحده، تسقط حقيبته فتتناثر تقاريره، ثم صمت مطبق)

الرجل: تقاريري؟ تلوّثت، ما هذا؟ (يتفحّصها) بيضاء أحقاً هذا؟ أحقاً أنها بيضاء؟ أمعقول هذا، هل كانت بيضاء منذ البداية؟ أم... لا أعرف، لا لا يمكن، لم أعد أرى شيئاً (صمت) ماذا أفعل؟ إنني وسط شبكة عنكبوت تسحبني إلى هوّة مظلمة. يجب أن أعتمد على نفسي في الخروج من هذه الورطة (يخلع ملابسه ليهمّ بعبور النهر، يبقى شبه عارٍ، يتذكّر بخيبة) لا أعرف السباحة (يتحرّك تائهاً، ثم يهبط قمرٌ من أعلى المسرح) ها قد هبط الليل وأنا وحيد وحزين. ماذا سأفعل؟ (صوت ريح خفيفة. يجلس القرفصاء، لقد تحوّل إلى خواء بعدما

انتهى كابوسه. تهبط من السماء أوراق بيضاء كثيرة، فتختلط مع أوراقه التي كانت على الأرض. تحصره الإنارة في دائرة ضيقة حتّى تمحوه)

ظلام

الطقس الثالث

أغاني جلجامش

الشخصيات

جلجامش

المثّل الأول يلعب الرجل الأول، وأنكيدو، ورئيس المحكمة أيضاً.

الممثّل الثاني يلعب الرجل الثاني، والملك، وأيضاً التاجر.

الممثّل الثالث يلعب الرجل الثالث، والشاعر.

الممثّل الرابع يلعب الكاهن، والرجل الرابع.

الممثّل الخامس يلعب المهرّج الأول، والمفكّر بلا رأس.

الممثّل السادس يلعب المهرّج الثاني، وأمين السرّ.

الممثّل السابع يلعب كبير الحرس، والكاهن الأكبر، وأيضاً الرجل.

الممثّلة الأولى تلعب المرأة الأولى، والملكة، وأيضاً عشتار.

الممثّلة الثانية تلعب الحبيبة.

الممثّلة الثالثة تلعب المرأة الثانية، وسومس.

الأغنية الأولى
أغنية الطاعون

(شارات معبد بابلي. الممثّلون في مكان الفعل على خشبة المسرح منذ بداية العرض حتّى نهايته، فليس هناك دخول وخروج للشخصيات، بل هم جمهور وشهود ومتّهمون وكورس المأساة، وهم الأسطورة والواقع في هذه الأغاني. الأكسسوار والملابس موجودة في مكان الفعل. تتغيّر الشخصية بتغيّر دورها وفعلها، وتستخدم كل ما تحتاجه من ضروريات التمثيل بشرطية مختزلة، ويتغيّر الديكور سريعاً بتغيّر المشهد. هناك أيضاً عربة الممثّلين التي تجري فوقها بعض الأحداث الداخلية ومشاهد الفلاش باك. تكشف الإنارة عن الممثّلين جميعهم وهم على عربتهم الجوّالة فرحون بما يؤدّون، إنه فرح الإبداع والخلق. فهم يشكّلون فرقة مسرحية تستضيف الجمهور. إيقاعهم سريع وحركاتهم رشيقة وجميلة يصاحبهم إيقاع الطبول والأبواق. يبدأ كل منهم بارتداء ما يحتاجه من ملابس وأكسسوارات وماكياج أمام الجمهور بسعادة وحركات متقنة تثير الضحك أحياناً. يجب أن يأخذ كل ذلك الوقت الكافي؛ أعني الحركات الكوميدية الساخرة والأفعال الأخرى التي يُضيفها خيال المخرج لضرورتها... إلخ. الممثّل الرابع (الكاهن) لا يشاركهم الآن بل يبقى جامداً في مكانه منذ البدء).

فرقة الممثّلين: (من دون أن يتوقّفوا عن استعدادهم لبدء اللعبة أو المأساة)

ممثّلون جوّالون
نموت في عصر شقي
ونولد دائماً في عصر جديد

لأننا نبحث في الجذور
عن زهور لا تنبت في أوان الفصل.
(يضرب الممثّل الرابع (الكاهن) على آلة الإيقاع التي يحملها وكأنه قائد أوركسترا، فيصعد بعض الممثّلين إلى العربة من جديد بعدما لبسوا الملابس والأدوات التي يحتاجونها ليتحوّلوا إلى دمى وبعد ذلك يجمدون في أماكنهم. يهدأ كل شيء. الممثّل الرابع والمهرّجان يجرّون العربة إيحائياً وكأنهم يجرّون صليبهم).

المـمثّل الرابع: ممثّلون جوّالون
(الكاهن) نموت في عصر شقي
فإذا جاء عصر غير عصرنا هذا
سندعو الذين يولدون بعدنا
إلى أن يبحثوا عن زهور لا تنبت في أوان الفصل.
(يضرب على آلته الإيقاعية. تبدأ الشخصيات بالانبعاث من جديد، من الجمود والموت إلى الحياة من خلال الحركة البطيئة والإنارة واللون. تأخذ شخصيات الأغنية الأولى مكانها، وكذلك ما تبقّى من فرقة الممثّلين التي تشكّل الشاهد والمشارك في الفعل، أما جلجامش فينتحي زاويةً ليراقب كل شيء).

المـمثّل الرابع: (يهتم بأن تكون شخصيات الأغنية الأولى قد أخذت أماكنها
(الكاهن) بعد الانبعاث ويحثّها على التهيّؤ) ها هم مهرّجو مدينتنا وتعساء عصرنا من الممثّلين ينوحون في المعبد أمام إله الطاعون.
(المهرّج الثاني راكعاً يبكي... نسمع أنينه في الظلام).

الـفـرقـة: أيها الإله

يا ابن السماء

والأرض

والماء.

أيها العظيم

الممثّل السادس: حزين أنا

(المهرّج الثاني) محترق

وحيد،

خائف.

الممثّل الرابع: فاجعل نورك يسقي الحقول

(الكاهن) وفيضك يملأ الدنان.

عروسك زفت في الفجر

للمحنة،

للطاعون،

عروسك أوروك تموت.

(يضرب على آلته الإيقاعية، يجمد كل شيء. يعلن إلى الجمهور)

الممثّل الرابع: (يعلن) الأغنية الأولى

(الكاهن) الإله يوزّع الطاعون على الناس بالتساوي.

الممثّل السادس: أيها اللهيب الناري

(المهرّج الثاني) أيها الإله المقاتل،

احمني فأنا خرقة بالية وسط عاصفة هوجاء

يتحكّم في دفّتها الطاعون.

أيها العظيم، يا من خلقت كل شيء

اسمع صراخي.

الفرقة: أيها العظيم.

الممثّل السادس: أنقذني فأنا وحيد، حزين

(المهرّج الثاني) ليس لي صديق أو حبيب

يبكي موتي.

الفرقة: أيها العظيم

الممثّل الرابع: إنك خلقت كل شيء

(الكاهن) ولك القدرة على موت كل شيء

أنقذنا فالطاعون يطلب القرابين

ويجثم على طرقات المدينة.

الممثّل السادس: أبعد الطاعون عنّي، واجعل جناحَيك سوراً يمنع عنّي أمواج

(المهرّج الثاني) الموت.

الممثّل الخامس: (يدخل متلصّصاً. يحمل وسادة. ينقضّ صارخاً) قف.

(المهرّج الأول) (المهرّج الثاني يرتعب)

الممثّل السادس: أرعبتني

(المهرّج الثاني) ظننت أنك الإله.

الممثّل الخامس: ماذا تفعل؟ لم أتركك سوى لحظة واحدة حتّى عدت إلى

(المهرّج الأول) البكاء والشكوى، ألم أخبرك بأن الطاعون لا يصيبك؟

الممثّل السادس: كيف لا يصيبني؟ وها هو يحصد المدينة منذ زمن، فتشم

(المهرّج الثاني) رائحة الموت بدلاً من رائحة الزهر، حتّى أنكيدو البطل لم يستطع الوقوف بوجهه.

الممثّل الخامس: كان لا يخاف الموت، فالموت أتاه مسرعاً. إنها حكمة قديمة.

(المهرّج الأول) هيا قم، انهض وضع وسادة الملك في مكانها.

الممثّل السادس: اتركني لحظة واحدة.

(المهرّج الثاني)

الممثّل الخامس: الوقت ليس ملكنا. فالملك سيأتي إلى المعبد بعد قليل ويجب
(المهرّج الأول) أن يجد كل شيء معدّاً كي يستطيع التشاور مع الإله حتّى يخلّصك من الطاعون. أليست هذه رغبتك؟

الممثّل السادس: نعم ولكن (فترة) كلمة واحدة أبثّها للإله لتكون تعويذة
(المهرّج الثاني) تحميني من غضب الطاعون.

الممثّل الخامس: الإله منشغل بتنظيم أمور الكون وتوزيع الطاعون بالتساوي،
(المهرّج الأول) فهل تظن بأنه سيجد الوقت الكافي ليستمع إلى شكواك البليدة؟

الممثّل السادس: إنك كافر جاحد لا تخاف الآلهة.

(المهرّج الثاني)

الممثّل الخامس: كلا وحق الآلهة، فأنا الصادق في كلامي (بقصد) غضب
(المهرّج الأول) الإله هو الذي سلّط علينا الطاعون، ولن يرفعه إلا متى شاء. هذا ما يقوله الكاهن وخادم هذا المعبد.

الممثّل السادس: ومتى يشاء الإله؟

(المهرّج الثاني)

الممثّل الخامس: إنك بليد وحق الآلهة، من يدري... حتّى الملك لا يعرف.
(المهرّج الأول) ألا ترى أنه أمر بعدم دفن جثّة أنكيدو وأمر ابنه جلجامش بالجلوس عند الجثة؟ فعسى أن يرقّ قلب الإله فيرفع الطاعون عن المدينة. والآن قم فسوط الكاهن لا يرحم. قم ضع هذه الوسادة هناك واترك شكواك إلى وقت آخر.

الممثّل السادس: (يأخذ الوسادة ويضعها في مكان مناسب) هنا.

المـمثّل الخامس: كلا، في تلك الزاوية.

(المهرّج الأول)

المـمثّل السـادس: آه. ليتني أستطيع أن أتكلّم مرّة واحدة مع الإله.

(المهرّج الثاني)

المـمثّل الخامس: لن تستطيع ذلك إلا إذا كنت كاهناً أو ملكاً. وأنت لا تصلح

(المهرّج الأول) لأن تكون أحدهما.

المـمثّل السـادس: لماذا؟ الإنسان متنقّل عظيم بين اضطرابات الحياة. فاليوم

(المهرّج الثاني) مهرّج وغداً ملك.

المـمثّل الثالث: (يضحك) لم يتقن مهنة التهريج بعد.

(ضحك من الفرقة)

المـمثّل الخامس: (إلى الممثّل الثالث) لقد نطقت الصدق (إلى المهرّج الثاني)

(المهرّج الأول) لكنك لست إنساناً ما دمت لا تعي أنك إنسان.

المـمثّل السـادس: كيف؟

(المهرّج الثاني)

المـمثّل الخامس: أنت مهرّج ومهنتك البكاء والضحك...

(المهرّج الأول)

المـمثّل الثاني: البكاء على أحزانك والضحك لإدخال السرور إلى قلوب الملوك.

المـمثّل الخامس: ولا تصبح إنساناً إلا إذا كففت عن هذا.

(المهرّج الأول)

المـمثّل الأول: (يضحك) وإذا تركت هذه المهنة تموت جوعاً.

المـمثّل الرابع: أو تموت بالطاعون.

(ضحك متواصل من الفرقة)

المـمثّل الـسـادس: إني ولدت إنساناً كبقيّة البشر.

(المهرّج الثاني)

المـمثّل الثـالث: ألم أقل لكم بأنه لم يتقن مهنته بعد.

المـمثّل الخامس: لقد ولدتَ إنساناً، لكنك الآن مهرّج وستموت مهرّجاً.

(المهرّج الأول)

المـمثّلة الأولى: وكذلك الفحّام يولد إنساناً ويموت فحّاماً.

المـمثّلة الثانية: إذا لم يتوقّف عن صبغ بشرته كل يوم بغبار الفحم.

المـمثّل الثاني: والحارس يولد إنساناً ويموت حارساً.

المـمثّل الأول: إذا لم يكفّ عن إمساك السوط.

المـمثّل الرابع: والفقير يموت فقيراً.

المـمثّل الأول: إذا لم يكف عن قبول فقره.

المـمثّلة الثالثة: وكذلك التاجر والكاهن و...

المـمثّل الرابع: (بعد أن يضع قناع الكاهن... بغضب) هل تعنين الكاهن

(الكـاهـن) الذي أمثّل دوره؟

(الفرقة تنسحب بخوف، وكذلك المهرّج الأول. صمت. الكاهن يخرج من المسرح)

المـمثّل الخامس: (يهمس إلى المهرّج الثاني) وعندما تموت اكتب على

(المهرّج الأول) قبرك.

المـمثّلة الأولى: ولد إنساناً ومات مهرّجاً (ضحك متواصل).

المـمثّل الـسـادس: إنك فتحت عيني.

المـمثّل الخامس: افتح عينيك يا صديقي فالزمن لا يرحم.

(المهرّج الأول)

المـمثّل الـسـادس: الذي يخيفني، هو ألا أجد صديقاً يأسف على موتي

ويبكيني.

الممثّل الخامس: الأموات يفقدون أنفسهم، والحزن عليهم هو خداع للأحياء.

(المهرّج الأول) فكل شيء يموت يُنسى.

الممثّل السادس: إلا جلجامش، لا ينسى صديقه أنكيدو. يبكيه ويحزن عليه

(المهرّج الثاني) ولا يفارق جثّته ليل نهار.

الممثّل الخامس: انتظر قليلاً سيسأم رائحتها. وسيقوم نافضاً عنه غبار

(المهرّج الأول) الانتظار والبطولة.

الممثّل السادس: هل تشكّ في بطولة جلجامش؟

(المهرّج الثاني)

الممثّل الخامس: إنك مهرّج وحق الإله. ليس أنا الذي أشكّ في بطولته

(المهرّج الأول) (يهمس) إنما هو أيضاً لا يصدق هذه البطولة.

الممثّل السادس: إذاً من الذي قتل الوحش في الغابة؟

(المهرّج الثاني)

الممثّل الخامس: اششش أنا أعرف أسرار هذه المدينة.(حركة قافزة في

(المهرّج الأول) الهواء).

الحبيبة: (نسمع صوتها وهي خارج نطاق الفعل) يا بنات المدينة

أين حبيبي؟

أين الرابض في البرّية؟

إن رأيتن حبيبي

أخبرنه أني أموت اشتياقاً.

الممثّل السادس: انظر إنها متّجهة صوب المعبد. أظنّها تريد الدخول.

(تتحرّك الحبيبة نحو مكان الفعل. الكاهن في إثرها. يجمدان حتى يحين دورهما).

الممثّل الخامس: الكاهن دائماً في إثرها.

الممثّل السادس: لا أفهمك.

الممثّل الخامس: (هامساً) ستفهمني قريباً. تعال لنختبئ.

الحبيبة: (تدخل مكان الفعل. فتاة جميلة بثوبها المهمل. صمت. تسير مأخوذة وخائفة. تدور في المسرح. تهمس دائماً بشفافية. الفرقة تتكوّم كتلة واحدة) يا حبيبي. قد حان قطاف الكروم وأنت نائم.

تعبٌ أنت أم تراك حزين؟

وحيدة أنا وسط الكروم، والريح تعبث بالثمار.

يا ويلي. أتئنُّ؟

يا ويلي (صمت).

يا أهل المدينة لا توقظوا حبيبي حتّى يشاء.

حتّى يشاء. حتّى يشاء.

إنه يحب الماء والطيب والكروم. (تتعثّر)

آه... اتّسخ ثوبي

يا صبايا. أسرعن أحضرن ثوبي الجديد.

ثوب عرسي

فحين يناديني حبيبي

يأتي صوته طائراً فوق الجبال والوديان.

إنه في كل مكان (صمت).

البرد لعنة، لكن حبيبي النار في الموقد.

أسرعن، فهو يطلبني.

يا حزني (صمت).

لكني أسير في طرقات وعرة.
لا أرى منفذاً،
فهو بعيد عني.
أسرعن. أسرعن
أسرعن.
وقتنا ضيق ونحن نحب التمهّل.
لا نفكر بما سيحمله الشقاء لنا.
هيا أسرعن.
فالقمر بدر وقد حان موعدي.

الفرقة: ماذا تريدين في هذا الليل؟

الحبيبة: خرجت في ضوء القمر أبحث عن حبيبي.
أطلب من تحبّه نفسي وتهواه.
طلبته فما وجدته
أوقفوني في قارعة الطريق
صرخوا بي. أفزعوني
وأيقظوا الفجر في داخلي.
ناديت حبيبي
يا حبيبي. يا حبيبي
تحوّل عني وعبر.
جريت كالظبي والقمر طريقي.
أنادي حبيبي
يا أهل المدينة، هل رأيتم حبيبي؟

الفرقة: (صدى) هل رأيتم حبيبي؟

الحبيبة: هل سمعتم صوته؟

الفرقة: هل سمعتم صوته؟

الحبيبة: (الفرقة تطوّقها وتحاصرها) أمسَكوني. إنهم أشدّاء أقوياء لا يرحمون.

الفرقة: ماذا تفعلين والليل ملك المدينة؟

الحبيبة: حبيبي ينام الساعة تحت الكروم.

الفرقة: اذهبي يا جميلة. فالليل ملك لا يرحم.

الحبيبة: حبيبي يمشي الساعة فوق البحر. أسرعوا فوقتي ضيّق.

الفرقة: (تحاصرها) اذهبي فالليل خدّاع لا يرحم.

الحبيبة: هيا ساعدوني. حبيبي يحب الطيب، والفجر رداؤه. ساعدوني (صمت) وأسفاه (صمت) اسمعوا أنينه (صمت) هل تئنّ في نومك؟ سأجلب لك العطور الطيّبة (صمت) لم يسمعني. تحوّل عنّي وعبر.

الفرقة: اذهبي فالليل لا يرحم.

الحبيبة: حبيبي ينام الساعة تحت الكروم.

(الفرقة تختفي في زوايا المسرح)

الممثّل الرابع: (يدخل إلى مكان الفعل يهمس ويكون حذراً من الآخرين) أيتها

(الكاهن) الجميلة.

الحبيبة: (تهمس) إنه يناديني.

الممثّل الرابع: (يتقدّم بحذر من الفرقة) يا جميلتي.

الحبيبة: اسمع (تغنّي بهمس) كانوا سوداً يأكلون كل شيء وينفثون ريحاً كالنار، لا يفرّقون بين البشر...

فالكل للطعام صالح. وحبيبي نام فمتى يستيقظ؟

المُمثّل الرابع: يا جميلتي.

الحبيبة: لا تصرخ أرجوك، فحبيبي نائم. تعب هو لا توقظه.

المُمثّل الرابع: (بحذر وهو يتلفّت) أنا... أنا أحبّك أيتها الجميلة وأريدك لي. فحبّك يسري في جسدي.

الحبيبة: اسمع (صمت) حبيبي يناديني. هل تسمعه؟

المُمثّل الرابع: إنه مات أيتها الجميلة.

الحبيبة: أرجوك قل للحرس أن يسمحوا لي برؤيته.

المُمثّل الرابع: مات أنكيدو يا جميلتي، التهمه الطاعون ولا بدّ للموت من أن يلتهمنا في يوم ما. (يشدّ وثاقها بملابسها كما في مشفى المجانين، والفرقة تتحوّل إلى وجوه وأقنعة كبيرة مضاءة تراقب كل ما يحدث) خداع وخداع كل ما يدور حولنا، ونحن نلبس أقنعة في كل يوم ونتزيّن برداء الكذب. لنكن صادقين في لحظة الحب. تعالَي نعيش في زمن غير هذا. ننسى كل آلامنا وكذبنا وخداعنا. فقط نتحسّس الحب ونجعله شمساً تفيض وربيعاً وسط خريف حياتنا. أنتِ فيض يشعّ في داخلي وشمس تُدفىء قلبي.

الحبيبة: قل لهم أن يتركوني أعبر. هم أقوياء ويطوّقونني بسلاسل من نار، وأنا لا أحمل سوى حبّي لحبيبي.

المُمثّل الرابع: لقد أحببتك دائماً وازداد حبّي لكِ الآن أكثر. (تتخلّص منه لكنها ما تزال مقيّدة) كوني لي، أمنحكِ الحياة. أقبلكِ كما أنت تهيمين على وجهك في الطرقات ودليلك قدرك. ساعة واحدة بين يدَيك تعيد إليَّ موت شبابي.

الحبيبة: (بغضب) لا تصرخ.

المـمثّل الرابع: مات أنكيدو، أمّا أنا فأحبك.

الحـبيبة: من أنتَ؟ وا أسفاه، هم كثيرون في هذه المدينة. هل أنتَ أحدهم (تهرب خائفة).

الممثّل الرابع: أنا الكاهن الصغير. الحي والميت في هذه المدينة. نصغي في البحر ونصغي الآخر في البرّ.

الحبيبة: (مختنقة) أخبرهم أن يتركوني أعبر، لأن حبيبي يناديني.

الممثّل الرابع: إن كنت مجنونة فأنا أكثر جنوناً منك (يمسكها وتبدأ حركة الاغتصاب وهي خائفة وتقاوم) اسمعي. سيمنحك الإله فيضاً من نوره، فاخلعي رداء الحياة القاسي وامنحيه جوهر جسدك الزلال. ستسبحين وإياه في بحر من الحب. تتفيّآن في سموات بعيدة، يُذيقك حلو الشهد وتلعقين شفتَيه الورديتَين فيمنحك الحياة. إنه الآن ينظرك بعينَيه الذهبيتَين (يستمرّ في صراعه معها) ها هو يمنحك البركة، فلا تبخلي عليه بجسدك، إنها هديته، وهي غذاء للدود منحها لك فردّيها له الآن.

الـفرقة: (تهمس) الليل ملك لا يرحم.

(الكاهن ينتبه، يرميها على الأرض.. الحبيبة منهارة).

الحبيبة: (بفزع وقرف) إنك غليظ القلب، هم يغرزون رماحهم فيَّ وأنت تكبّلني. (صمت) أين أنت يا حبيبي؟ من ينادي حبيبي لي؟ مخلّصي هو (بغضب) هأنذا أرى نيراناً تخرج من الأفواه والعيون، وأرى ثعابين البراري تزحف على هذا المكان. آه إنها الصحراء والجحيم (تغنّي) كثيرون ذهبوا وكثيرون سيذهبون. من المكان الذي أتينا، إليه سنعود، لأننا قساة القلوب (تحاول الهرب والكاهن يلاحقها).

الفرقة: (بهمس) اذهبي فالليل ملك لا يرحم.

الحبيبة: اصرخن معي، فأنا أشمّ رائحته في سعف النخيل، في أهوار البردي، في السهول، والجبال، والوديان.

الممثّل الرابع: قفي.

الفرقة: (بهمس) اهربي فالليل خدّاع لا يرحم.

الحبيبة: سأذهب لأن الليل ولّى والحرس ناموا والطرقات خاوية.
هيا يا صبايا أين الزهور؟
أين الزهور. أين الزهور؟
إني قادمة يا حبيبي. إني قادمة. (تخرج مسرعة)

الممثّل الرابع: قفي (فترة صمت، يتأمّل المكان، نرى فقط وجوه الفرقة مضاءةً) لقد فقدت كل شيء. في الماضي كانت تستسلم لي والآن تفرّ هاربة. كنت أظن أن موت أنكيدو سيكون نهاية لانتظاري وعذابي. آه إني مجنون حقاً، أنا الكاهن الصغير ومربّي أطفال الملك، وخادم كاهن المعبد الأعظم. مجنون حبّاً (يضحك) متى أكون كاهن المدينة الأعظم بدل هذا الشيخ الهرم الذي يُدير شؤون المعبد بلا بصيرة، لكنه ينال كل شيء يبغي من هذه المدينة. (صمت. مفكّراً) المدينة. المدينة. المدينة مشتعلة ربّما من الطاعون والظرف مؤاتٍ كي أقوم بما أريد. وأكون ما أريد. لأجعل من موطئ أقدامي نيراناً تلتهم كل شيء. (صمت) لكن الزمن... الزمن... هل يمكن أن نخلق الزمن؟ نعم أنا فقط أستطيع أن أجعله زمني. هذا هو العقل في رجاحته. لن تكون هنالك فرصة أخرى غير هذه. مثل ما خلقتُ أسطورة جلجامش أستطيع أن أخلق ما أشاء. آه. لو أكون أنا

الكاهن الأعظم. لو أكون أنا... إذاً لوضعت المدينة على راحة يدي، أحرّكها كما أشاء. كيف الوصول إلى هذا؟ كيف؟ كيف؟ هذا ما سيخبرني به زمني.

(نسمع من بعيد أجراس صغيرة)

ظلام

فاصل مسرحي

(ما نزال نسمع أصوات أجراس صغيرة. يتغيّر المشهد. جلجامش ما زال في جلسته. يدخل الملك والملكة إلى مكان الفعل. بعض أعضاء الفرقة كرجال الدولة، لكن بملابس الكهنة والكاهنات. أقنعة. دمى. كرنفال. تشعّ في الجو رائحة البخور. المهرّجان يقدمان الخبز والملح إلى الجمهور. الممثّل الرابع (الكاهن) يدخل دافعاً عربة المُقعدين التي يجلس عليها الممثّل السابع (يمثّل الكاهن الأعظم وهو على شكل دمية). الممثّل الرابع (الكاهن) يبدأ بتعرية الملك كي يقدّم قربانه، و أثناء الاحتفال الطقسي هذا يقوم بجلده وهو عارٍ. الممثّلون في حالة من الهذيان الذي يزداد كلما تقدّم المشهد. نشاهد على المسرح بعض شارات عشتار البابلية، يحرّكها رجال الدولة في الفضاء. هذا المشهد يصبح خلفية لحوار الكاهن الأعظم الآتي)

الممثّل السابع: (الكاهن الدمية) كالقصب في مهبّ الريح ننحني لبلاء الطاعون، فأنت غاضب علينا، وغضبك رأس رمح يشعّ في الشمس فيعمي الأبصار. في كل بيت أمّ تنوح، وفي كل ركن طفل يتعفّن، وعلى كل صخرة، إنسان يسري الطاعون في جسده، وها هو ابنك الملك يتقطّع حزناً على مدينته وقد أمر ابنه جلجامش أن ينوح قرب جثّة صديقه أنكيدو كالأم الثكلى حتّى ينكشف سبب غضبك. اكشف لنا عن وجهك أيها الإله، وتقبّل قربان الملك

(الكاهن الأعظم ينام منهاراً، يزداد الإيقاع فتعمّ الفوضى. ينام الملك عارياً على الدكة).

المهرّج الأول: في عهدنا هذا، هكذا يفعل الإنسان وقت المحنة.

الممثّل الرابع: (أثناء حواره تقوم الفرقة بتغيير الديكور، تتحوّل بحركة سلو موشن. يضع قناع الكاهن) الحكاية عندما تولد لا بدّ من أن تستمرّ وتنمو لتكشف عن سرّ مأساة الإنسان، ومن ثم تدميره أو سعادته. الخراب في الكثير من الأزمان ملازم للبشر، لا يولد معهم، بل هو يخلق من قبلهم ولأجلهم، وحتّى نعرف هذا. لا بد من أن تنتهي أغنيتنا وتليها الأغنية الثانية، أغنية الكشف والتطهير. (يؤشر إلى صاحب الإنارة بإشارة ساحرة من يده...)

ظلام

الأغنية الثانية
أغنية الكشف والتطهير

(جلجامش وهو ما يزال على جلسته في غرفته، ملابسه مهملة، في خلفية المسرح وعلى شاشة كبيرة صورة لأنكيدو وكأنه صقر يهيمن بجناحَيه كأنما مصاب بسهم ناري. الفرقة تتوزّع على المسرح لمشاهدة ما يجري. تظهر لافتة على جانبَي المسرح أو الصالة بعنوان: المهم هو الحيوية وليس الحياة الأبدية).

جلجامش: آه، أي دبيب عذب يضجّ في رأسي،
وأي عذاب يتحمّله هذا القلب.
أيتها الكلمة التي ينطقها الإنسان
بعد صمت وتفكير طويل،
الكلمة التي تحدّد المصير
وتعذّب الروح... آه، لقد بدأ زمني.
(يتحرك المهرّج الأول بهدوء على أطراف قدمَيه نحو المكان الذي يجلس فيه جلجامش)
من هذا الطارق البليد وسط رائحة الجثث؟

الممثّل الخامس: أنا الضاحك والباكي على هذا العصر.

جلجامش: (يضحك) أهو أنت؟

الممثّل الخامس: هل كنت تكلّم نفسك يا سيّدي؟

جلجامش: نعم يا صديقي وإلا سيغلبني النوم الطويل (فترة) أين كنت في زحمة الأيام هذه؟

المـمثّل الخـامـس: أدور حول بابك المغلق راقصاً حيناً. باكياً حيناً آخر دون أن
(المهرّج الأول) أجرؤ على الدخول.

جـلـجامـش: والآخرون أين هم؟

المـمثّل الخـامـس: ثلاثة أيام وهم يحلمون ببركة الإله، منتظرين خروج الملك
(المهرّج الأول) من فراش نومه في المعبد.

جـلـجامـش: إنها النهاية. فعندما يفرش الغباء بساطه على الناس تشعر بأفول حياتك.

المـمثّل الخـامـس: إن الطاعون يا سيّدي الشاب يُفقد الإنسان ملكة العقل.
(المهرّج الأول) (صمت) ألا تخاف الطاعون سيّدي؟

جـلـجامـش: كنت أخافه، أما الآن فإني رأيت الشمس وامتلأتُ بنورها، فلم يعد هناك طاعون يُصيبني.

المـمثّل الخـامـس: (مندهشاً) ماذا تقول يا سيّدي؟ كيف؟

جـلـجامـش: خلال الأيام التي أمضيتها مع جثّة أنكيدو توصّلت إلى أن ما نخافه ونخشاه ليس الطاعون، بل أنفسنا. أنا وأنت والآخرون طاعون هذه المدينة.

المـمثّل الخـامـس: كيف يا سيّدي؟ نحن نتحمّل آلامها دون أن نبكي.

جـلـجامـش: إننا نقف ضدّها، لأننا نقف ضدّ أنفسنا ونخشاها، فهي تطلب الكثير لأنها أعطتنا الكثير. وأمام ويلاتها نختبئ في بيوتنا أو نهرب بعيداً وكأننا نعيش في مكان غير هذا.

المـمثّل الخـامـس: (متردّداً) أنت... هل أنت متعب يا سيّدي.

جـلـجامـش: أرأيت؟ حتى أنت بدأت تلبس وجه المدينة الزائف، وتكون ضدّ نفسك.

(يقفز الممثّل الخامس - المهرّج الأول في الهواء. يضحك

ويبكي بمبالغة كبيرة. يقلّد، ويمثّل مثيراً الضحك والسخرية بين أعضاء الفرقة).

جلجامش: لأنك مهرّج مسكين، فأنت تضيف تعاسة جديدة إلى تعاسات هذه المدينة. كان من الواجب أن تبحث عن نفسك، أن تعطي المدينة ما تطلب وتقول الحقيقة. والحقيقة...

الممثّل الخامس: (مقاطعاً) أن أكفّ عن مهنة التهريج؟

جلجامش: نعم. بهذا فقط تكون إنساناً.

الممثّل الخامس (المهرّج الأول): (يقفز في الهواء) وبهذا فقط أكون ملعوناً من القصر والمعبد، ففي عصر كهذا عليك أن تقبل بكل شيء وإلا أُصبت بالطاعون فهو حاضر في كل زمان.

جلجامش: إنها ليست لعنة يا صديقي، إنما هي اكتشاف ذاتك عندما ترفض.

الممثّل الخامس: أتعرف يا سيّدي بأن الموت قاسٍ، والسوط لا يرحم.

جلجامش: آه يا صديقي، إن ما نبغيه ليس الخلود، إنما وسيلة العيش في هذه الحياة حتّى وإن كان الطريق للوصول إلى هذه الغاية هو الموت ذاته. المهم هو الحيوية وليس الحياة الأبدية. نعم، ليست الحياة الأبدية، فما هذه الحياة التي نعيشها الآن والتي يتحكّم بها كهنة المعبد والقصر والطاعون، إلا كذبة كبيرة وعليك أن تكون خارجها.

الممثّل الخامس (المهرّج الأول): ليس كل ما نبغيه ونريده نقطفه وقت ما نشاء، فالإرادة تتطلّب تحمّلاً لكل الشقاء، وأنا ليس لديّ القدرة لأنني أريد أن أعيش. إنه ضعفنا يا سيّدي.

جلجامش: هذه هي مأساة مدينتنا. لقد عشتُ زمني وأنا لا أعرف ماذا

أريد؟ ماذا أبغي؟ لا أرى الأشياء كما أريدها. سنوات طوال مضت وكل ما يُحيطني يأمرني بالهمس. وتسأل من الذي خلق هذا كلّه؟ لا أحد يعلم. الكلّ يعرف مهنة واحدة: الصمت أو قطع اللسان.

الممثّل الخامس (المهرّج الأول): هذا حق يا سيّدي، لكن لا تنسَ بأن الجلّادين والحرّاس منتشرون في الطرقات يتربّصون بكل شيء يتحرّك حتى الهواء.

جلجامش: نحن الذين منحناهم هذه المهمّة فشوّهنا حياتهم وجعلناهم متمرّسين بمسك السوط. نحن مسؤولون عن كل شيء نراه أمام أعيننا.

الممثّل الخامس (المهرّج الأول): الجلّاد يمتلك ضرورته في زماننا يا سيّدي، فإذا رفضنا مهنة الجلد، فمن الذي يجلد الناس إذا أخطأوا؟

جلجامش: ما زلت مهرّجاً يا صديقي. لماذا يولد الخطأ مع الإنسان؟ والآن وجب عليّ أن أبدأ البحث عن حياتي، فلا أنتظر ما ينطق به المعبد.

الممثّل الخامس (المهرّج الأول): لكن الخوف، هذا الوحش، يحيل أجسادنا قطعاً ثلجية توقف إرادتنا.

جلجامش: جلجامش: لنمنع هذا الخوف، لنوقفه عند حدّه، لنحاربه. لقد جعلوا منّي بطلاً لأنهم بحاجة إليه، فهم يعيشون في خوف دائم، والشيء المحزن هو أن أنكيدو مات دون أن يكتشف دوره وسط هذه المهزلة (يشير إلى جثّة أنكيدو) انظر إلى أنكيدو كيف انتقل من كذبة البطولة إلى رائحة الموت النتنة. أما أنا فأحاول الآن أن أوقف مهزلة البطولة ولعبة الطاعون.

الممثّل الخامس: كيف يا سيّدي؟

جلجامش: جلجامش: سيخبرك زمني.

الحبيبة: (صوتها من بعيد) يا حبيبي قد حان قطاف الثمار.

جلجامش: (إلى المهرّج الأول) والآن عليّ أن أتلقّى السهام النارية. انتظر لترى.

(تدخل الحبيبة هائجة والكاهن في إثرها. تظلّ مشدوهة وهائمة. تركع أمام جثّة أنكيدو)

الممثّل الخامس: (لنفسه) إنه كالشيطان يلاحق جنونها حتى لا تهدأ.

الحبيبة: أيها الملك الحبيب.

فارسي الذي يزورني في أحلامي.

لا تغضب، فأنت دائم الحضور.

لكن لمَ أنت حزين؟ (صمت)

لا أسمعك وسط الضجيج.

رحى تدور وتدور في رأسي

وأجراس تقرع في كل حين.

فالأبواب مغلقة والحرس في كل مكان.

هل هو يوم زفافك؟

أم أنه الفيضان الذي لا يقوى

أحد على مقاومته،

والذي يهزّ السماء مُحدثاً الخراب في الأرض؟

لسنا ملومين. فالكلّ أكل من الشجرة.

واللعنة فوق الرؤوس سقوف ملتهبة.

وأسفاه، كقماش مبتلّ ملقى،

كانت معلّقة على الوتد.
لكنهم صوبوا عيونهم رماحاً مشتعلة تحرق جسدها،
نحن قساة لا نرحم.

جلجامش: (إلى الكاهن. يقطع الطريق عليه) هل كنت تبحث عنها.

الكاهن: (مرتبكاً) آ... آ... عمَّن؟ كلا. إنما، إنما كنت قلقاً عليك وجئت لرؤيتك.

جلجامش: أنا بخير، إن كنت تسأل عنّي.

المهرّج الأول: هل آخذها بعيداً يا سيّدي خوفاً من الطاعون؟

جلجامش: (ينظر إلى الكاهن) صدقت. (إلى المهرّج) خذها وأخبرهم ألا يتركوها تدخل على الجثّة مرّة أخرى.

الممثّل الخامس: هيا أيتها الجميلة.

الحبيبة: لا تلمسني، فها هي تنفث النيران كيوم الجحيم. لا تحزنوا يا صغاري.
سأعود في موسم القطاف،
أرعى الحقول.
فحبيبي رحل عني.
والأرض مجدبة، لا تحمل الزهر.
هيّا. هيّا. هيّا.
(يقودها المهرّج ويخرجان)

جلجامش: سيّدي الكاهن؟

الممثّل الرابع: نعم يا سيّدي.

جلجامش: متى يستيقظ الملك من نومه في المعبد؟

الممثّل الرابع: لا أعلم بمشيئة الإله يا سيّدي.

جلجامش: بمشيئة الإله أنت تعلم.

الممثّل الرابع: كلا يا سيّدي، الإله هو العارف بما تخبّئه الصدور والأقدار.

جلجامش: وهل يعلم بأنك تشتهي حبيبة أنكيدو، وكنت ترغب في موته؟

الممثّل الرابع: (مرتبكاً) أنا، أنا يا سيّدي. لماذا؟

جلجامش: لأنك تحبّها وتريدها لك؟

الممثّل الرابع: أنا، يا سيّدي، إنها...

جلجامش: (مقاطعاً) إنك تحبّها.

الممثّل الرابع: أنت تظلمني يا سيّدي.

جلجامش: لقد خلقتَ كل شيء، من أجل أن تنفرد بها.

الممثّل الرابع: كلا. أنا لا أحبّها.

جلجامش: بل تحبّها، ولهذا أردت وعملت على موت أنكيدو. كُفَّ عن الكذب يوماً واحداً في حياتك، واكشف نفسك أيها الكاهن.

الممثّل الرابع: أنا لا أحبّها.

جلجامش: (يلاحقه) قل الحقيقة.

الممثّل الرابع: كلا، لا أحبّها.

جلجامش: نعم أنت تحبّها، وتأرق الليل من أجلها وتتلصص عليها من ثقوب أبواب المعبد، عندما كانت تقدّم القرابين.

الفرقة: (أصوات متعدّدة) إنها الحقيقة.

الممثّل الرابع: (مأخوذاً، يصرخ) كلا. كلا. كلا.

جلجامش: وتطلب منها بصوتك الأجشّ، أن تتعرّى أمام الإله تنفيذاً لرغبته.

الممثّل الرابع: كلا. كلا. إنها أسرار العبادة.

جلجامش: فتحصل على ما تريد من خلال إرادة الإله. حتّى أنا، جعلتني

أتفيأ بظلّك الكاذب.

الممثّل الرابع: كلا. كلا. إنك قريب من سَمع الإله.

جلجامش: (غاضباً) إلهك هذا يسمعني، فإن كان له لسان فليتكلّم.

الممثّل الرابع: لا تجحد يا بني، خوفاً من أن تصيبك اللعنة.

جلجامش: أم أنك تشارك إلهك غنائم شرّ أفعالك.

الممثّل الرابع: (يصرخ إلى الجمهور) إنه جاحد يسبّ الإله. أيها الإله العظيم، لا تسمعه لأنه لا يعي ما يقول.

جلجامش: كلا. بل الآن فقط أعي ما أقول.

الممثّل الرابع: توقّف يا بني، وإلا أصابك الطاعون الذي حوّل أنكيدو إلى صخر أسود. توقّف.

جلجامش: (متألماً) أنت والآخرون جعلتم من أنكيدو طائراً مكسور الجناح كي تستولي على حبيبته. أليس كلامي حق أيها الكاهن.

الممثّل الرابع: يا سيّدي... أنا...

جلجامش: (مقاطعاً) تكلّم، تكلّم، لقد ولّى زمن أسطورتك. واجه نفسك، واكشف عن ذلك الشرّير في داخلك، تكلّم...

الفرقة: تكلّم... (الفرقة وجلجامش يلاحقان الكاهن)

جلجامش: تكلّم، تكلّم، تكلّم.

الممثّل الرابع: (منهاراً) نعم كنت أحبّها ملكت عليّ جميع حواسي، وجعلني جمالها أفقد توازني، كنت أحبّها.

جلجامش: ولهذا اختلقت حكاية الوحش الذي يسكن الغابة.

الفرقة: (بصوت هامس كأنه الماضي) جلجامش يرى رؤيا
يزوره الإله
يسقيه عسلاً حلواً

وينفخ في فمه البركة.

الممثّل الرابع: (إلى الجمهور) أنه لأمر شاق أن يكذب الإنسان على نفسه، ولكن ما أسهل الكذب على الآخرين.

(أثناء حوار الكاهن وجلجامش تكون الفرقة منشغلة في تهيأة المشهد. الممثّلة الأولى (الملكة)، تجلس على كرسي ضخم، تحيطها بعض الكاهنات بأقنعتهن الكبيرة. يُضاء المشهد، فنرى جلجامش الشاب أمام أمّه الملكة. الكاهن يترك مكانه في الحاضر ويتجه نحو مكان الفعل في الماضي. المشهد يُمثَّل. الفرقة تقوم بالمؤثّرات الصوتية وتخلق جو المشهد الجديد الذي ينقسم الحدث فيه بين الماضي وحاضر الفعل).

جلجامش: (بملابس أخرى ويضع قناعاً) يا أمّي رأيت الليلة الماضية حلماً. رأيت أني أسير مختالاً فرحاً بين الناس، فظهر القمر وسقط بين قدميَّ. أردت أن أرفعه، ثقل عليّ.

الممثّلة الثالثة: إنها بشرى.

جلجامش: (مواصلاً) تجمع حوله أهل المدينة وأخذوا يتمتّعون بضيائه، وفجأة ظهر حيوان بتسعة رؤوس، فحمل القمر من بين قدميَّ ورفعه في يد واحدة فعمَّ الظلام.

الممثّل الثاني: رحمتك يا ربّ.

جلجامش: ركع الناس جميعاً خوفاً. طعنت الوحش في أحد رؤوسه، قطعته، لكن سرعان ما نبت له رأس جديد، فوقفت حائراً لا أعرف ماذا أفعل؟

الممثّل الثالث: يا كبير الآلهة...

الممثّل الأول: إني خائف.

الممثّلة الثالثة: إنه غضب الآلهة.

المهرّج الثاني: أيها الكاهن. امنحني بركتك.

الممثّل الرابع: لا تقاطعوه. دعوه يكمل.

جلجامش: وعندما هجم عليّ في إحدى المرّات. طعنته في القلب، فخرَّ يزأر بصوت مخيف حتى خمدت أنفاسه. سقط القمر تحت أقدامي وأضاء نوره المكان. انحنيت عليه ورفعته وأتيت به عند قدمَيك، فجعلته نظيراً لي.

الممثّل الرابع: (يدخل مكان الفعل. ينظر متردّداً إلى جلجامش. يرمي زارات كبيرة عدّة ويتمعّن فيها. فترة صمت. ينظر مرّات عدّة إلى جلجامش) إنه صديق مخلص. يُعينك في الشدائد ويشدّ أزرك.

الفرقة: شكراً للإله.

جلجامش: (تجمد حركة المشهد) إنت تكذب أيها الكاهن. في ذلك الوقت لم تقل هذا الكلام، إنما قلت شيئاً آخرَ.

الممثّل الرابع: يا سيّدي (يترك المشهد في الماضي ويقترب من جلجامش. مشهد الملكة يبقى مضاءً وجامداً).

جلجامش: أذكرُ أنك قلت شيئاً آخر. اذكره كما قلته.

الممثّل الأول: حقاً لقد قال شيئاً آخر.

الممثّلة الثالثة: نعم وحق الآلهة، قال شيئاً آخر.

جلجامش: إنك الآن تكشف ذاتك ويجب أن تكون صادقاً.

الفرقة: قل الحقيقة.

الممثّل الرابع: (يوافق. يتقدّم نحو مشهد الملكة في الماضي. تعود الحركة في المشهد المضاء. يقذف بالزار الكبير مرّات عدّة) لقد قلتُ يا

سيّدي. قلتُ (يقذف الزار) قلت يا سيّدي (يقذف الزار) بأنك ستكون بطلاً يسجد لك الناس، وأما ذلك الوحش، فتفسيره أنه يظهر في المدينة وحش يلتهم أهلها وكل ما فيها (يقذف الزار) لكنك أنت فقط تذهب إليه في مكانه. تصارعه حتى تقتله، وعندما تصبح بطلاً، يسجد لك أهل المدينة، فتشعّ بنورك وتضيء الظلام كالقمر.

الفرقة: جلجامش رأى رؤيا.
جلجامش زاره الإله
نفخ في روحه البركة
وسقاه عسلاً صافياً (يختفي مشهد الملكة. الكاهن يعود حيث جلجامش).

جلجامش: أكمل أيها الكاهن.

الممثّل الرابع: (إلى الفرقة) نحن بحاجة إلى ممثّل خائف ومرعوب.

الممثلة الثالثة: أنا مستعدّة.

الممثّل الرابع: (يغازلها بعد أن ينزع قناع الكاهن) أنت جميلة، وجمالك يدفعني إلى أن ألعب معك شيئاً آخر، ولا يمكن أن يتمّ هذا هنا، هيا اذهبي. إننا بحاجة إلى رجل وليس امرأة.
(ضحك من الفرقة).

الممثّل السابع: أنا مستعدّ. (يتقدّم ليمثّل بإشارة من الكاهن)

الممثّل الرابع: جرّب أن تكون خائفاً (الممثّل السابع يمثل الخوف بإشارة من الكاهن) ليس هكذا، فالإنسان الخائف لا يشعر بما يدور حوله. الرعب يحوّله إلى شيء آخر. قف هكذا واصرخ (يمثلان بصمت أولاً، ويضع قناع الكاهن) اصرخ خائفاً.

اصرخ مرعوباً. اصرخ. اصرخ. اصرخ. وحش. وحش.

الممثّل السابع: (بتردّد) وحش. وحش.

الممثّل الرابع: وحش في الغابة. وحش يقطع الطريق إلى الغابة. (هامساً) اصرخ بأعلى صوتك.

الممثّل السابع: (مردّداً) وحش في الغابة، رأيته بعيني. وحش يقطع الطريق إلى الغابة. له تسعة رؤوس. وفي كل لحظة ينمو له رأس جديد.

الممثّل الرابع: (يضحك) حسن. حسن جداً. إنك ذو خيال واسع يساوي خيال عشرة رجال (يلبس قناع الكاهن. يصرخ)... التهمَ القافلة.

الممثّل السابع: التهمَ القافلة وجميع رجالي. إنه غضب السماء. غضب الإله. يا إلهي يا قائد جياد العالم ارحمنا من غضبك.

(الفرقة تمثّل الرعب والخوف وتتحرّك في جميع أرجاء المسرح. صوت إغلاق أبواب ونوافذ. صخب. الفرقة تنزل إلى الصالة بين الجمهور. رعب ومن خلاله نسمع):

الممثّل الأول: أنقذنا يا مليكنا.

الممثّل الرابع: إنه غضب الإله.

الممثّلة الثالثة: ارحمنا أيها الملك.

الممثّل الثالث: أين أبطال المدينة؟ نحن نموت خوفاً.

الممثّل الأول: أنقذنا يا سيّدي.

الممثّل الثالث: أبعد الوحش عنّا.

الممثّل السادس: أيها الملك. إن الوحش على الأبواب يقطع طريق القوافل.

(المهرّج الثاني) (حركة عنيفة في الفرقة بعدما أصبحت على خشبة

المسرح).

جلجامش: (من مكانه. جمود في الخلفية... يقطع الحدث) وتعلم أن الناس يصدّقون الأحداث التي تُدخل الخوف والفزع في قلوبهم.

الممثّل الرابع: لا بدّ من ذلك سيّدي، لا بدّ (يعود سريعاً إلى الممثّل السابع بعد أن يضع قناع الكاهن) اصرخ. اصرخ. استجر بالملك (يستمرّ الصخب) أيها الملك أنقذنا.

الممثّل السابع: أنقذنا أيها الملك. إننا نموت رعباً.

الممثّل الثاني: (طبول. موسيقى. الملك مع الملكة يقفان في الخلفية على الشرفة. الملك مدرعاً بالأسلحة. الكاهن يبتعد عن الممثّل الثالث - الرجل) لا تخافوا يا أبنائي، سنلقي الوحش في نهر الفرات، كما ألقينا جميع الوحوش السابقة، فآلهتنا تنصرنا دائماً. (صمت) لكن أين أبطال هذه المدينة؟ لا أراهم الآن. أليس من أجل هذه المهمة نربّيهم ونطعمهم؟ أين همُ؟ أرسلوا أبطال مدينتنا لملاقاة الوحش في الغابة وقتله.

الممثّل الرابع: (إلى الملك) لقد أرسلنا جميع أبطالنا سيّدي، لكن الخوف أفقدهم الحركة وها هم مع الناس يتوسّدون بلاط المعبد.

الممثّل الثاني (الملك): خراب هي المدينة التي يخاف رجالها، ولعنة هم الرجال الذين لا يعون سبب مأساتهم. أرسلوا من هم أقوى وأشدّ بأساً (ظلام على الملك. يزداد الصخب)

الممثّل الثالث (الرجل): لقد حُرمنا الراحة، فالخوف سرق نومنا والجوع أهلكنا. الأسواق أقفلت بعدما تعطّلت تجارة المدينة، والناس يوصدون أبواب بيوتهم.

الممثّل الرابع: إنك شيطان وممثّل ملعون تؤدّي دورك على أحسن وجه. (يضع قناع الكاهن) هيا اصرخ بأعلى صوتك.

الممثّل الثالث: لقد أقفرت المدينة يا سيّدي الملك.

الممثّل الرابع: اصرخ. اصرخ.

الممثّل الثالث: (يبكي) ستخرب مدينتنا يا سيّدي.

الممثّل الرابع: اصرخ.

الممثّل الثالث: (الرجل) وتعطّلت التجارة.

الممثّل الرابع: اصرخ.

الممثّل الثالث: أبعد عنّا غلالة الطاعون يا سيّدي.

الممثّل الرابع: الطاعون... الطاعون؟ اللعنة عليك جعلتني أصدّق (فترة صمت... يمسك الرجل ويأخذه زاوية) من أين لك هذا الكلام؟ لماذا تكذب يا حرامي؟ أمثالك حشرات تعيش في كل زمان ومكان، وحيثما تكون العفونة والشرّ، يتحوّلون إلى حيوانات بشرية شرسة، عفنة سرعان ما تفقد إنسانيتها. يجب أن تموت يا ابن الملوّث. (يطعن الرجل من الخلف فيسقط بصمت. يقفز المهرّج الأول طائراً ويقترب من الكاهن. جلجامش يراقب الكاهن أثناء قتله الرجل). يا ابن الكاذب... حقاً إنه طاعون.

المهرّج الأول: هل أذهب يا سيّدي الكاهن لملاقاة الوحش؟ فأنا أستطيع خداعه.

الممثّل الرابع (الكاهن): عد إلى مكانك أيها الهزأة (يختفي المهرّج). إنه غضب السماء. انظروا كيف مزّق الوحش هذا الرجل المسكين. لا بدّ من أن يتقدّم بطل ينقذ المدينة، ويُدخل الهدوء إلى قلوب

أبنائها (إلى الجمهور) وإن لم يكن هذا البطل موجوداً يجب أن نخلقه. (يظهر الملك في الشرفة وقد ازدادت الأسلحة وعدد النياشين التي غطّت جسمه) يا سيّدي الملك لم يبقَ إلا البطل جلجامش. سيصبح بطل الأبطال بعد أن يهزم الوحش، لأنني أرى الغيب يرسم انتصاره.

الفرقة: جلجامش بطل الأبطال... جلجامش السور الحامي.

الممثّل الثاني: فليذهب ابننا جلجامش لإنقاذ شعبه.

(الملك) (يختفي الملك. جمود في الحركة. عودة إلى المشهد السابق)

جلجامش: إنك الوحيد الذي اكتشف حب المغامرة لدي.

الممثّل الرابع: (يخرج من مكان الفعل ويتقدّم إلى جلجامش) نعم يا مولاي لا
(الكاهن) بدّ. إذاً لا بدّ من أن تتهيّأ لملاقاة الوحش والانتصار عليه.

جلجامش: الانتصار عليه؟

الممثّل الرابع: نعم يا سيّدي فالطير يُنبئني بذلك، واسمك مكتوب في السماء،
(الكاهن) يشعّ كالنجم الساطع.

جلجامش: هم (صمت) أيها الكاهن كيف شكل هذا الوحش؟

الممثّل الرابع: الوحش نفسه الذي رأيته في حلمك، وأنا مطمئن لملاقاتك له.

جلجامش: وإذا رفضتُ؟

الممثّل الرابع: يجب أن تذهب كي تصبح بطلاً وتنقذ المدينة، فالحياة أيها
(الكاهن) الشاب مغامرة.

جلجامش: وأنت هل تأتي معي؟

الممثّل الرابع: كلا. سأبقى هنا لأعدّ طقوس انتصارك. ماذا قلتَ يا سيّدي؟

جلجامش: حسن. من أجل مدينتي أوافق على الذهاب لملاقاة المجهول.

الممثّل الرابع: إنك بطل أيها الشاب (يبتعد عنه) جلجامش البطل سينتصر

على الوحش.

الفرقة: جلجامش سينتصر على الوحش.

جلجامش: (إلى الجمهور) وعندما قبلتُ الذهاب عزم أنكيدو على مصاحبتي.

الممثّل الرابع: (منهاراً) إني أحبّها يا سيّدي.

جلجامش: وعندما ذهبنا، كان الرعب أسواراً تطوّق المدينة، وتعلّقت حياة الناس بانتصارنا على الوحش.

الممثّل الرابع: إني أحبّها يا سيّدي، وأثناء غيابكم فشلتُ في الاستحواذ على قلبها فملأني اليأس.

جلجامش: وكنت تأمل لدى دخولنا الغابة أن تلاقينا حيوانات مفترسة.

الممثّل الرابع: إن حبّي لها أفقدني العقل.

(تبدأ الرحلة التي تُمثَّل بمشاركة الفرقة، فالممثّلون يتحوّلون إلى أشجار ويخلقون جوّ الغابة بجمالها وظلامها وضبابها وهدوئها ويتوزّعون بين خشبة المسرح والصالة بحيث تتشكّل غابة كبيرة واسعة. هذا المقطع يُمثَّل ولا يُسرد).

الفرقة: وعندما دخلا الغابة

(تهبط من أعلى المسرح قطعة قماش شفّافة بحيث يرى الجمهور المشهد من خلالها).

جلجامش: أنكيدو وأنا (أنكيدو ينزل من مكانه ليشارك في المشهد).

الممثّل الثالث: كان الظلام مخيفاً والريح تصفر، وكنّا أشجاراً كأشباح (شجرة) نتمايل.

جلجامش: لم نرَ أثراً للوحش.

الفرقة: توغّلا في غابتنا.

جلجامش: وسرنا حذرَين متأهّبَين،
الليل يلفّنا،
فبتنا ليلتنا في عالم المفاجآت المخيفة.
الممثّل السادس: عندما كان الليل يلفظ أنفاسه الأخيرة
(شجرة) والفجر يصبغ غابتنا بلونه الرمادي
كان الهدوء يعمّ كل شيء.
هدوء لم أشعر به من قبل
هدوء أدخل السكينة إلى قلبي.
الفرقة: هدوء، هدوء، هدوء (الفرقة تمثّل الهدوء وصوت الفجر).
جلجامش: كنّا قد شارفنا على الجانب الآخر،
لكن التعب أنهكنا، فجلسنا نستريح
وغلبنا النعاس.
الممثّلة الأولى: بعدما حطّ طير النوم على أجفانهما.
(شجرة)
الفرقة: ناما نوماً عميقاً. عميقاً. عميقاً. عميقاً. (مؤثّرات صوتية للغابة).
الممثّل الخامس: على عشبنا الأخضر
(شجرة) وندى أرواحنا الدافئة يغطّيهما
ويبلّل أجفانهما، ناما نوماً عميقاً.
الفرقة: عميقاً. عميقاً. عميقاً. (تظهر الشمس بيد الممثّل السابع)
جلجامش: وعندما استيقظت.
الممثّل السابع: كنت أنا في كبد السماء.
(الشمس) أرسل نوري إلى المخلوقات.

جلجامش: نظرت فرأيت ذئباً هزيلاً
فرَّ هارباً عندما رآني. (يجري في المسرح)
رميته برمحي
أخطأته
ورجعت إلى أنكيدو فوجدته مستيقظاً.
وأخبرته بأنني قتلت الوحش
فهل كان حلماً، أسطورة أم واقعاً؟ لا أعرف.
عدنا على الطريق نفسها. (يسيران والغابة تسير معهما. وفجأة يختفي مشهد الغابة، كما ظهر، بعد أن يعود أنكيدو إلى مكانه... ثم إلى الكاهن) وعندما عدنا أردتَ أن تستمرّ في اللعبة حتّى نهايتها فجعلت مني بطلاً.

الممثّل الرابع (الكاهن): وأنت أيضاً قبلت اللعبة يا سيّدي، وها هي أشجار الغابة تشهد بذلك.

جلجامش: كان الشعور بالبطولة يُسكرني ويجعلني أفقد ذاتي.

الممثّل الرابع (الكاهن): كان لا بدّ من وجود هذا البطل المنقذ، وعندما عدتَ، ركعوا لك وتباركوا بنورك (يلاحق جلجامش) كنتُ أنا الخالق وأنتَ الأداة المنفّذة. كنتَ اللعبة فأصبحت أسطورة. قبلتَ اللعبة وكنتَ أحد أركانها.

جلجامش: نعم. لأن الكذب يحيطني في كل مكان. في القصر والشارع والمعبد. كنتُ لا أرى الحقيقة وإنما الوجه المزيّف والكاذب منها.

الممثّل الرابع: وأردتَ أن تكذبَ حتّى النهاية.

جلجامش: لقد صدّق الناس اللعبة.

الممثّل الرابع: (من دون قناع... إلى الجمهور) هو كذبَ أيضاً... تحت السياط ولدنا، وتحت السياط نموت. (يلبس القناع) إذاً تساوينا يا سيّدي. الكذب والخداع هما حياتنا. بهما فقط نتجرّع مرارة الحياة. استمرّ. استمرّ يا سيّدي.

جلجامش: كنّا متساويَين أيها الكاهن. كنتُ أنام على العشب البارد على ضفاف الفرات وأسرح ثاقباً هذه الأكذوبة. مفتّشاً عن بصيص من النور في داخلها، لكن ظلامها كان حالكاً.

الممثّل الرابع (الكاهن): كل شيء مظلم يا سيّدي، لكنك كنت تساعد الناس على العيش وسط الكذب. هذا السوط الذي لا يرحم، أليس كذلك؟

جلجامش: نعم أيها الكاهن، كنتُ، ولكني أردت أن أرفض كل شيء، الكذب وسلطتك، أردت أن أبدأ زمني.

الممثّل الرابع (الكاهن): (يصرخ كالمحقّق) كنتَ لاهثاً في اللعبة حتّى تتلذّذ بنشوة الانتصار التي خلقتُها أنا (يقترب من جلجامش خائفاً، وجلجامش ساهِم) هل نكفّ يا سيّدي؟

جلجامش: كلا، لنستمرّ. (الكاهن يؤشر للفرقة ضارباً على آلته الإيقاعية)

الفرقة: (تعلن) حكاية أنكيدو يسردها كاهن المعبد.

(يتغير المشهد. الكاهن يبتعد)

الممثّل الرابع (الكاهن): (يصرخ) الفئران في كل مكان.

(حركة غير عادية في الفرقة. الرعب. الخوف. الصخب)

الفرقة: الطاعون يغزو المدينة.

الممثّل الرابع: إنها لعنة الآلهة. الفئران تنتشر والناس يتساقطون.

الفرقة: الطاعون يغزو المدينة.

الممثّل الرابع: الجثث تملأ الوديان.

الفرقة: الطاعون يغزو المدينة.

الممثّلة الأولى: (تظهر في الشرفة بملابس النوم... إلى الكاهن) ماذا هناك
(الملكة) أيها الكاهن؟

الممثّل الرابع: الفئران تغزو المدينة يا سيّدتي. أين مولاي الملك؟

الممثّلة الأولى: فئران؟ يا إلهي (تركع خائفة).

الفرقة: الطاعون يغزو المدينة.

الممثّل الرابع: انظروا الفئران في كل مكان.

جلجامش: (يتنبه لأول مرّة) ماذا؟ فئران؟

الممثّل الرابع: (يقترب مهرولاً نحو جلجامش) أين أنت يا سيّدي؟ لقد بحثتُ
(الكاهن) عنك كثيراً.

جلجامش: ماذا تريد؟

الممثّل الرابع: إنها اللعنة يا سيّدي. الطاعون يغزو المدينة (صمت).

جلجامش: ماذا تقول؟

الممثّل الرابع: الطاعون يغزو المدينة يا سيّدي.
(الكاهن) (حركة، يتغيّر المشهد)

(موسيقى مناسبة. جلجامش راكعاً. يأتي الملك والملكة وبعض الأقنعة من أعضاء الفرقة الذين لا يرون المشهد الذي يدور أمامهم. الممثّل الأول (أنكيدو) يهبط حاملاً زهرة حمراء كبيرة من خلفية المسرح التي كان فيها كالطير المقتول. تختفي صورته في الخلفية تنزل شبكة من أعلى المسرح. الكاهن على شكل غجري غريب يمسك بدفّ كبير لينقر عليه، يُصاحبه رجال الدولة: أمين السرّ، المفكّر بلا رأس، الشاعر، كبير

الحرس، رئيس المحكمة، وهم يجرّون عربة الممثلين الجوّالة بهدوء والتي تقف عليها عشتار بشموخ إلهيّ. تهبط عشتار بملابس غجرية لاعتراض طريق أنكيدو. يتحرّك جلجامش والحبيبة نحوهما يستمرّ رقص تعبيريّ بينهما وتحاول عشتار خطف زهرة الحياة الحمراء التي يمسكها أنكيدو، يساعدها الكاهن. الحبيبة وجلجامش يحاولان دائماً حماية أنكيدو، وثلاثتهم يقاومون، وفي النهاية يعجز جلجامش. عشتار الغجرية تنتصر وتأخذ الزهرة الحمراء فيسقط أنكيدو صريعاً وكأنه أصيب بسهم ناري. الحبيبة تصرخ وتهرب. جلجامش ينهار ويعود إلى جلسته في بداية المشهد)

الفرقة: (تغنّي بهمس كورس النائحات أثناء هبوط أنكيدو)

لهفي عليك أنكيدو
طويل حزني أنكيدو
ثياب القشّ ألبسها
خبز الشوك آكله
وملح الأرض ألتهمه
لحاف الرمل ألتحفه
عميق حزني أنكيدو
عميق حزني أنكيدو
عميق حزني أنكيدو
(صمت)

جلجامش: (وهو يتعذّب) لتندبكَ المسالك التي سرناها
وعسى ألا يبطل النواح

عليك ليل نهار
فيرجع صدى البكاء في الأرجاء.
ليندبكَ الفرات الطاهر الذي
كنّا نُسقى منه.
يا صاحبي وخلّي.

هل وضعت طيبتك
على راحة يدك
وسرت مفتوناً في هذا
الزمان اللعين؟
لا تستسلم لهم (صمت).
يا أنكيدو يا خلّي
أيتها الزهرة النقية التي كنتُ أختزنها
للترويح عن عذاباتي.
يا صاحبي لم أكن أعلم أنهم
يسحقون الزهور
بل لم أكن أعلم أن الموت
قريب جداً هكذا.

(تجثم عشتار على جثّة أنكيدو ومن ثم تسحبها، وتضعها على الدكّة أمام جلجامش والملك والملكة، وبعض أعضاء الفرقة الذين لا يرون هذه الحركة. يصعد الكاهن وعشتار إلى العربة، يختفون في الظلام)

(جلجامش متابعاً) ذاك الذي شاطرني كل خطر قتلوا فيه

زهرة الحياة. حطّموا قلبي هؤلاء. لكني أعرف كيف أدخلهم الحظيرة. أما هذا فلن أغفر له أبداً. سأجعل من بحر روحي الهائجة نيراناً تحرقهم جميعاً. (يئنُّ)

الممثّل الثاني: أين الصنّاع ونحّاتو الأحجار الكريمة
(الملك) اصنعوا لأنكيدو تمثالاً
فهو الضحية الأولى.
سيبقى ابننا جلجامش مع جثّة صديقه
ليندبه حتّى يرق قلب الإله
ويكشف عن وجهه.

(يخرج الملك والملكة. طبول. يقوم أنكيدو ويتجه نحو خلفية المسرح، حتّى تظهر صورته في الخلفية كطير مصاب بسهم ناري. يتغيّر المشهد)

الممثّل الرابع (الكاهن): (يعود إلى مكانه السابق) هل أنت، هل أنت بخير يا سيّدي؟

جلجامش: (هامساً) ابتعد. اتركني، اتركني.

الممثّل الرابع: هل؟ هل؟

جلجامش: (مقاطعاً) اخرج اخرج من هنا.

الممثّل الرابع: (متردّداً) هل أذهب يا سيّدي؟ هل انتهينا من اللعبة؟ (يحاول الخروج)

جلجامش: أيها الكاهن، هل تعرف بأن أنكيدو لم يمت بالطاعون. بل أنت الذي جعلت منه شارة خوف كي يدوم الرعب في قلوب الناس.

الممثّل الرابع: كلا يا مولاي، إنه الطاعون.

جلجامش: نعم إنه طاعونك، وطاعون المعبد والقصر، فكل من لا يصدق

قوانينك يخيّم عليه ظلام القبر.

الممثّل الرابع: أنت تهذي يا سيّدي.

جلجامش: (يمسك الكاهن بعنف) الذي لا يؤمن بك، إما أن يكون مجنوناً تغلقون عليه أبواب حجرات المعبد وإما تربطونه بحجر كبير وتلقون به في الفرات.

الممثّل الرابع: إنك تؤلمني يا سيّدي.

جلجامش: الآن فقط شعرتَ بالألم.

الممثّل الرابع: نعم يا سيّدي، إنك تؤلمني.

جلجامش: ألم تشعر بالألم الذي يحيط بك؟

الممثّل الرابع: كلا أي ألم.

جلجامش: ينام معك؟

الممثّل الرابع: كلا.

جلجامش: يأكل جسدك؟

الممثّل الرابع: كلا.

جلجامش: ألم تسمع الصراخ؟

الممثّل الرابع: كلا. أي صراخ، أين؟

جلجامش: ألم ترَ هذه النيران؟

الممثّل الرابع: كلا.

جلجامش: ألم تفكّر لماذا يحزن الإنسان؟

الممثّل الرابع: كلا يا سيّدي.

جلجامش: لماذا أيها الكاهن؟

الممثّل الرابع: هذه هي الحياة، ونحن نعيشها مرّة واحدة وعلينا المحافظة عليها. إنك تؤلمني يا سيّدي.

جلجامش: (يتركه) اذهب وقل لسادتك، لقد بدأ زمني وزمن المدينة.

الممثّل الرابع: (يذهب وهو يترنّم) فئران. فئران ممتلئة بالشحم، وفي يوم الفيضان ستخرج من جحورها هاربة، لا تحميها حتّى أشجار النخيل الباسقة.

جلجامش: (صمت. يلتفت إلى الكاهن) حافظ على فئرانك في جحورها. (يختفي بين أعضاء الفرقة)

الممثّل الرابع (الكاهن): أيها الإله. لقد انخفضت كفّة الميزان في هذا الزمان وبدأت العواصف تهدّد عرين الأسد. (إلى الجمهور) أوقفوا نزيف الغضب في صدر جلجامش، لأنه يريد أن يتحدّى المدينة والإله ويغيّر القوانين ويدوس عليها، وسوف لن ينال هذا في حياته أبداً، أبداً.

(المهرّج الأول مسرعاً يعطي إشارة إلى صاحب الإنارة)

ظلام

الأغنية الثالثة
أغنية السبي كما ذكرت في الأساطير الحديثة

(ساحة أمام باب المعبد. الممثّلون منتشرون في أرجاء المسرح قلقين منتظرين. بعض الحرس على شكل دمى منتشرون بين الممثّلين. أقنعة معلّقة على الرماح)

الممثّلة الأولى: (إلى كبير الحرس) متى يخرج الملك من المعبد؟

الممثّل السابع: لا يعلم إلا الإله.

(كبير الحرس)

الممثّلة الأولى: والكاهن، ألا يعلم أيضاً؟

الممثّل السابع: بدلاً من هذه الأسئلة، قدّمي قربانك إلى الإله وصلّي.

(كبير الحرس) (تذهب)

الممثّلة الثالثة: أريد أن أدخل لتقديم هذا النذر.

الممثّل السابع: ممنوع الدخول. هاتي. الكاهن خولني بدلاً عنه لجمع النذور

(كبير الحرس) (يأخذ النذر) اذهبي وصلّي (تذهب). (إلى مجموعة من الرجال) لا تتجمّعوا هكذا، فالتجمّع محظور بأمر الملك والكاهن.

الممثّل الثاني: ولكننا ننتظر خروج الملك.

كبير الحرس: الجلوس هكذا ممنوع، والتجمّع هكذا ممنوع، والتكلم بهمس ممنوع ممنوع ممنوع. تفرّقوا أو تكلّموا بصوت عالٍ، هذه هي الأوامر.

الممثّلة الثالثة: (توزّع الخبز على الفرقة) الخبز مادّة الحياة الأولى. خذ الخبز، الخبز مادة الحياة (تتكرر هذه الجملة كلازمة).

الممثّل الأول: ثلاثة أيام بلياليها والملك لم يخرج من المعبد، وها نحن لا نعرف ماذا نفعل.

الممثّل الثاني: ثلاثة أيام لم أذق فيها غير الماء، ولم أعد أقوى على حمل الفأس وتقطيع الخشب.

الممثّل الثالث: نعم. الويلات حصان جامح يصهل بجنون أمام باب المدينة، لكن الإله هو العين الساهرة.

الممثّل الأول: وماذا ينتظر؟

الممثّل الثاني: اشش... ألا تخاف من أن يسمعوك؟

الممثّل الثالث: لا تتكلّم هكذا... ألا تخاف الإله؟

الممثّل الأول: (يهمس) أخافه، ولكن لماذا هو غاضب؟ ماذا فعلنا له؟

الممثّل الثاني: هذا صحيح، لمَ يطلب منّا فوق ما نحتمل؟ هه لمَ؟

الممثّل الأول: لمَ كلّ هذه الويلات؟

الممثّل الثالث: لا بدّ من وجود رجس في المدينة أغضب الإله.

الممثّل الثاني: ما هو؟

الممثّل الثالث: لا يعلم سوى الإله، ألا ترى هذه الشرور؟ فالجميع نسوا زيارة المعبد وتقديم القرابين.

الممثّل الأول: الفقراء يُلهيهم عن الذهاب إلى المعابد أنها لا تسدّ رمقهم. والفرات غاضب أيضاً، فالصيّادون يذهبون كل يوم مع الفجر وهم يعلمون بأنه لا يجود عليهم بشيء، يعودون وشباكهم خالية، إلا من القاذورات أو جثث ألقيت بعد تشويهها.

الممثّل الثالث: هذه هي شرور الإنسان.

الممثّل الثاني: أيّ شرور؟

الممثّل الثالث: اشش... سيسمعك الحرس.

المـمثّل الأول: أتقديمك خبزاً لأطفالك يعدّ شروراً، أين العدالة في هذا؟

كبير الحرس: عن أيّ عدالة تتكلّم؟

المـمثّل الأول: عن عدالة الإله، فهذه المصائب والشرور خُلقت من أجل أن يعلّمنا حكمته.

المـمثّل الثاني: (يشير إلى خارج المسرح) انظروا، فاليوم ليس كبقية الأيام. انظروا كيف تتلوّى؟

المـمثّل الأول: وكأنها تحمل جميع ويلات المدينة.

المـمثّل الثالث: إنها مرعوبة.

(تدخل الحبيبة مذعورة وهائجة)

المـمثّلة الثانية: (الحبيبة) أين أطفالي؟ أين رحلوا؟ لا أراهم بينكم. أقُتلوا في السبي، أم أنهم يتطهّرون بماء الفرات؟ (إلى المـمثّلة الأولى) أوه... أهذه أنت؟ لم أرك منذ زمن (تتأمّلها) تغيّرتِ! (تتلوّى متألمة) لماذا تتركين أطفالك في النهر يعبثون؟ سيغضب الفرات. ألا تخافين عليهم؟

أسمع الريح تنذر

فالموت إذاً على الضفاف

احموا أجسادكم (تفرد يديها)

فالريح قاسية، لكن ها هو رداء حبيبي،

لا تغضبوا هو حزن جميل.

تمتّعوا... تمتعوا

سأعود في موسم القطاف.

لا تودّعوني... أشكركم

فانا أعرف الطريق

وداعاً... وداعاً... وداعاً (تختفي)

الممثل الرابع: جنونها يزداد هذه الأيام.

الممثل الأول: لا يمكنها أن تنسى أنكيدو.

الممثل الثاني: ومن ينسى أول ضحية للطاعون.

الممثل الأول: (همس) لم يمت بل قُتل.

الممثل الثالث: من أخبرك بهذا؟

الممثل الأول: همسٌ يدور في المدينة.

المهرّج الأول: (نسمعه خارج المسرح) حان وقت الحصاد. (يدخل هو والمهرّج الثاني... يقفزان في الهواء ويبدآن التهريج، فتشيع البهجة بين أعضاء الفرقة) أيتها الرؤوس قد حان قطاف الثمار. تقدَّموا وقدِّموا.

الممثل الأول: ما وراءك؟

المهرّج الأول: ورائي الكاهن وأمامي الطاعون.

كبير الحرس: (ناهراً) لا تُعِد ذلك أيها الهزأة.

المهرّج الأول: (ينحني بمبالغة) لكبير الحرس أحني رأسي ليقطعه وقتما يشاء. (إلى الفرقة) تقدَّموا وقدِّموا. فسيِّدي كبير الحرس مخوَّل بأمر الكاهن، يمنحكم بركته، ويأخذ مالكم. بركة الإله تُباع بالنقود. هيّا تقدَّموا وقدِّموا... ما حصدتموه طوال العام. تقدَّموا تقدَّموا... وقدِّموا وقدِّموا.

(ضحك وصخب)

المهرّج الثاني: (إلى الممثّلة الأولى) هل ترغبين في أن تكوني صديقتي أيتها الجميلة؟ سأخدمك طوال حياتي، أكون حارسك. هل تكونين المرأة التي تحبّني؟ فقط عندما أموت تحزنين عليَّ وتبكين

موتي.ماذا تقولين؟

الممثّلة الأولى: حزني يكفيني، فاذهب يا صديقي، كثيرات هن النساء وكثيرون هم الأصدقاء.

المهرّج الثاني: كلا، هم غير موجودين. اسمعيني (تختفي المرأة) أين ذهبتِ؟ (فترة. إلى الممثّل الثاني) أنا بحاجة إلى صديق فهل تكون أنت؟

الممثّل الثاني: اذهب أيها الهزأة، لا أحتمل اللعب معك.

(المهرّج الثاني يكلّم بعضهم، الجميع يرفض)

المهرّج الثاني: أيها الناس، من يكون صديقي فأمنحه حياتي؟ (الجميع يضحك ساخراً)

الممثّلة الثالثة: (ساخرة) مقلب جديد.

الممثّل الثالث: إنه ملعون هذا المهرّج الصغير.

المهرّج الثاني: انظروا إني أملك نقوداً جمعتها بحياة الشقاء، سأعطيها لمن يبكيني بعد موتي (يدور ويتوسّل بين أعضاء الفرقة) من يكون صديقي؟ من يكون أخي؟ من... من؟ (ينثر نقوده، فتنشغل الفرقة بنهبها. ضحك، صخب، نسمع أنيناً حاداً للمهرّج)

كبير الحرس: كفى. هيا قدّموا نذوركم. وأنت ألا تقدّمين نذرك؟

الممثّلة الأولى: لم أجلب شيئاً.

كبير الحرس: (يحاصرها) إذاً قدّمي هذه القلادة.

الممثّلة الأولى: إنها هدية زوجي المتوفّى.

كبير الحرس: أتفضّلين زوجك على الإله.

الممثّلة الأولى: كلا، إنما لا أملك سواها.

كبير الحرس: هاتيها أيتها المرأة حتّى يباركك رب المعبد.

الممثّلة الأولى: لا، وليغفر لي الإله.

كبير الحرس: هاتيها والا أمرت بسجنك. (يسحبها من شعرها)

الممثّلة الأولى: إنها ذكرى لزوجي، اتركني أرجوك، أطفالي ينتظرون في البيت.

(يسيحبها ويختفيان)

المهرّج الأول: والآن تقدّموا واسمعوا هذه الحكاية، اسمعوها من البداية إلى النهاية.

من مات منّا رحل، نبت العشب على عينيه ويبس، تقدّموا واسمعوا هذه الحكاية.

الممثّل الرابع: (معلناً) حكاية الجيش الذي انتحر وسط ميدان الحرب.

(هذا المشهد يُجسّد بشكل متضخّم ملابسهم وأسلحتهم، ويُؤدّى إيمائياً من جميع الممثّلين الذين يتحوّلون إلى كهنة للمعبد من خلال تغيّر في ملابسهم واستخدامهم الأقنعة. إنهم يمثّلون الحرب والاستعدادات الأخرى، وبطريقة السلوموشن أحياناً. مشهد يثير السخرية والحزن ويُشعرنا بالحرب)

المهرّج الأول: في سالف الأيام

أيام كانت السماء منفصلة عن الأرض

في سالف الليالي،

عندما كانت الأرض منفصلة عن السماء

في تلك الأزمنة الغابرة

حيث كان العالم بحيرة ماء.

في الماضي من الزمان
وحاضر العصر والأوان،
كان يا ما كان، ملكٌ جميل الطلعة
لا يبخل يوماً بالخير.
يملك جيشاً عظيم الشأن مجهّزاً بالعدة الحربية.
يحكم مملكة واسعة الأرجاء
كثيرة الخيرات
على ضفّة نهرٍ سخيٌّ.
وفي الجانب الآخر
مملكة تتاخم مملكة ملكنا.
وفي أحد الأيام... اختصم الملكان،
غضبا وأعلنا الحرب.
قُرعت الطبول ونادى المنادي في الأسواق
والليل والنهار.

المهرّج الثاني: (يضرب على الطبل) أيها الناس
باسم الإله
والكاهن الكبير
والملك الجميل.
المعظَّم والمبجَّل وحامي الحماة
وصاحب الشارات،
والجالس على عرش الملوكيّة
في زمن الحرب والسلم
وزمن اللا حرب واللا سلم،

وزمن الاستنزاف واللا استنزاف.

يعلن مليكنا عن رغبته في محاربة الملك الذي يجاور مملكتنا.

(طبول)

المهرّج الأول: دعوهم إلى التسلّح

وساقوهم إلى الحرب

وفي الضفّة الأخرى

وجدوا جيش العدو قليل العدّة والعدد،

فرح مليكنا وابتهج.

كبير الحرس: أتقول مليكنا؟

المهرّج الأول: زلّ لساني فاعذروني أصدقائي.

تقابل الجيشان ودوّت طبول الحرب

وأُغلقت النوافذ والأبواب،

وتبادلوا تحية الحرب وطقوسها،

ثم زأر أحدهما على الآخر.

وهجم الجيشان وتداخل السلاح

جحيم في السماء

وجحيم في الأرض،

وجنود مليكنا يموتون بسلاحهم.

كبير الحرس: هو ليس مليكنا.

المهرّج الأول: ملك من ملوك الأرض... زل لساني فاعذروني.

كبير الحرس: وكيف انتهت المعركة؟

المهرّج الأول: الجند يموتون ويموتون

والملك مكتوف الأيدي ينظر.

المُمثّل الثاني: وماذا ينتظر؟

المهرّج الأول: رحمة الإله.

وعلى جنده يبكي دماً،

حتى اكتشف الجند أخيراً

بأن السلاح صُنع لقتل من يستخدمه.

أما المنسحبون فيقتلهم رفاقهم من الخلف

المُمثّل الرابع: كيف يحدث هذا! إنها خيانة؟

المُمثّل الثالث: والملك ماذا حلّ به؟

المهرّج الأول: ظلّ يبكي، ويبكي حتى ابيضّت عيناه من الحزن. والهزيمة موت للمهزوم. فأي موت وأي ذلّ وأي فشل وأي هزيمة تجعل الرأس ينحني دائماً

(يترنّم)

هزيمتي في حياتي

هزيمتي في مماتي.

المُمثّل الثاني: وكيف انتهت المعركة؟

المهرّج الأول: خسر الجند المعركة، وعاد بعضهم مثخنين بالجراح، فقدّموهم إلى المحكمة.

المُمثّلة الأولى: لماذا... ما ذنبهم؟

كبير الحرس: (وكأنه يلقي خطبة) في حربنا لا يعود الجندي إلا إذا كان منتصراً.

المُمثّلة الثالثة: لكن القانون لا يسمح بالانتصار.

كبير الحرس: القانون لا يسمح بالهزيمة أيضاً.

المُمثّلة الأولى: كيف هذا!؟

المهرّج الأول: الهزيمة تتحوّل إلى نصر عندما يريد الملك ذلك.

كبير الحرس: كفى تهريجًا، وقل ماذا فعلوا بالجنود، هل أعدموهم؟

المهرّج الأول: كلا.

الممثّل الأول: خنقوهم؟

المهرّج الأول: كلا.

الممثّل الثاني: ألقوهم في النهر؟

المهرّج الأول: كلا، فمن يعرف ماذا فعلوا بهم؟

الممثّل الثالث: ثقبوا أجسادهم بالحديد المحمّى؟

الممثّلة الأولى: رموهم في الأفران؟

الممثّلة الثالثة: أحرقوهم بالشمس؟

المهرّج الأول: كلا، من يعرف من؟

الممثّل الرابع: جلدوهم بالسياط؟

المهرّج الأول: كلا.

الممثّلة الأولى: علّقوهم حتّى ييبسوا؟

المهرّج الأول: كلا.

الممثّل الثالث: سلخوا جلودهم؟

المهرّج الأول: كلا.

الممثّل الثاني: قطّعوهم قطعاً صغيرة وألقوهم إلى الجوارح.

المهرّج الأول: كلا.

الممثّل الأول: أجلسوهم على الخوازيق.

المهرّج الأول: (يضحك فقط)

الممثّل الثالث: أنا كنت أفكّر بهذا، فلماذا سطوت على أفكاري؟

الممثّل الثاني: وأنا كنت أفكّر بهذا (إلى الممثّل الأول) إنك لصّ دنيء.

الممثّل الأول: أنت الدنيء. أنا فكّرت بهذا لأني أعرف عقاب هذه الحالات.

الممثّلة الأولى: أنا أيضاً فكّرت بهذا.

الممثّل الثاني: أنا الذي فكّرت أولاً، وأنتم جميعاً سرقتم أفكاري.

الممثّل الرابع: أنا فكّرت أولاً.

الممثّلة الثالثة: أنا أولاً.

الممثّل الثالث: بل إنها أفكاري، وأنتم جميعاً سرقتموها.

الممثّلة الثالثة: بل أنت السارق (تشتبك معه، المهرّج الأول ينسل ويخرج بحذر)

كبير الحرس: توقّفوا وإلا أخذتكم جميعاً إلى السجن، فأنا رجل القانون هنا. اصمتوا وسأشرح لكم الأمر. كلّكم وقعَ في الخطأ، فهم لم يعاقبوهم لا بالحديد المحمّى ولا بأدوات التعذيب التي ذكرتموها. فحكم القانون يفرض عليهم أن يُقتلوا بالأسلحة نفسها التي حاربوا بها كي يشعروا بأنهم في المعركة.

الممثّل الثاني: هذا حق.

الممثّل الأول: وما ذنبهم؟

كبير الحرس: لأن الجندي الشجاع لا يعود من أرض المعركة سالماً، وهؤلاء عندما عادوا خانوا واجبهم.

الممثّل الرابع: ولماذا يعطونهم أسلحة تقتلهم؟ (صمت، لا أحد يجيب)

الممثّلة الأولى: حسنٌ. لنسأل مضحك الملك. (فترة) أين هو؟

الممثّل الأول: لقد ذهب اللعين وتركنا نتخاصم (إلى المهرّج الثاني) أين ذهب شبيهك؟

المهرّج الثاني: ذهب ليهيّئ سخرية جديدة كي يسخر ملء شدقَيه عليكم. ألا تشعرون بالذي يحدث حولكم؟ (صمت، يدور بينهم) من

منكم يبكي موتي؟ من يحزن عليَّ؟ من يكون صديقي يبكيني بعد موتي (الجميع يضحك ساخراً منه، إلا الممثلة الأولى) هل تبكين موتي سيّدتي؟ فأقدّم لك ما تريدين، أصير الخادم والكلب الأمين.أحرسك وأذود عنك. أغنّي كالطير المذبوح (الجميع يسخر) أطرد عنك ذئاب البشر (لاهثاً) أسهر عليك ليل نهار (يسير على ركبتيه، الجميع يشيحون عنه ضاحكين) أتضحكون على مأساتكم؟ ألا ترون هذا الموت الأسود في كل مكان، هل عميتم؟ ألا ترون؟ (يبكي بحرقة ثم فجأة) لا بدّ من أن أستجدي رحمة الإله لينقذني. من يحبّني، من يبكيني؟ من يحزن عليّ بعد موتي (صوت بكائه يختفي).

الممثّل الثاني: اللعنة لقد ألهانا عن قضيتنا، هيا جميعاً لنبحث عن مضحك الملك ونسأله. (يتهيّأ الجميع للخروج)

كبير الحرس: لا تذهبوا، قفوا والا أمرنا بجلدكم. (يجمد الجميع في مكانه)

الممثّل الرابع: (يخلع ملابسه المسرحية، يتقدّم إلى الجمهور) بعد هذه الرحلة الطويلة في الماضي من الزمان، لا بدّ من أن نأخذ قسطاً من الراحة كي نستطيع مواصلة رحلتنا في الحاضر والمستقبل. انتهت الأغنية الثالثة. (إلى صاحب الإنارة) رجاء إظلام تدريجي. (إلى الجمهور) لتُنِرِ الشمس عَتَمة أرواحنا. (يختفي)

ظلام تدريجي

الأغنية الرابعة
فاصل مسرحي استثنائي

خطبة جلجامش

(كل شيء مختفٍ في الظلام، ما عدا أنكيدو يشعّ نوراً وهو معلّق)

جلجامش: (قلقاً يدور حول نفسه، ثم يتأمّل صورة أنكيدو طويلاً) الموت، الموت أي رقاد طويل هو، دون أحلام ودون يقظة. انظر يا أنكيدو كيف وضعتني صداقتك في قلب الحرّية. وما الإنسان من دون حرّية يا أنكيدو، ومن دون هذا الضوء المتناسق الذي نشعر به في أعماقنا؟ وكيف تسعني صداقتك، إذا لم أكن حراً؟ قل لي كيف يمكنني منحك هذا القلب كميثاق صداقة إذا لم يكن ملكي؟ إنك في الماضي أحببت الحرّية فوق كل شيء، ومن أجلها قتلوك. فيا أيتها الحرّية أوقدي لي نجومك كي أرى الطريق إليك واضحاً.

(يُضاء المسرح فنرى نهاية الأغنية الثالثة، والجميع جامدٌ، تظهر الحبيبة في مكان بارز على المسرح وعندما تتكلّم تعمّ الحياة فيتحوّل كل شيء إلى حركة وضجيج كما في نهاية المشهد السابق)

من مات منّا رحل

الحبيبة: اخضرَّ العشب على عينَيه
ويبس (تجمد حركتها)

جلجامش: (مشعّاً، هدوء في الفرقة، يلتفّ الجميع حوله) أيها التعساء، يا

من تعيشون في هذا الزمن الصعب، ستعرفون من المسؤول فقط عندما تعون أسباب محنتكم. فقد عشتم زمن الخداع والكذب. إنكم لا تحتاجون إلى أبطال ينقذونكم من وحش وهميّ يسكن خارج المدينة. بل من وحش يعيش بينكم ويبدّل وجوهه حسبما يشاء. لماذا انحنيتم؟ لماذا مرّغتم وجوهكم في التراب إذعاناً؟ لماذا أيها التعساء؟ فليختزن كل منكم غضب الفرات في روحه ويحيله نيراناً تحرق كل شيء.

الممثّل الأول: إذاً كانوا يخدعوننا دائماً.

الممثّلة الأولى: لن ينقذنا سواك، أنت ابن حامينا الملك.

جلجامش: أنتم فقط تنقذون أنفسكم، ومدينتكم ستبقى تعسة إذا لم تعرف كيف تمسك حرّيتها، وإذا كانت الهزيمة أمام الوحوش والطاعون هي مصيرهم فإنها ليست مصيركم. ففي زمن الاضطراب هذا يمكن أن تأتي مآسٍ ومحن جديدة. اذهبوا إلى المعبد والقصر واسألوا عن سبب تعاستكم، والذي لا يبدأ زمنه الآن سيكون مصيره مثل أنكيدو. أما أنا فقد بدأتُ زمني الجديد، فمتى يبدأ زمنك يا مدينتي؟

الممثّل الثالث: لقد تحوّل الهمس إلى حقيقة. حقاً كيف مات أنكيدو؟

الممثّل الثاني: من هم القتلة؟

جلجامش: إنهم يتنزّهون على آلامكم، أمسِكوا حصان حرّيتكم بقدرة ووعي، لأنكم لن تخسروا شيئاً. خراب هي المدينة التي تُنبت خوفاً، خراب هو الحقل الذي لا يُزرع نبتاً.

ظلام

الأغنية الخامسة

ابحثْ في الجذور عن زهور تنمو في أوان غير أوان الفصل

(إنارة توحي بالحلم الشفّاف. أيائل خضراء لها أجنحة. أقنعة مختلفة الأحجام يحرّكها الممثّلون. الملك (الممثّل الثاني) نائم في مكانه عارياً. يدخل المهرّج الثاني متلصصاً، يقترب من الملك، يبتعد خائفاً. يُضاء وجه جلجامش فقط. إنارة خفيفة على جسد الملك. تشعّ عربة الممثّلين الجوّالة وعليها رجال الدولة. قناع الكاهن واضح. ينهار المهرّج الثاني ويتمتم تعويذة. جلجامش يراقب كل شيء. تشيع رائحة البخور)

الممثّل الثاني: أيها الإله، احمِني وامنحني نورك. هل ستكشف وجهك (الملك) لهزأة مثلي؟ أنتظر نورك يا إلهي. (ينتحب ويتلوّى، يهبط رجال الدولة من العربة، الكاهن يسير بإيقاع بطيء كما في الكوابيس. المهرّج الثاني يراقب بجزع ومن دون خوف، وكأنه يراقب قدره. الكاهن يضرب المهرّج بفأس، ثم يضع الجثّة على العربة. الكاهن ورجال الدولة يدفعون العربة. يقوم الملك من نومه والأيائل ترقص حوله بشكل بطيء، ثم يزداد الإيقاع بشكل لا يطاق. الأيائل والأقنعة ترفع الملك العاري إلى الأعلى بحركة سلوموشن وهم يرددون: القربان، القربان، القربان)

الكاهن: (يبدأ بالترتيل بإيقاع خاص. تبقى كلمة القربان كخلفية)

ذاك الذي طعن الإله بالأمس

يجب أن يموت اليوم.

بطرفة عين يكتئب الإنسان

وفجأة يفرح.
تارة يغنّي
وسرعان ما ينتحب.
والناس بين الصبح والعشيّة يتبدّلون
إذا جاءوا هم كالخراف
وإن شبعوا مسكوا مصباحاً وسط الظهيرة.

الأيائل: ذاك الذي طعن الإله بالأمس
يجب أن يموت اليوم.
(تتبدّل الإنارة. الجميع يختفي فجأة، نرى فقط الملك وجلجامش والكاهن الذي يراقب الحدث)

الملك: (يلبس ملابسه، يصرخ) أين جلجامش؟

الكاهن: نطق الإله.

جلجامش: هأنذا.

الملك: أين غبتَ؟

جلجامش: حاضر في كل زمان وأرى ما تراه البصيرة.

الممثل الثاني: أي بصيرة؟ إنك لا ترى شيئاً. ما هذا الذي فعلته أمام
(الملك) الناس؟

جلجامش: لم أفعل شيئاً سوى ما يحفّزه العقل والضمير.

الملك: أي عقل هذا الذي يدعو إلى الاضطراب والفوضى؟

جلجامش: لقد قلتُ الحقيقة.

الملك: لن يعرف هذا إلا الإله، هو فقط القادر على قول الحقيقة.

جلجامش: الحقيقة ليست في المعبد ولا في القصر. بل هناك حيث الناس.
إنها جوهرة تشعّ كالفجر كل صباح، ومعها تشعّ حياتي.

الملك: أتقف ندّاً لي أيها العاق؟

جلجامش: إنك تقف ندّاً لنفسك يا أبي.

الممثّل الثاني: أتريد أن تعلّمني ما الذي يجب أن أفعله في مملكتي؟ إنك لا (الملك) تعي شيئاً، وليس هناك مكان آخر لقول الحقيقة سوى المعبد والقصر، من خلالهما يعرف الناس حجم حرّيتهم.

جلجامش: إذا كانت القوانين تقيّدهم كالسلاسل، فكيف يتعلّمون هذه الحرية؟

الممثّل الثاني: يجب ألا يتعلّموها، بل أن تُعطى لهم بمقدار ما تكون ثمة (الملك) ضرورة لها. من دون ذلك ستعمّ الفوضى التي تحيل كل شيء إلى خراب.

جلجامش: ومن دون الحرّية ستكون الفوضى سيّدة كل شيء، لهذا فإنها لا تُعطى بل تؤخذ.

الملك: إنك لم تفهم بعدُ يا بني قانون الحكم ومسؤوليته.

جلجامش: أمن الضروري أن يأكل الناس بعضهم بعضاً؟ من أجل أي شيء؟ من أجل أن يبقى فرد في القمّة يحكم ويأمر يكون جزاء الآخرين الشقاء وقطع الرؤوس؟ كيف تفسّر هذا؟

الملك: الحاكم لا يفسّر بل يُطاع، لا بدّ من وجود قائد ينظّم الحياة.

جلجامش: لن يحدث هذا أبداً ما دام هناك وجود لأدوات التعذيب وغسل الدماغ، وما دام الفرات يلفظ كل يوم إنساناً مربوطاً بصخرة كبيرة.

الملك: لكن الضرورة هي التي يجب أن تحكم من أجل أن يمتلك القانون ضرورته. هذه هي القاعدة.

جلجامش: والإنسان يمتلك ضرورته أيضاً، لأن القانون يزول ويتغيّر حسب

مشيئة الإنسان.

الممثّل الثاني: (الملك) وحقّ الآلهة إذا واصلت بثّ الفوضى وتحريض الناس على الاضطراب، فلن يغفر زمني لك هذا أبداً.

جلجامش: وإذا وقفتُ غير هذا الموقف فلن يغفر زمني لي أبداً.

الممثّل الثاني: (الملك) هل تريد أن تتحدّى النظام الذي بناه أجدادك. ما الذي دهاك؟ أتحارب مقدّسات العالم الذي تعيش فيه؟

جلجامش: بل أحارب نفسي وسط هذا العالم البائس. (صمت) كثيراً ما كنت أجلس على ضفاف الفرات، أصغي إلى ما يدور أمامي وحولي. كنت أودّ أن أعرف لماذا يشقى الإنسان، ولماذا يركع ذليلاً كالكلب؟ لماذا تصرخ الثكالى مذعورات؟ كل هذا كان يثقب رأسي كسهم ناري ويجعلني أمضي الليل أرقاً.

الملك: بنيَّ أصغي، هذا لعب بالنار سيحرقك لهيبه.

جلجامش: كل شي سينتهي ،فقط لحظة الألم ستطول.

الملك: اللعنة إنك لا تعي ما تقول.

جلجامش: كلا، بل الآن أعي كل شيء.

الملك: توقّف بنيَّ، توقّف جلجامش، توقّف.

جلجامش: (وهو يخرج) خراب هو الحقل الذي لا يُنبت زرعاً، خراب هو الحقل الذي لا يُنبت زرعاً. (يخرج)

الملك: (متألماً) توقّف ياجلجامش، إنك لا تعي حرّيتك، ستكون هي سبب موتك، ستكون الرمح الذي يثقب عينَيك. والصاعقة التي تحرقك، لأن قانون حرّيتك سيثير غضب الآلهة وينتهك حجابها. كلا، كلا يجب أن تتوقّف، يجب. (بألم) سيُهدر دمك، سيُهدر يا بني.

الكاهن: (يهمس لنفسه) سيُهدر.

(إنارة مفاجئة على عربة الممثّلين الجوّالة وفوقها الكاهن ورجال الدولة الآخرون)

الكاهن: كم أحببتكَ يا جلجامش. علّمتك الحياة وخلقتُ منك أسطورة، علّمتك كل شيء، وأنت الآن تهزأ بكل شيء، ما يجعل موازين العالم مضطربة. آه. ماذا تريد يا جلجامش، هل تريد جعل من الكهنة مهرّجين ومشعوذين يقفزون على الحبال؟ توقّف، توقّف. حزني عليك يا بني، حزني عليك جلجامش. ما زلت صغيراً، لكن ما تقوم به سيجعلك تعوف الحياة سريعاً. لهفي عليك جلجامش. حملتك على كتفيَّ صغيراً، وسأحملك عليهما جثّة نتنة، غير أني سأبكيك وأمنحك حبّي الأبدي. (ينتحب)

ظلام

الأغنية السادسة
أغنية الرفض

(بعض أعضاء الفرقة ورجال الدولة بأقنعتهم المختلفة وعدّتهم الحربية المتضخّمة، يخرّبون غرفة جلجامش، وكتبه وأشياءه الخاصة الأخرى. ينهبون ملابسه ويتقاسمونها في ما بينهم بصخب وحقد بحيث تتحوّل الغرفة خراباً. الكاهن على عربة الممثّلين الجوّالة يعطي أوامره. ورجال الدولة هم: كبير الحرس، أمين السرّ، التاجر، رئيس المحكمة، المفكّر بلا رأس والشاعر. وهذا كلّه يتمّ بالفحيح والهمس والسخرية وأحياناً نسمع الضحكات الداعرة العالية، ثم يصعدون العربة ويجمدون كالدمى. جلجامش في زاوية ينظر إليهم)

الممثّلة الأولى: اهرب أيها الظبي اهرب
(الملكة) فإذا حلّ الغضب
ليس هنالك قلب للرحمة
اهرب أيها الظبي.

الممثّلة الثانية: حبيبي لم يعد بين الأحياء، وبيته صار نهباً للرياح.
(الحبيبة) (يهدأ كل شيء، رجال الدولة ما زالوا يختصمون في اقتسام حاجيات جلجامش بصمت. وهذا كلّه يصبح خلفيّة لحوار الممثّل الرابع الذي يضع قناع الكاهن)

الممثّل الرابع: هذا ما يحدث مع ذلك الذي لا يصغي إلى قانون عصره،
(الكاهن) حتى وإن كان ابن ملك. فالحياة تتصدّع مرة واحدة كالمرآة عندما تسقط على صخرة صلدة، تتهشم ومن المستحيل رؤية ذواتنا فيها مرّة أخرى، وكذلك الخطأ؛ تلك الشبكة

اللعينة التي تجذب الإنسان إلى حبائلها دائماً (صمت ينظر حوله، يهمس) ها قد بدأ السلب والنهب ولن يتوقّف حتّى النهاية (يضحك ضحكة مكتومة هه هه هه، يهمس) لأن البشر مهووسون دائماً بالنهب (يختفي وسط الضجيج الذي يعلو من جديد)

رجال الدولة: (يعلنون) مشاهد مسرحية عن مطاردة الظبي وقتله.

الممثّلة الثانية: خذ خبز الحياة

(الحبيبة) خذ خضرة الحياة

حبيبي لم يعد بين الأحياء

وبيته صار نهباً للرياح.

(يختفي الجميع ما عدا الحبيبة والملكة وجلجامش)

الممثّلة الأولى: (مرتبكة) بنيَّ، إنها لعنة، لا بد من أن تطلب الغفران عن

(الملكة) هذا الذي فعلته، اذهب إلى الشارع وأعلن خطأ موقفك.

جلجامش: لا أستطيع يا أمّي، موقفي هو حياتي.

الملكة: إذاً اذهب إلى والدك الملك ليطلب بدلاً عنك رحمة المعبد.

جلجامش: تكفّنينني دائماً برداء الخذلان.

الممثّلة الأولى: بنيَّ اغفر لنفسك وحياتك، سيُهدر دمك. إنك لا تعي هذا،

(الملكة) اهرب يا بني، ارحل، لا بد من أن ترحل، فهذه الغابة مليئة بالوحوش، لا بد من أن تكون بعيداً فالجميع نطق بالكلمة التي تعذّب الروح وتحيل الجسد رماداً، اهرب.

جلجامش: كلا لن أرحل. ليس ثمة أرض غير أرضي، ولا هواء غير هذا الذي تنفّسته منذ الولادة.

الملكة: إنك تحيل حياتك جحيماً.

جلجامش: حياة القصر والمعبد التي تعيشينها هي الخراب والجحيم.

الملكة: أتجرؤ، كيف؟ هل نسيت من أنا؟

جلجامش: كلا لم أنسَ، أنت الملكة، ولم أنسَ أبداً أنكم جميعا اشتركتم بهذه اللعبة.

الملكة: إذاً أوقف نزيف غضبك.

جلجامش: (لنفسه) أوقف غضبي. ومن الذي سيحرقهم جميعاً.

الملكة: أخاف ألا ترى هذا في حياتك.

جلجامش: لكني سأراه بعد موتي.

الملكة: لا تنطق بالموت (تنوح، فتلتفّ حولها بعض فتيات القصر لمواساتها، فتتحوّل حركاتهن وأصواتهن إلى مناحة بابلية عراقية. مطاردة بحركة بطيئة يحاول الحرس فيها وهم بأسلحتهم الضخمة قطع الطريق أمام جلجامش بهدف قتله، لكن الممثّل الرابع - الكاهن ينقذه. وما سيأتي من حوار حتى نهاية المشهد يُصاحب المطاردة، وفي الختام يُفرد الكاهن جناحَيه لإنقاذه حتى يعطي لنفسه الحق في مطاردته هو بالذات. الجناحان نبتا إرادياً لتحقيق رغبة الكاهن بقتل جلجامش، ويستمرّ الكاهن بهذين الجناحَين حتى قتل جلجامش في النهاية)

الملكة: اهرب أيها الظبي
حتى لا تدع الغضب يحيلك رماداً.
اهرب، لكن تزوّد بعدّة السفر
وخبز الحياة والماء الزلال
فالصحارى قاسية.

اهرب، اهرب.
يا بنات القصر
هيئن للمسافر
وسادةً وخبزاً
وتمراً وكافوراً.
اهرب أيها الظبي.

الحبيبة: حبيبي لم يعد بين الأحياء
وبيته صار نهباً للرياح.

الملكة: هدوءاً كي لا تستثيروا
غضب المسافر وروحه القلقة
اهرب، أهرب
أيها الطفل الملكي الجميل.

الحبيبة: احموا أطفالكم... وأنفسكم.
غضب الفرات فمن سيردّه
سيلفّ الأم وطفلها في فضاء مريع
وسيحطم يانع الخضرة في حقول القصب
ويغري الحصاد إبّان نضجه
يمٌّ هائج
طوفان يطغى على الضفاف.
هل رأيتن حبيبي
هل سمعتن صوته؟
مهر جامح في البراري ولن يردّه أحد (صمت)
اسمعنه، ها هو ينادي

هو؟ أم أنها اللعنة في كل مكان؟
انظروا ألا ترين هذه الجبال النارية
بين السماء والأرض.
لكن الظباء خائفة
لأن حبيبي غائب.
من منا لا يرغب بالتمتّع بضوء القمر (تهمس)
إذاً لمَ هذه الرماح؟
لمَ هذا الضجيج؟
لمَ هذه القسّوة؟
(صمت)
سأجلب لك إكليل الزهر
هيّا يا صبايا خذن بركتي
كلّنا قساة غلاظ القلوب.

(الكاهن ينجح بحماية جلجامش ويتركه يهرب. يعلو الضجيج والنهب. الممثّلون يتحوّلون كلاباً شرسة وتعلو مناحة الملكة والفتيات)

ظلام

الأغنية السابعة
خطايا جلجامش تعرضها فرقة البيت المقدّس

(غرف شفّافة صغيرة موزّعة في الصالة وعلى خشبة المسرح. في كل غرفة واحدٌ من رجال الدولة، تصاحبه دمية مومس من مومسات عشتار المقدّسات لكن بعضهن من الرجال بكامل حركاتهم الأنثوية. ورجال الدولة هم: كبير الحرس، أمين السرّ، التاجر، رئيس المحكمة، المفكّر بلا رأس، والشاعر، بنياشينهم وأعلامهم وملابسهم وأقنعتهم التي توحي بشخصياتهم ووظائفهم بشكل مبالغ فيه. المومسات المقدسات يقمن بتدليك رجال الدولة كما في حمّام بخاري يصاحبه خوار حيوانيّ، لهاث، صراخ مخنوق يصدر منهم، يتعاملون غالباً مع مومساتهم باحترام مبالغ فيه. يتعطّرون وينثرون الزهور، ينبطحون على بطونهم بعهر ومن ثم يركعون لهن بتذلّل. الغرف مزهرة وجميلة، إنه الإغراء الذي يوحي بسعادة كاذبة تضفي على الماخور المقدّس شاعرية طقسية غريبة. تنتشر شارات عشتار المعروفة كجزء من الديكور. عشتار ذات الأبّهة والفخامة توحي كأنها مانيكان. كل شيء يعكس الزهو والرهبة والجمال المزيّف ويثير السخرية، وفي الوقت نفسه يوحي بجوّ المؤامرة المعدّ لها. يُقذَف جلجامش من هوّة في المسرح وكأنه في كابوس. الجميع يصمت ويتحوّل الضجيج إلى بانتوميم، وعندما تبدأ عشتار حوارها يقدّم رجال الدولة ومومساتهم استعراضاً للأجساد بحركات مخنّثة مبالغ فيها أمام عشتار. وجلجامش غير ملحوظ ومَلغ بتعمّد من رجال الدولة. الممثّلة الثانية والمهرّج الأول في مكان ما يشاهدان ما يدور بتلصص. الكاهن يقود كل شيء على المسرح)

الكاهن: (أثناء دخول جلجامش) ها هو الآن يدخل

الفردوس غير المقدّس،
في الغابة المدنّسة
ليمتثل أمام المحاكم المقامة
في بيت يتنافر فيه الظلام والنور،
ويلتقي المرأة المليئة بالأسرار
والخفية عن الفهم.
فيصوب أصحاب الدماء الباردة والضحك الغليظ،
عيونهم ليحترق
بلهيبها
وعندها يكون البدء
وتكون النهاية.

المـمثّلة الأولى: تعال يا جلجامش ادخل خيمتي.

(عشتار) انزع عنك رداء الغضب
إنه سيف لا يحميك.
(تعال وكن عريسي الذي اخترت.
سأعدُّ لك مركبات من حجر اللازورد والذهب،
عجلاتها من الزمرد.
وفي بيتنا ستجد شذى الأرز يعبق فيه إذا ما دخلته.
سينحني خضوعاً لك الملوك والحكّام والأمراء
ورجال الدولة.
فاترك كلّ شيء وتعال، ادخل خيمتي.
وها هن الفتيات المقدّسات تحت خدمتك

جلجامش: أنت الكلمة التي تعذّب الروح

والباب الذي لا يصدّ الريح
وحالما يدخل رجال القصر الممسوسون بيتك
يصابون بلعنة الرذيلة
فيتحوّلون إلى مخلوقات نتنة لم تلدها أمّهاتها.
(يتوقف الاستعراض)

الممثّلة الأولى (عشتار): هأنذا أودّ أن أحميك وأُبعد عنك اللعنة. فأنا القادرة على كل شيء، لأني الابتداء والكمال. لكني أشعر ببرودة وجودي ووحدتي القاتلة، فكن حبيبي الذي اخترت.

جلجامش: أعرف خداعك، فأنت الأفعى التي تحرم الإنسان الراحة.

الممثّلة الأولى (عشتار): أنا الباب الذي يصدّ الريح، يأتمر الجميع بأمري. بكل اكتمالي أتجلّى فأعطي الدفء لهؤلاء أصحاب الدماء الباردة. فمن أنت يا جلجامش؟ ما أنت إلا روح هائمة لا تعرف مستقراً. ما أنت إلا الظبي الذي أحدّد مصيره متى أشاء. وسترى الآن يا جلجامش خطاياك التي ستلاحقك في كل زمان ومكان.

(موسيقى إيقاعية مناسبة، يصعد إلى عربة الممثّلين رجالُ الدولة ويقفون وقفتهم الرسمية الجدّية المضحكة مقدّمين التحية لبعضهم. العربة محاطة بأسلحة لمختلف العصور وبعضها معلّق عليها)

جلجامش: (أثناء تحيّتهم) ها هم الذين يتحكّمون بمصير أنبل البشر.

الكاهن: (بحيادية) خطايا جلجامش تقدّمها فرقة البيت المقدّس.

(يبدأ حوار رجال الدولة بهمس متحشرج يشوبه الحقد وهستيريا القتل، ثم يرتفع حتى يغدو صراخاً، هم يتناقلون الأخبار وكأنها أسرار محرَّمة. يمكن للمخرج أن يضيف

خطايا أخرى بما يتناسب مع الحدث وزمنه)

الممثّل الأول: بغفلة من الزمن، ومن دون جميع مخلوقات الكون، سرق
(رئيس المحكمة) النار المقدّسة.

الممثّل السادس: وبهذا سنّ قانوناً جديداً للتمرّد والعصيان، مانحاً النار
(أمين السرّ) المقدّسة لأولئك الذين لا يستحقّونها (همس، تكرار بعض
الكلمات، سرق النار... النار... هل سرق النار المقدّسة؟)

الممثّل الثاني: (إلى المفكّر بلا رأس) إنه ساحر ومشعوذ ودجّال كبير يدّعي
(التاجر) المعرفة وينادي بدوراننا حول أنفسنا وحول الشمس.

الممثّل الخامس: (يحمل رأسه دائماً بين يديه) لقد أتاح للجهلة والسوقة
(المفكّر بلا رأس) التدخّل بقدسية العلم والفكر ولم يتّعظ من عدم إيمان
الناس بادّعاءات صاحبه الكافر الذي سبقه والذي أحرق
بالمحرقة. (همس: دوراننا حول أنفسنا، هل ندور حول
الشمس... الشمس؟ والأرض...)

الممثّل الرابع: (إلى كبير الحرس) ولم يكتفِ بهذا، فهو يدعو في الناس
(الكاهن) بأن كل ما نملكه سرقة.

الممثّل الثاني: سرقة؟ اللعنة، هل سرقتُ أموالي؟ (همس: سرقة، أموالي،
(التاجر) ممتلكات، سرقتُ، متى...)

الممثّل السادس: (إلى رئيس المحكمة، بسخرية) يبحث في الجذور عن ثمار
(أمين السرّ) لا تنبت في أوان الفصل.

الممثّل الأول: لا تنبت في أوان الفصل، كيف؟ عجيب، حقاً إنه مجنون
(رئيس المحكمة) (أصوات: مجنون، مجنون، مجنون)

الممثّل الخامس: (إلى التاجر) كان منبوذاً، أعمى لا يرى في ضوء الشمس،
(المفكّر بلا رأس) حتّى أنه حمل مصباحاً وسط الظهيرة، داعياً الناس إلى

البحث عمّا لا يُرى. (ضحك متواصل لرجال الدولة)

الممثّل الثاني: (التاجر) (مستمراً في الضحك) البحث عمّا لا يرى. بالتأكيد إنه أعمى بصيرة (أصوات: أعمى بصيرة... بصيرة... أعمى... بصيرة)

الممثّل السابع: (كبير الحرس) (إلى الكاهن) قتلَ مضحك الملك، أليس كذلك؟

الممثّل الرابع: الكاهن مضحك الملك؟ آه. مضحك. نعم إنه القاتل.

(أصوات تسري بينهم: قتل المضحك، قتل مضحك الملك... قتل...)

الممثّل السادس: (أمين السرّ) (ساخراً) وقال إن الوجود مرتبط بوعي الإنسان. ماذا تعني هذه الألغاز؟

الممثّل الخامس: (المفكّر بلا رأس) لأنه يفكّر... ها... آه يفكر! (يقلب باندهاش رأسه الذي يحمله).

أصوات: (بحقد وغضب وهستيريا) يُحجَر... نعم يُحجَر عليه في المستشفى... دجّال مشعوذ ساحر مجنون...

(رجال الدولة يجتمعون للتشاور، ومن ثم يُشهرون أسلحتهم المختلفة. في أثناء ذلك نسمع همساتٍ وفحيحاً وهمهماتٍ وحشرجاتٍ غير واضحة، ضحك مكتوم)

الممثّلة الأولى: (عشتار) ها هم يا جلجامش،ها هم الرجال الأشدّاء الذين سينطقون بالكلمة التي تعذّب الروح. إذاً تعال وادخل خيمتي المقدّسة لأن الحياة التي تبغي لن تجد. فحين خُلق الكون وخُلقت الحياة،أصبح لكل شيء قانونه، وكان الموت من نصيب الإنسان. فتعال خذ زهرة الحب.

جلجامش: أي خير سأناله لو دخلت خيمتك؟

(أنتِ؟ ما أنتِ إلا الموقد الذي تخمد ناره في البرد
أنتِ كالباب الخلفي لا يحفظ من ريح ولا عاصفة
أنتِ قصر يتحطم في داخله الأبطال
أنت قير يلوّث من يحمله
أنتِ نعل يقرص من ينتعله
أي من عشاقك من أحببته على الدوام؟)

الممثّلة الأولى (عشتار): يا عذارى مدينتي المقدّسات، لنوقف غضب جلجامش كي لا يرتكب الخطأ الذي لا يُغتفر. غنّين له، اغسلن جسده بالعطور الطيّبة وبأريج الأرز والبخور.

جلجامش: تعالي أقصّ عليك مآسيك وخداعك والخزي الذي سيلاحقك في كل حين.

(يتقدّم رجال الدولة، وكل منهم يحمل رأسه بين يدَيه وفي مقدّمتهم المفكّر بلا رأس. يقدّمون رؤوسهم تحت قدمَي عشتار ثم يمسخون أنفسهم عندما يلبس كل منهم قناعاً لحيوان وحشي ويدخلون غرفهم الشفّافة)

جلجامش: ما الذي فعلت بهؤلاء أصحاب الدماء الباردة والضحك الغليظ؟ حوّلتهم إلى أمساخ، ينسجون وهماً وزيفاً، ويصرخون في مواخير الرذيلة ليل نهار، لكن أصواتهم صارت كعواء الذئاب حين تعادي القمر. فإذا دخلت خيمتك فستجعلين مصيري مثل هؤلاء.

الممثّلة الأولى (عشتار): (إلى رجال الدولة) خذوه فهو لكم.

(تختفي عشتار فجأة. رجال الدولة الممسوخون يمزّقون

الغرف الشفّافة باحثين عن جلجامش. وفي النهاية يفرد الكاهن عباءته ليتيح فرصة الهرب لجلجامش والمهرّج الأول)

الممثّلة الثانية: حبيبي لم يعد بين الأحياء
(الحبيبة) وبيته صار نهباً للرياح.
هيا يا صبايا... خذن بركتي،
وأنتن يا حوريات البحار السبعة
لا تمزّقن أيديكن بسكاكين ذهب،
لا تصرخن... لدينا من النذور ما يكفي
والفرات يحرسنا.
هأنذا أوقد الشموع المزهرة...
واأسفاه حزين أنت وسط النخيل،
لا تخف إنه الندى يبلل الثغور،
ولا شيء... لا شيء غير هذا.
كثيرون ذهبوا
وكثيرون سيذهبون،
من المكان الذي أتينا إليه سنعود
(تقف جامدة تنظر الجمهور طويلاً)

ظلام

الأغنية الثامنة
العشاء السرّي

(صحراء موحشة خارج المدينة، عاصفة ترابية بالرغم من أن جميع الغرف الممزّقة موجودة كجزء من المشهد. صوت العاصفة. جلجامش الذي يقاوم العاصفة والكاهن الذي يتبعه، كل منهما لا يرى الآخر)

الممثّل الرابع: (الكاهن) (يبحث، صارخاً) هه، يا سيّدي جلجامش أين أنت؟ احذر يا بني إنها عاصفة لعينة.

الممثّلة الثانية: (الحبيبة) (في زاوية تتمايل مع العاصفة وتقود الفرقة المسرحية التي يتحوّل أعضاؤها إلى عميان في هذه الصحراء، الجميع يتمايل) مشتاقون، معذّبون بكم، هل ما زلتم من دون سقف، ما الذي فعلنا وما الذي تفعلون؟ أين أنتم أين اختفيتم؟ لمَ كل هذا الضباب؟ لمَ كل هذا العذاب؟ لمَ كل هذه الغشاوة؟

الممثّل الرابع: (الكاهن) (إلى الجمهور) تعساء هؤلاء الذين تعي قلوبهم الحقيقة بعد فوات الأوان. فغصن الشجرة عندما ينكسر كالجرح الذي لا يندمل، يظلّ متعفنا على مرّ الزمن. (باحثاً) هه، سيّدي جلجامش أين أنت، أين أنت يا سيّدي؟ احتمِ من العاصفة.

الممثّلة الثانية: (الحبيبة) أحقيقة هذا الذي يحدث؟ كيف أصبحتم بهذه القسّوة؟ لا أصدق، لا، لا أصدق.

الفرقة: مشتاقون... مشتاقون.

الممثّل الرابع: (الكاهن) لكن يجب أن نضع حدّاً لهذه المهزلة، هذه الوليمة السرّية، إنها شهقته الأخيرة التي ستتحوّل حشرجة مميتة، إذاً يجب

أن أجده (يصرخ) لا تختفِ يا سيّدي، إنك تهيم على وجهك بلا مأوى، أين أنت يا سيّدي؟

جلجامش: (بعدما مشيت
في طرقات الحياة
وطرقتُ أبواب هذا العالم
أأضع رأسي في باطن الأرض لأنام؟)

الكاهن: عد يا سيّدي، يا سيّدي جلجامش أين أنت؟

الممثّلة الثانية: مشتاقون. سيأتي الشتاء وأنتم بعيدون، فبماذا يحتمي (الحبيبة) الغريب في غربته؟

جلجامش: هل هذه الروح على يقين مما تختار؟ وإذا كان الإنسان يبغي النجوم البعيدة فهذا هدف أسمى وجليل، لكن من أين تأتي هذه القوة اللعينة التي تشدّه نحو الأرض لتُغرقه في المستنقعات العفنة ومن ثم تُرديه؟

الممثّل الرابع: (يبحث) يجب ألا تبتعد كثيراً يا سيّدي. هه... سيّدي (الكاهن) جلجامش؟

جلجامش: (أيها الموت، أيها القبطان القديم، لقد آن الأوان، لنرفع المرساة فهذا العالم يُضجرنا)

الكاهن: أين أنت يا سيّدي أين أنت؟

الحبيبة: مشتاقون لا تنسونا حتى لا نتحوّل إلى جذوع أشجار يابسة.

جلجامش: أيتها الإرادة، أيها الجمال، أيها الشعاع الذي يبزغ في داخلي، هأنذا أضع حياتي ثمناً من أجل أن يلامس النور ندى الروح فينقشع الظلام. ليت الذي يموت يرى ضياء الشمس.

الكاهن: (يرى جلجامش، لنفسه) والآن يا جلجامش عليك مواجهة

المصير الذي اخترت، يجب أن تنتهي هذه اللعبة حتّى يبتدئ الفعل (إلى جلجامش) سيّدي جلجامش... سيّدي.

جلجامش: ما الذي تبغيه أيها الكاهن؟ أعلم أنك تلاحقني منذ أن ولدت.

الممثّل الرابع: لا شيء لا شي يا سيّدي فقط أريد أن أكمل دوري حتى النهاية،
(الكاهن) فقد مللت ملاحقة نزواتك.

جلجامش: إنني تعب اتركني (يتكئ على سلّمين متقاطعَين كالصليب)

الممثّل الرابع: لأننا لعبنا كثيراً يا سيّدي، وقد حان وقت نزع هذه الأقنعة
(الكاهن) للوقوف عراة أمام مصيرنا، عليَّ الانتهاء من دوري هذا.

جلجامش: انتهى دورك منذ زمن بعيد يا زارعاً فيَّ تربة أرفضها الآن.

الممثّل الرابع: بل الآن بدأ. فلكل مرحلة في حياتي دور جديد، فأنا العراف
(الكاهن) والكاهن ومربّي أطفال الملك وزارع تربتي فيك، حملتك على كتفيَّ، وهدهدتك وأنت على فراش الأحلام، وغنّيت لك الأغاني الجميلة، وحكيت لك الحكايات التي كنت تودّ سماعها قبل أن تغفو. هل تذكر حكاية المزامير؟ كنت تحبّها كثيراً يا سيّدي.

جلجامش: قل ما الذي تبغي أيها الكاهن؟

الكاهن: أن أزيل عنك التعب وأُدخل السرور إلى قلبك.

جلجامش: أنت! هه... هه، لن تستطيع ذلك أبداً.

الكاهن: اسمع مزامير طفولتك وهي تطرق أبواب عالمك من جديد.

جلجامش: لن تعود، لأن طفولتي مرّت كالهواء بين الأصابع.

الممثّل الرابع: اسمع مزاميرك يا سيّدي، اسمعها فهي قدرك.
(الكاهن) (تُضاء إنارة على عربة الممثّلين وعليها رجال الدولة بمن فيهم عشتار وهم بملابسهم الرسمية يحملون مختلف الأسلحة، نسمع همس العاصفة) اسمع يا سيّدي:

هنالك في الجنوب مدينة
جميلة... جميلة
تستيقظ مع الفجر
لأن ناسها طيّبون
يحملون الزهور
وهم سعداء... سعداء
في مدينتهم الجميلة.
وفي أحد الأيام
سمع الناس فحيحاً كالصرير
صرير... صرير
يضجّ في السمع
عندها شاهدوا
طرقات المدينة
وقد امتلأت بالفئران
وهي تتكاثر وتكبر وتكبر
تلتهم كل شيء

رئيس المحكمة: كل شيء؟!
أمين السرّ: الطعام.
التاجر: والأبواب والنوافذ.
المفكّر بلا رأس: والأطفال الرضّع.
الكاهن: والبشر الضعاف.
كبير الحرس: والمجانين.
المفكر بلا رأس: والمثقفون الكسالى.

عشتار: حتى بدأت تنتفخ، تكبر وتكبر.

التاجر: وتأكل كل شيء.

الكاهن: حتى امتنع الناس عن العمل ومعايشة الحياة، وحُرموا النوم في ليل النجوم الجميلة، في مدينة الشمس.

(يتلصّص رجال الدولة على جلجامش بمن فيهم الكاهن المستمرّ في سرد حكايته، فيتحوّل المشهد إلى مصيدة للغدر بجلجامش. يتوزّع رجال الدولة، يختفون ويظهرون في زوايا المسرح والإنارة تمنحهم غرابة تؤكّد أدوارهم، وهسيس العاصفة لم يزل)

ومع الفجر الندي

هبط شاب بطلعته الجميلة

من الجبال حاملا مزماره.

هبط في المدينة التي لا تغرب عنها الشمس.

(إلى جلجامش) يجب أن تموت يا سيّدي

لأن مدينتنا لا تتحمل أبطال ملاحم. (يبكي)

(يعود إلى الحكاية ورجال الدولة ما زالوا في محاولتهم لمحاصرة جلجامش)

وقف الشاب الجميل وسط المدينة

يعزف بالمزمار لحناً جميلاً

فتجمّعت حوله الفئران تستمع وتستمتع

وتكبر وتتكاثر.

وسار العازف نحو البحر

والفئران تصاحبه وتصغي إلى لحنه الجميل.

وعند شاطئ البحر
عند الشاطئ...
(إلى جلجامش) يجب أن تموت يا سيّدي
فالحكاية عندما تبدأ لا بدّ من أن تنتهي
يجب أن تموت.
(يعود إلى سرد الحكاية) وعند شاطئ البحر التفت الشاب الجميل الطلعة إلى الوراء وفكر
هل يعود إلى وسط المدينة والفئران تتبعه
أم يدخل معها إلى البحر وينقذ المدينة؟
وفي النهاية قرّر
وسار الشاب الجميل الطلعة
سار على سطح الماء
يعزف بمزماره وخلفه الفئران
تصغي وتستمتع إلى لحنه الجميل
حتّى دخلوا جميعاً في موجات البحر العاصفة.
ثم بدأ السكون يعمّ كل شيء
هدوءاً... هدوءاً... هدوءاً...
(إلى جلجامش وهو يبكي) يجب أن تموت يا سيّدي
فمثلك بطل ملعون يحمل صليبه كشاهد عصر
(رجال الدولة يحاصرون جلجامش، والكاهن يطعنه بالرمح الطعنة القاتلة. تهدأ العاصفة. صمت. رجال الدولة يعلّقون جلجامش على خلفيّة المسرح برماحهم ويصعد بعضهم إلى العربة وآخرون يدفعونها وبصمت يخرجون كأنهم أنجزوا مهمّة صعبة.

الحبيبة تحتضن جلجامش كما المسيح)

جلجامش: (وهو يموت) ليتني أستقبل الموت دون حزن ودون رهبة

كما تستقبل الشجرة العاصفة

دون أوراق ودون صراخ

هأنذا أتلاشى وأغيب

أنا الشجرة التي لا تملّ الثمار

أنا المصير الذي ينتظر الكثير من البشر.

أنا الشاهد الملعون

لكن قلبي جوهرة خضراء

لذا سأعود كما كنت

فيولد البطل مرّة أخرى

وتولد المأساة من جديد (يموت)

(الكاهن يخلع جناحَيه ويرتفع صوت بكائه. الممثّلون يتقدّمون إلى جلجامش في محاولة لإنزاله، يجمد المشهد ويتحوّل الجميع دُمىً)

ظلام

بغداد - صوفيا 1980

الطقس الرابع

النزهات الخيالية

(جحيم الفيلسوف سورن كيركغارد)

الحقيقة هي أن تعيش الحياة من أجل فكرة

سـورن كـيركـغـارد

الشخصيات

سورن كيركفارد الصغير
الفيلسوف سورن كيركفارد
فولهولم
الصحافي (بيدره لودفيج موللر)
القسّ
ريجينا أولسن
الأب يمثّل أيضاً دورَي بول مارتن موللر والمطران منستر
العرّافة الخضراء
العرّافة الأولى
العرّافة الثانية

الطقوس

1- العاصفة

الطقس الأول: عرّافة خضراء متلفلفة تفتح باب الجحيم وسط العاصفة
الطقس الثاني: النزهات الخيالية
الطقس الثالث: صمت الموت
الطقس الرابع: العرّافات
الطقس الخامس: مرايا الضياع اللازوردي

2- الحب البائس

الطقس السادس: الحب يستر كثرة الخطايا

الطقس السابع: الليل الأبدي

الطقس الثامن: أسرار الجسد

الطقس التاسع: كل أزهار قلبي باردة كالثلج

3- الجحيم

الطقس العاشر: المرّافات

الطقس الحادي عشر: زهرة الآلام ستتفتّح عندما نقول الحقيقة

4- الرقص في دوّامة الأبدية Dance in the whirlpool of infinity

الطقس الثاني عشر: حلم في مرآة الروح (أمام الباب المقدّس)

الطقس الثالث عشر: المرّافات

الطقس الرابع عشر: الدروب الضيّقة

1- العاصفة

الطقس الأول

عرّافة خضراء متلفلفة تفتح باب الجحيم وسط العاصفة

(من عمق المسرح يتقدّم سورن كيركغارد الصغير باتجاه الجمهور حاملاً شمعة فيبدو الممثّلون كأنهم ظلال على المسرح، وفي زاوية يجلس الفيلسوف سورن كيركغارد في العشرينيات من عمره أمام شمعة أخرى كبيرة يراقب ما يدور. العرّافة الخضراء واقفة ملتفتة نصف التفاته إلى الجمهور)

العرّافة الخضراء: نصف طفل يلهو

يحمل في قلبه نصف إله.

العرّافتان: نصف طفل يلهو

يحمل في قلبه نصف إله.

(يُقذف بالون من أعلى المسرح يضيء المكان بحدّة تصاحبه موسيقى مناسبة. سورن الصغير يمسك البالون ويتقاذفه في الفضاء. جميع الممثّلين يراقبونه وهو يتقدّم إلى وسط الجمهور ويسير بينهم حتى يختفي من باب القاعة)

العرّافتان: نصف طفل يلهو

يحمل في قلبه نصف إله.

لحظات موسيقية

الطقس الثاني

النزهات الخيالية

(غرفة من النايلون الشفّاف في وسط المسرح، يجلس الأب في داخلها مرتبكاً على كرسي هزّاز. الرجال الثلاثة: فولهولم والصحافي والقسّ، في زاوية ما يتلصصون عليه. سورن الصغير يهمّ بالدخول في الغرفة متردّداً. وكلما تقدّم المشهد تضيق جدران الغرفة الشفّافة على من في داخلها حتى يشعر بالاختناق. ما زال سورن كيركفارد في مكانه يراقب كل شيء)

العرّافة الخضراء: كان يا ما كان أب وابن، كان الابن أشبه بالمرآة التي يرى الأب نفسه فيها، في حين كان الأب بالنسبة إلى الابن هو المرآة التي يرى فيها ما سوف يكون عليه في المستقبل. اكتشف الأب أحاسيس الابن الملتهبة. والابن فهم مشاعر الأب تدريجاً أيضاً. كل منهما اكتشف نفسه وتعرّف إليها من خلال الآخر. وكثيراً ما صمت الاثنان طويلاً. لكن الحوار الحي كان هو التسلية الوحيدة لهما في هذه النزهات الخيالية التي يقومان بها وهما داخل الغرفة. مرّات كثيرة وقف الأب أمام ابنه مرتبكاً ووجهه يمتلئ حزناً.

(تضاء الغرفة الشفّافة من داخلها. سورن الصغير يسير حذراً أمامها)

الأب: (يتمتم) يا إلهي افتحْ مصادر عيني، واجعلْ سيل الدموع ينهمر ليغسل حياتي الماضية التي لم تكن فاضلة أمام وجهك.

(الرجال الثلاثة يتلصصون على الأب، يهمسون بأصوات غريبة)

الأب: (يرى سورن الصغير) يجب أن أساعده حتى يظلّ طاهراً.

سورن الصغير: أبي أتسمح لي أن ألعب في الشارع؟

الأب: (مستثاراً) كلا، كلا (صمت).

سورن الصغير: لماذا؟

الأب: يجب أن تظلّ طاهراً ونقياً دائماً. ابتعدْ عنهم.
(صمت)

سورن الصغير: ماذا سأفعل الآن إذاً؟

الأب: لنذهب للنزهة (ينظر إلى ساعته) الساعة الآن هي الرابعة، تعال ادخل لنتنزّه معاً. (سورن الصغير ينظر إلى سورن كيركغارد ثم يدخل إلى أبيه في الغرفة الشفّافة، الأب يتهيّأ للنزهة بارتداء معطفه الخريفي. يمسك ابنه وينظر في عينَيه) ثمة خطايا لا يستطيع الإنسان النجاة منها إلا بعون الله. (سورن الصغير ينظر إلى أبيه وإلى سورن كيركغارد، الأب يبحث عن مظلّته) هيا لنبدأ النزهة، في المرّة السابقة أين تنزّهنا؟

سورن الصغير: على رصيف الميناء، فشاهدنا البواخر وقوارب صيّادي السمك؟

الأب: واليوم أين تريد أن نذهب؟

سورن الصغير: إلى... إلى قلعة، أوه كلا.

الأب: هل تريد الذهاب إلى...

سورن الصغير: (يقاطعه) لنذهب إلى الحديقة الكبيرة في فردريكسبيرك، لأرى البط في البحيرة؟

الأب: هيّا لنذهب.

(موسيقى مناسبة، يتجوّلان في الغرفة الشفافة ويمثّلان كل شيء يقولانه ويجسّدانه بشكل كامل وكأنهما يتنزّهان في

الخارج. سورن الصغير مستثاراً ومتلهفاً ومتخيّلاً كل شيء حتى أنه أحياناً يتعب من النزهة، لكن الشوق واللهفة يغمران روحه وملامحه)

الأب: نحن الآن في النزهة، نتمشّى في الشارع العام (صوت ضوضاء الشارع)، راقبْ كل شيء وتعلَّمْ فقط من الأعمال الخيّرة (لحظة) انتبه. هناك عربة مسرعة ستمرّ أمامنا. هل أنت معي؟

سورن الصغير: نعم يا أبي.

الأب: انظر كم هو جميل هذا الحصان الذي يجرّها. (نسمع صوت حوافر الخيل تبتعد) قل لي ما هذا الذي نسمعه في البعيد؟

سورن الصغير: أغنية.

الأب: الأب: ما نسمعه ليس غناء، إنه موسيقى. هناك عازف يعزف القيثار وليس مغنّياً، الموسيقى يا بني تربّي الإنسان على فعل الخير (يصفي) وخاصة الموسيقى الدينية حيث تُشعرك بقربك من الله... انتبه إلى ما أقول.

سورن الصغير: منتبه.

الأب: (يسيران) تمتّع بهذا الجوّ الجميل فالشمس تمنح الإنسان الحيوية. انظرْ هناك، صاحب العربة يمشّط شعر حصانه، وتلك الفتاة الصغيرة في الجهة الأخرى تقذف بالماء الوسخ إلى الشارع، لا تفعلْ مثلها أبداً.

سورن الصغير: نعم يا أبي.

الأب: هل تشعر بدفء الشمس وهي تسطع بحرارة ونوافذ البيوت مفتوحة لاستقبالها.

سورن الصغير: نعم

الأب: (نسمع صوت ضوضاء الشارع من جديد) أتسمع ضجيج المارّة وصوت الباعة في سوق الأحد هناك؟

سورن الصغير: نعم يا أبي.

الأب: هل ترغب أن نذهب إلى هناك؟ (فجأة) انتبهْ لا تضعْ قدمك في الوحل (يرفع قبّعته محيياً) نهارك سعيد يا سيّد كولن. (يهمس إلى سورن) إنه مدير المسرح الملكي. هل تريد أن تشاهد المسرح في يوم ما؟

سورن الصغير: ماذا يفعلون هناك؟

الأب: في المسرح يشخّصون قصصاً من الحياة، وأخرى خيالية أمام الناس، مثل هذا الجمهور الجالس لمشاهدتنا.

سورن الصغير: ولماذا يفعلون هذا؟

الأب: كي يتمتّعوا بما يشاهدونه ويتعلّموا منه. في المسرح يمكن للإنسان أن يشاهد تاريخ قرن كامل بساعة واحدة، أو يشاهد أبطالاً يتخاصمون، وقصص حب، وأخرى دينية، ومهرّجين يثيرون الضحك والفكاهة، وشرطةً وملوكاً وفقراء وفلاحين وعمّالاً ومنافقين ودجّالين، وحروباً وطغاة وقدّيسين وخطاة، وكل شيء، كل شيء كما الحياة، بل أفضل منها أحياناً.

سورن الصغير: (فرحاً) أريد أن أشاهد هذا كلّه.

الأب: بالتأكيد سنذهب يوماً ما. (صمت) هل أنت جائع؟ في هذا المحل توجد حلويات لذيذة، هل تريد أن تأكل شيئاً منها؟

سورن الصغير: كلا.

الأب: (يمرّ شخص وهميّ) نهارك سعيد، كيف صحّتك؟ (ينحني،

همس إلى سورن) إنها السيدة يورغنسن والدة السيد بيتر صديقي؛ أشهر ساعاتي في كوبنهاكن، هيا لندخل الحديقة من هذا الباب الخلفي.

سورن الصغير: نسيت المكتبة يا أبي لم تذكرها لي كما في المرّة السابقة عندما تنزّهنا. في شارع الملك هناك مكتبة مليئة بالكتب الجميلة.

الأب: حقاً لقد نسيتها.

سورن الصغير: لنذهب إلى هناك أريد أن أشاهد المجلات.

الأب: لكن اليوم هو السبت. لا بأس سنشاهدها من الواجهة، هيّا. الكتاب ضروري للإنسان. هل تسمع؟

سورن الصغير: نعم أسمع.

الأب: وخصوصاً الكتب الدينية.

سورن الصغير: لماذا؟

الأب: اسمع، الكتاب المقدّس مثلاً يحدّثك عن حياة المسيح المدّمى، المسيح الذي ضحّى بحياته من أجل البشر، المسيح الذي أهانوه وبصقوا في وجهه واتهموه بالزور وصلبوه، وها نحن نحمل وزر هذه الخطايا، نعم كل منا يحمل جزءاً منها. هل تسمعني؟

سورن الصغير: نعم يا أبي.

الأب: ها هي المكتبة (يتوقّفان ويحدّقان في واجهة المكتبة الوهمية) انظرْ هنا، هذا كتاب مهم إنه كتاب العِبَر، يجب أن تقرأه في المستقبل.

سورن الصغير: هل هو حكاية؟

الأب: كلا، إنه دروس أخلاقية جمعها الأسقف باله. غداً سأشتريه

لك.

سورن الصغير: لي؟

الأب: نعم، وعندما تكبر وتقرأه سيعلّمك أهمية الواجب.

(الغرفة الشفّافة تضيق عليهما بعض الشيء وفولهولم والصحافي والقسّ هم الذين يقومون بذلك بسخرية واضحة، نسمع الضوضاء مرّة أخرى)

سورن الصغير: الضوضاء عالية هنا.

الأب: ماذا تقول؟ الضوضاء عالية هنا؟ أتريد أن نعود إلى البيت؟

سورن الصغير: كلا.

(يسيران بصمت، فجأة يقف الأب باحترام مبالغ فيه، نسمع كورال كنائسي ممزوجاً بوقوف عربة خيل)

سورن الصغير: لماذا تقف هكذا يا أبي؟

الأب: (يهمس) اصمت وانتظر؟ (ينحني بخشوع) نهارك سعيد يا سيّدي المطران (صمت) كيف حالكم (صمت) نعم إنه ابني الصغير سورن آبي، آخر من عمّدته، نعم الحمد لله لقد كبر بسرعة (صمت) شكراً لاهتمامك. لكني في هذه الأيام أحلم كثيراً بالمرحومة زوجتي الأولى، ليحفظنا الله ويُسكنها فسيح جنّاته. (صمت) صدقت، إنها كوابيس غريبة. أودّ الحديث معكم، هل يمكن أن أراكم غداً بعد الموعظة؟ (صمت، يستمع) شكراً... شكراً، وليحفظكم الله. (ينحني، صوت العربة والكورال يتلاشيان تدريجاً)

سورن الصغير: من هذا يا أبي؟

الأب: المطران منستر كبير الأساقفة، يحبّه الناس ويحترمونه لأنه

واعظ لا مثيل له، غداً سنلتقي به في الكنيسة. هيّا فلندخل الحديقة. (صمت) انظر إلى هذا البساط الجميل من الزهور، إن الطبيعة متناسقة بحكمة الرب، ومشاهدتها تُدخل الهدوء إلى روح الإنسان القلقة. ماذا تريد أن تكون عندما تكبر؟ هل تريد أن تكون قسّاً؟

سورن الصغير: لا أعرف.

الأب: ما تحتاج إليه يا بني هو أن تعرف نفسك. أن تعرف ما يريده الله منك كي تفعله. (يحتضن وجهه) يا طفلي المسكين.

سورن الصغير: لماذا يا أبي؟

الأب: ثمة خطايا لا تُمحى إلا بقوّة عظيمة، لذا يجب أن تكون منذوراً للرب فتخدمه.

سورن الصغير: لماذا؟

الأب: كي تتحاشى انتقامه.

(يضيق جدار الغرفة عليهما، الأب يلاحظ ذلك)

سورن الصغير: لماذا ينتقم؟ ألأننا أغنياء؟

الأب: كلا، الله لا ينتقم بالثروة، لأنه مانحها، إنما ينتقم منّي ويعاقبني بكم. إنه يريد دمكم، دم أبنائي.

(تضيق الغرفة)

سورن الصغير: لماذا ما الذي فعلنا؟

الأب: (صمت)

سورن الصغير: لماذا يا أبي؟

الأب: (يتمتم بشكل قلق وخائف) في بداية حياتي عندما كنت شاباً فقيراً أعيش في جزيرة يولاند، كفرتُ بالله وانتقلت إلى

كوبنهاكن لأعمل مع خالي نيلس أندرسن في تجارة الملابس، حتى أتخلّص من فقري. وبعدها انفردت بالعمل لحسابي الخاص فازدادت ثروتي كثيراً. لماذا؟ لا أعرف، ازداد قلقي. فبدلاً من أن ينتقم الرب منّي على خطيئتي لنكراني له، كان جوابه بأن منحني الثروة، لم أستطع تفسير هذا اللغز آنذاك. لكن القلق والخوف والكآبة وتلك الظنون السوداء كانت تلحّ عليّ بأن هذه الثروة لا بدّ من أن تتحوّل إلى لعنة. فعندما يُغريني الرب بازدياد ثروتي دائماً، هذا يعني بأن عقابه مؤجّل الآن حتى يأتي اليوم الذي ينتقم فيه. سينتقم منّي في يوم ما، ولا بدّ من أن تحلّ نقمته على أسرتي. وحتى لا يتحقّق هذا تركت التجارة وتقاعدت، بالرغم من أنني كنت ناجحاً، وفي منتصف حياتي العملية. لكن اللغز أصبح أكثر غموضاً حينما ولدتَ أنت في العام 1913، عام الأزمة المالية المجنون. أعلن الجميع إفلاسه، لكني ربحت أموالاً كثيرة بواسطة السندات المالية الملكية التي اشتريتها سابقاً فكانت رحمة عليّ، لكنها نقمة على الكثيرين. وفكّرت بأنه بدلاً من انتقامه منّي زاد الرب ثروتي من جديد! لماذا؟ بدأ القلق يحفر روحي حتى أيقنت بأن الله لا يريد الانتقام منّي بثروتي، بل بأبنائي، بك أنت وإخوانك، سينتقم من أسرتي وستموتون واحداً تلو الآخر. إذاً لا بدّ من مصالحة بيني وبين الله، والمصالحة هي النذر، أن تكون أنت منذوراً لخدمته حتّى لا تثور مثلي في لحظات اليأس فتتكرّر المأساة. إن موت أخوك سورن ميخائيل المفاجئ، وبعده موت أختك ماري كرستينا، ليس سوى نذير

لما سيحدث، إنه ومضة الغضب والانتقام الأولى كالبرق من السماء. نعم سيعاقبني الله بأن أشهد موتكم واحداً بعد الآخر، وأنتم في زهرة الشباب. أما أنت فستنقذ نفسك فقط عندما تخدم الرب، إنك منذ الآن منذور له ويجب أن تضحّي بكل شيء من أجل إرضائه.

سورن الصغير: لماذا؟ لماذا؟

سورن كيركغارد: (يتمتم من مكانه) لماذا كل هذا العقاب يا رب؟ (يسير مرتبكاً ومتردّداً وقلقاً داخل الغرفة التي تضيق أيضاً ثم ينفجر) عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، عملت راعياً للغنم في قرية سدني بجزيرة يولاند في تلك السهوب الخالية والواسعة التي يشعر الإنسان فيها بحضرة الله حيث يرى فقط الأرض الممتدّة والسماء الضبابية. وقد ضقت بحياة الرعي القاسية وبما فيها من جوع ومعاناة ووحشة وشعور بالضياع. وذات يوم بدأت عاصفة رهيبة وهطل المطر بغزارة. (صوت العاصفة المطر والريح) بدأت أرتجف من البرد والجوع وازداد قلقي وغضبي على كل شيء، صعدت تلاً صغيراً (يصعد). ونظرت إلى السماء السوداء الغاضبة، وازداد غضبي، رفعت يدي نحو السماء نحو الله وصرخت ماذا فعلت لك؟ هأنذا في هذا الفضاء الواسع والبرد يلسع عظامي حتّى أكاد أتجمد، جائع لا أجد ما أسدّ به رمقي، وحيد لا رفيق ولا صديق. ماذا فعلتُ لك يا رب؟ (الغرفة تضيق أكثر، الأب هائج، سورن الصغير خائف يلاحق قلق والده. سورن كيركفارد متأهّب يدور

في مكانه، وفولهولم والصحافي والقسّ على جوانب الغرفة الشفّافة يتهامسون) ماذا فعلت لك يا من بيدك كل شيء، أين نصيبي مما أعطيتَ ومنحتَ؟ ماذا فعلت لك؟ رغم حبّي لك هجرتني وتركتني ضائعاً في هذه السهوب الموحشة.ماذا فعلت لك حتى تنساني هكذا؟ ماذا فعلت لك؟ ماذا فعلت لك؟(يرتجف وسورن الصغير قلق وخائف والغرفة تضيق أكثر) وبدأت ألعن كل شيء، لعنت الرب، نعم لقد لعنته، ولعنت السماء والعالم ونفسي والطبيعة، لعنت كل شيء، كل شيء، بدون أن أعي بأنني سأعاقب على خطيئتي.اسمع بني أنا ملعون والرب سينتقم مني بكم.

(الرجال الثلاثة فولهولم والصحافي والقسّ يضيّقون الغرفة الشفّافة، والابن والأب يدوران بداخلها يحاولان الخروج)

الأب: (يصرخ) أنا ملعون، وسأحرم من أبنائي، سيموت أخوك أندرياس، وستموت أختاك، وهم جميعاً في ريعان الشباب، وأنا الوحيد الذي سأبقى لفترة طويلة شاهداً على كل هذا العقاب، سأبقى صليباً قائماً على قبر جميع آمالي، لأنه انتقام الرب.

سورن الصغير: (صارخاً) أبي... أبي (يحاول الاحتماء به)

الأب: (مستمراً) بسببي ستُمحى ذكرانا تماماً ولا يبقى لنا أثر، سنُباد كحشرات حقيرة.

سورن الصغير: أبي... أبي.

الأب: مهما فعلت فأنا خاطئ أمام وجه الرب، وسيعاقبنا جميعاً.

سورن الصغير: أبي... أبي.

الأب: (مهتاجاً) أنقذ نفسك يا بني (الغرفة ما زالت تضيق) أنت منذور للرب، وعندما تكبر يجب أن تعمل في خدمته، كن راهباً لخدمته.

سورن الصغير: أبي... أبي... أبي أين أنت؟

(تضيق الغرفة لكن سورن كيركغارد ينجح في الخروج ويسرع ليخاطب الجمهور)

سورن كيركغارد: هناك زلزلت الأرض بي، أتذكّر هذا جيّداً بعدما اعترف أبي لي بخطيئته وسبب كآبته.

موسيقى مناسبة

الطقس الثالث

صمت الموت

سورن كيركغارد: (ما زال على وقفته كما في الطقس السابق) ومنذ أن كنت طفلاً وحتى الآن ما زالت الأرض تهتزّ تحت قدميَّ من هول رعب أبي بسبب خطيئته التي عداني بها. اعترافه لي تحوّل إلى كابوس يلاحقني. فوقع الانقلاب المروّع في حياتي الذي فرض عليّ فجأة الشك في كل شيء، وأيقنت أن هناك خطيئة تبحث عن عقابها تحلّق فوق أسرتي. وتحقق كل ما كان يخاف أبي منه. ماتوا إخوتي الذين تنبّأ أبي بموتهم وهو حيّ، فاستمرّ يعذب نفسه، حتى أيقنت أن طول عمر أبي ليس نعمة إلهية بل نقمة. وشعرت بصمت الموت ينمو في داخلي عندما رأيت في والدي رجلاً تعساً يحمل كآبة هائلة بسبب شعوره بالخطيئة، وخوفه من أن يبقى حياً بعدنا، فيشهد موت أبنائه كما تنبّأ. يا له من شيء مرعب، لقد تسمّرت منذ أيامي الأولى داخل هذا العذاب حتى وصلت إلى حافة الجنون، حقاً أنا شقي، قلق، مضطرب. الزمان ينساب بهدوء والحياة حلم جميل والناس يتغيّرون، لكني لم ألحظ شيئاً من هذا كلّه في داخلي، وكأن زماني ساكن وأنا معه، يا له من شيء مرعب. يجب ألا يستمرّ هذا أبداً...

(يغيب في ظلام عمق المسرح)

موسيقى

الطقس الرابع

العرافات

نور رمادي يغمر المسرح المغطّى بالأبيض. كل واحدة من العرّافات منطوية على نفسها ومتلفّعة بعباءة من النايلون المطاط أو القماش المطاط. يحاولن الخروج من جلودهن هذه التي يتعذّبن بداخلها حتى تتمزّق لنرى وجوههن غير واضحة الملامح تبدو وكأنها أقنعة. يتمتمن بكلمات غير مفهومة ويدرن في المكان كنسور هائجة يبحثن عن شيء ما، ينظرن حولهن بعيون نسر يبحث عن فريسته، ويحركن رؤوسهن حركات متشابهة، ويتمّ هذا كما لو أنهن يحلّقن في الأعالي ثم يهبطن على الأرض، وفجأة...

العرّافة الخضراء: أنا الفاتنة أخدع أمراء بحر الحياة وأُضلُّهم... مملوءة أنا بالشهوة والرغبة واللذة التي تتفجّر لهيباً في روح الذي يصغي إلى غنائي، ومن يألف معايشتي لا بد من أن يسمع أنفاسي فتحرقه ويرتحل عنّي حتى... يموت.

(العرّافات ما زلن يبحثن. يُضاء وجه الأب في عمق المسرح، تنتبه العرّافات، تتجه العرّافة الخضراء نحوه وهي تحاول الانقضاض عليه)

العرّافة الخضراء: أنا الفاتنة... أنا الفاتنة... أنا الفاتنة.

(الأب يتمتم، العرّافتان تخرجان)

شهقة موسيقية

الطقس الخامس

مرايا الضياع اللازوردي

(في الظلام الأب ممدّد بكفنه الأبيض على منضدة كالتي في مخزن الجثث، قلقاً، يتمتم هاذياً ومرتبكاً، يلقي حواره بشكل متقطع. تحيط به العرّافة الخضراء، تخلع منامته البيضاء لتطهّر جسده بالماء، وتصبّه عليه مرّات عديدة، وتُرقده على المنضدة وهو خائف ومرتبك يتمتم شبه عارٍ)

الأب: يا رب، لا تكنْ مع الخطايا ضدّنا. بل... بل كن عوناً لنا على خطايانا، حتى لا نتذكّر ذنوبنا كلما فكّرنا بك، بل نتذكر غفرانك. عندئذ تُمحى مرارة الخطيئة. لأنك... لأنك محبّة. (تلامس العرّافة الخضراء جسده كأنها تريد امتلاكه. وفعلاً هو ملكها الآن. يموت. عندها ترقص حول جثّته رقصاً كأنه الهمس الوحشي. أثناء ذلك تكون العرّافتان الأولى والثانية في الصالة بين الجمهور توزّعان ما تحملانه).

العرّافة الأولى: (إلى أحد المشاهدين) خذ الآس
آس الحياة
خذ واصمتْ.

العرّافة الثانية: (إلى أحد المشاهدين) خذ الخبز
مادّة الحياة الأولى
خذ... خذ واصمتْ.

العرّافة الأولى: (إلى أحد المشاهدين) خذ التمر
تمر الصحراء

خذ... خذ واصمتْ

العرّافة الخضراء: أنا الفاتنة يموت من يصغي إلى غنائي. أنا الفاتنة الفاتنة.

العرّافة الأولى: (إلى أحد المشاهدين) خذ الزهرة
زهرة النسيان
ستُنسيك الأسرار خذ... خذ واصمت.

العرّافة الثانية: (إلى أحد المشاهدين) خذ التعويذة
تعويذة الصحراء
خذ الغضب والقسّوة.. خذ واصمت.

العرّافة الأولى: (إلى أحد المشاهدين) خذ المرآة
تسلية في الليالي السود
خذ... خذ واصمت.

العرّافة الخضراء: أنا الفاتنة، يحترق بأنفاسي من يعاشرني. أنا الفاتنة الفاتنة.

العرّافة الأولى: تذكُر زهرة النسيان تعويذة للصحراء.

العرّافة الثانية: تذكُر مرآة النسيان تسلية لليالي.

سورن كيركغارد: (يدخل حذراً يركع أمام جثّة والده. تختفي العرّافات) كم أخطأتَ بحقّي يا أبي عندما حمّلتني وزر خطيئتك؟ ومع ذلك كنتَ أفضل الآباء وأخلص الأصدقاء. أنا بحاجة إليك، كنتُ أتمنّى من أعماقي أن تمتدّ حياتك أشهراً أخرى، فأنا وحيد... وحيد الآن. لقد ضحّيت بكل شيء من أجلي، كي تستطيع أن تجعل منّي شيئاً في هذا العالم. حقاً أنت أفضل الآباء. (يغطّيه بالشرشف، أمام المرآة المشوّهة) والآن كيف أبدأ حياتي؟ فأنا ذابل للغاية كشجرة في الصحراء وشاحب بلا فرح، لا أجد شيئاً يُبهجني. ماذا أريد؟ و ما

الذي سيحدث؟ ما الذي سيحمله المستقبل؟ لا أعرف. أمامي فراغ هائل. نعم إن هذه الحياة مخيفة ولا يمكن للإنسان أن يطيقها. إنها الفراغ. من أنا؟ أين أنا؟ ما هذا العالم المشوّه الذي يحيطني والذي تفوح منه رائحة اللاشيء. نعم إنه لا شيء. لماذا قُذف بي في قلب هذا اللاشيء. ما ينقصني هو أن أرى ذاتي بوضوح، وأن أفهمها وسط هذا العالم. باستطاعتي أن أجد الحقيقة أما السعادة فهل يمكن أن أبلغها؟ ماذا أريد بالضبط؟ (صمت) هل أريد أن أجد الفكرة التي أكرّس لها حياتي وموتي؟ نعم أريد أن أجد الحقيقة. وكي أعثر على هذه الجوهرة يجب أن أعثر على ذاتي الحقيقية أولاً. (فرحاً) نعم إن هذا ما ينقصني، أن أعثر على ذاتي الحقيقية أولاً، وهذا هو الشيء الذي سأكافح من أجله وإلا سأجن. (فترة) ما هذا الذي يتراءى لي وسط مرايا الضياع؟ هل هو السعادة؟ (تظهر من عمق الظلام ريجينا أولسن بوجهها الملائكي وملابسها البيضاء كملاك يقترب منه، تحيط بها العرّافات) ما هذا؟

العرّافة الأولى: الحب يستر كثرة الخطايا...

العرّافة الثانية: طوبى لمن غُفرت خطاياهم.

كيركغارد: سأحاول أن أنسى نفسي، لا في ضجيج العالم ومرايا الضياع بل في الحب الذي يستر كثرة الخطايا. ريجينا يا ملاكي.

العرّافات الثلاث: الحب يستر كثرة الخطايا.

(يدور كيركغارد وريجينا حول بعضيهما راقصَين كحمامتَين)

ظلام

2- الحب البائس

الطقس السادس

الحب يستر كثرة الخطايا

(العرّافة الخضراء والعرّافتان. ريجينا أولسن مأخوذة بالفيلسوف سورن كيركفارد الذي يسحرها وجوده)

العرّافات: الحب يستر كثرة الخطايا.

سورن كيركغارد: (كأنه في حلم) ها أنا في ربيع شبابي يهزّ قلبي حلمٌ
شوق إليك يا من تقفين كالشمس بين النساء
مباركة أنت... ومبارك جمالك إلى الأبد.
ريجينا أيتها السرّ المقدس
ادخلي إلى أعماق قلبي.

العرّافة الخضراء: اللعنة الكبرى رُفعت.

العرّافتان الأولى والثانية: والحب يستر كثرة الخطايا

سورن كيركغارد: يا ريجينا لم يعد يعنيني أي شيء في هذا الوجود إلا أنت، أنت من كنت أبحث عنها. عندما رأيتك للمرّة الأولى شعرتُ بفرحٍ قَلِقٍ يغمرني وعندما نظرت في عينَيك المتوهّجتين شعرت بالبهجة، فأشعة عينَيك جعلتني قادراً على الرؤية.

(جالسة وهي مرتبكة في حضرته) لكن...

ريجينا أولسن: أعرف... أعرف أنك ومدرّسك فرتز شليجل على

سورن كيركغارد: علاقة تفاهم (صمت) لنضع هذه العلاقة جانباً. بل

ارفضيها الآن لأنني أشعر بأنك لي... هل توافقين؟

ريجينا أولسن: (صمت)

العرّافة الخضراء: الحب يستر كثرة الخطايا

سورن كيركغارد: لماذا تصمتين؟ أترفضين حبّي؟ (صمت) هل توافقين أن أحقّق رغبتنا في أن تكوني خطيبتي؟ إذا وافقتني، عليك أن تعرفي من الآن بأنني سوداوي المزاج وغريب الأطوار، غير أن الحب يستر كثرة الخطايا.

العرّافة الخضراء: الحب يستر كثرة الخطايا

سورن كيركغارد: هل توافقين؟!

ريجينا أولسن: (صمت طويل)

(فجأة نسمع نواقيسَ تقرع تتحوّل دفوفاً وموسيقى خاصة، العرّافتان تساعدان ريجينا أولسن على ارتداء ملابس خاصة كأنها تعدّ للزفاف فتبدو كسيّدة جميلة مكللة بالزهور، العرّافة الخضراء تطهّر الفيلسوف بالماء)

العرّافة الأولى: مباركة هي الحبيبة.

العرّافة الثانية: مبارك هو الحبيب.

العرّافة الأولى: انثروا زهور الحب في كل مكان.

العرّافة الخضراء: (إلى كيركغارد) قل طهّرنني.

سورن كيركغارد: (وهو مندهش بجمال روجينا أولسن وبراءتها) طهّرنني.

(العرّافة الخضراء والفتاتان يصببن الماء على رأس الفيلسوف بعدما نزعن ملابسه)

العرّافة الأولى: (إلى الفيلسوف) انظرْ وانصت.

العرّافة الخضراء: اللعنة الكبرى رُفعت.

العرّافة الثانية: في الحب تكمن قوّة العالم.

سورن كيركغارد: (بحب) ريجينا.

العرّافة الأولى: على العرش الذي خُصّص لها بفضل حبّها، سنقودك إليها حتى تغمرك بالنور.

العرّافة الثانية: (إلى الفيلسوف) مبارك حبُّكَ إلى الأبد.

العرّافة الأولى: (إلى الفيلسوف) مبارك حبُّكَ إلى الأبد.

سورن كيركغارد: ثمة فرحة لا سبيل إلى وصفها تلهبنا بلهيبها، افرحوا... افرحوا، افرحوا كأغنية الروح الملتهبة، افرحوا فرحة قدسيّة تنعشنا كالريح التي تهبّ في الجنة. ريجينا.

العرّافة الثانية: (إلى ريجينا) انظري، أفيضي عليه من حبّك.

سورن كيركغارد: (بحبّ) يا من تختبئين في أكثر أحلام حياتي عظمة، كنت أبحث عنك. وقد وجدتك الآن.

ريجينا أولسن: يجب أن تحبّني.

سورن كيركغارد: هل تشكّين في هذا؟

ريجينا أولسن: أمنيتي الوحيدة أن تظلّ معي إلى الأبد (تمسك وجهه) أريد أن أتأمّلك وأن أنسى كل شيء في هذا العالم. تكلّم لأنك تسحرني بأفكارك تكلّم، عندما سمعتك لأول مرّة تهت وترقرق الدمع وكدت أرتمي عليك لأقبّلك. كلماتك غريبة تثير في داخلي الفرح... حدّثني عن أي شيء... تكلّم.

سورن كيركغارد: عربة الحب التي لا تتسع إلا لنا نحن، سوف تحملنا لتطير بعيداً دون أن نعي الزمن. حبّنا سيجعلنا خارج القيود. في عربة حبّنا لا نعرف هل ما زلنا واقفين والعالم يتحرّك من حولنا، أم أننا فقط نتحرّك وكل شيء توقّف، إنه هروبنا

الكبير. هل هذا طيش أم هو قدرنا؟ تمسّكي بي بشدّة، لا تتركيني، فلو اختفى العالم وتوقّف الزمن سنظلّ متعانقَين ونحن نحلّق في سماء أثيرية.

ريجينا أولسن: هل سيسعدك حبّي؟

(يلتفان ببعضهما بعنف)

العرّافة الخضراء: اللعنة الكبرى رُفعت.

العرّافة الثانية: في الحب تكمن قوّة العالم.

العرّافة الأولى: انثروا زهور الحب في كل مكان.

العرّافة الثانية: الحب يستر كثرة الخطايا

ريجينا أولسن: هل سيسعدك حبّي؟

هل سيسعدك حبّي؟

هل سيسعدك حبّي؟

موسيقى

الطقس السابع

الليل الأبدي

رماح في رؤوسها خوذ عسكرية ورماح أخرى بأقنعة ضدّ الفازات السامّة موزّعة في فضاء العرض. سورن كيركفارد في زاوية يراقب حلمه. في الوسط كتلة بشرية تتلوّى على الأرض بين حاجيات وأشياء قديمة لا مجدية يمكن أن نجدها في القمامة. أقنعة ضدّ الغازات، دمى وأوانٍ قديمة وحاجيات أخرى. تبرز من الكتلة بين الحين والآخر أقدام وأيدٍ ورؤوس بشرية. الكتلة البشرية ما زالت تتحرّك ببطء، فنسمع صرخات وأنيناً وضحكاً داعراً. العرّافة الخضراء بملابس الحرب. يخرج القسّ بصعوبة من الكتلة، وقد أصبح رأسه بقناعَين وعجيزته كبيرة متضخّمة. يخرج فولهولم من بين الكتلة البشرية بقناعه المضحك، وقد تضخّم فأصبح أكبر حجماً، يدور حول نفسه بشكل آلي، يضع إكليلاً من الزهور على رأس القسّ ويجمد بخشوع وتذلّل. يخرج الصحافي وهو بثلاثة وجوه فسفورية تشعّ ويتحرّك بطريقة كأنه يقدّم عرضاً تهريجياً، وبحركته الآلية المتكرّرة يُخرِج ضفادعَ من مؤخّرته، فنسمع نقيقها الذي يتضخّم بشكل مزعج. تخرج الفتاتان وقد تحوّلتا قردتَين قبيحتَين بشعر حليق وبطنَين مكشوفتَين منتفختَين تُخرجان أصواتاً مزعجة. تمتطي قردةٌ حصاناً خشبياً صغيراً كان موجوداً مع الكتلة البشرية وتظلّ تهتزّ به فرحاً، أما القردة الثانية فتسوط الأرض خلف رفيقتها فترة، ويهدأ كل شيء. صمت. العرّافة الخضراء بحركة سلوموشن مُركَّزة تلبس خوذة الحرب، فيمسك الجميع بالرماح ويلبسون الخوذ العسكرية ويستعدّون للحرب بعد أن ينقسموا إلى كتلتَين. وبحركات سلوموشن يهجم بعضهما على الآخر، يتداخلان، يجمد المشهد. (يمكن للمخرج إضافة صور أخرى)

سورن كيركغارد: (يهمس) كل شيء مزيّف...

لنوقف النذالة الكبرى

وجريمة الحرب البشعة.

ظلام مفاجئ

الطقس الثامن

أسرار الجسد

(الفيلسوف وحده، وجهه فقط مُضاء بشمعة أمامه، نسمع أمواج البحر وصوت الريح)

سورن كيركغارد: يا إلهي لقد أخطأتُ، إنها فَرِحة هذه الصغيرة البريئة بخطوبتنا وأنا أتعذّب. لقد اتخذت قراراً خاطئاً ربطني بالأرض وبمملكة الزواج، إنه الموت الدنيوي الذي يسخّف مهمّتي. (صمت) لكن ما هذا الاضطراب، أن أتمسّك بهذه الصبيّة بين يديَّ، وأحاول أن أجعل من الحياة غناءً لها، ثم أصغي إلى الصوت المصيري الذي يصرخ في داخلي «يجب أن تتخلّى عنها». صوت كأنه عقاب لي. إنه والله لشيء مرعب. أحببتها وهي لي ومع ذلك ينبغي عليَّ رفضها! إن حبّي لبائس حقاً. آه يا إلهي كم أشعر بأنني وحيد. (صمت) نعم إنني أحبّها، لكني لا أستطيع أن أكشف لها عمّا بي، عن نواقصي كما هو واجب الزواج، إذا كشفت لها سرّي وفعلتُ هذا إذاً لأشركتها في أمور مرعبة، أبي وخطيئته، واللعنة الكبرى التي تلاحق العائلة. وأسرار هذا الجسد الواهن والضعيف والعليل الذي يثير السخرية بحدبة في الظهر، ومشيتي العرجاء برجل قصيرة، أليس هذا مضحكاً مثيراً للشفقة؟ هل سأخبرها أيضاً عن الأسرار الأخرى لجسدي الذي لا يؤدي واجب الزواج؟ كيف ستعيش ريجينا معي

إذاً؟ آه يا إلهي لو وهبتني جسداً آخر؟ (صمت) هل تستطيع صغيرتي أن تفهمني إذا فسَّرتُ لها هذه الأسرار؟ هل تغفر لي لو عاشت معي في تيّار حياتي المضطرب هذا؟ هل تستطيع تحمُّل هذه المصاعب إذا تزوّجنا؟ هل أقوم بما لست قادراً على تحقيقه، أن أتزوّج، وأن أجعل إنساناً آخر شقياً مثلي؟ ستعيش معي دون أن تعرف لذة الجسد والزواج، وإذا فسخت الخطوبة أين يكمن ذنبي؟ (صمت) ماذا أفعل إذاً؟ فعندما يدعوني هذا المثالي العظيم في هذا الليل الأبدي، عليَّ أن أرفض كل ما هو غريزي، وهأنذا أسمع الصوت في داخلي يصرخ: «ضحِّ بمن تحب وبأغلى شيء في هذه الدنيا، وأتجه إلى سماء الحب المطلق...»، وتلك طريق تفضي بي بالتأكيد إلى صراع ومشاق جديدة، لكني لن أستسلم (فجأة) والآن اخترت نقص جسدي كشوكة تؤلمني دائماً، إنه صليبي... إذا كنتُ لا أصلح لأن أكون زوجاً كالآخرين، إذاً سأكرّس حياتي لخدمة شيء آخر، لخدمة الفكرة السامية. لا زواج أبداً والحب المطلق للحقيقة هو طريقي الوحيد لأستطيع الرقص في دوّامة الأبدية، نعم الرقص... الرقص... الرقص في دوّامة الأبدية.

موسيقى

الطقس التاسع

كل أزهار قلبي باردة كالثلج

(غرفة ريجينا، تنتظره قلقة. يدخل الفيلسوف حزيناً وقلقاً ومفكّراً، تستقبله متلهّفة، إنه غير متحمّس لكنه يحبّها)

ريجينا أولسن: انتظرتك طويلاً أمس، لماذا لم تأتِ؟

سورن كيركغارد: كنتُ مشغولاً.

ريجينا أولسن: هل تعني ما كتبته لي في هذه الرسالة التي استلمتها اليوم؟

سورن كيركغارد: (مرتبكاً، صمت طويل، تخرج كلماته متقطعة) نعم، لِمَ لا؟ تفكّرين بالزواج من فرتز شليجل، مدرسك وحبيبك السابق، ألم يناسبك أكثر مني؟ (بسخرية) أكثر من فيلسوف لا يصلح للزواج.

ريجينا أولسن: إنك تمزح، إني أحبك أنت.

سورن كيركغارد: لكني غير قادر على تحقيق السعادة لك.

ريجينا أولسن: هل تمزح؟ (صمت) يا إلهي هذا شيء جديد عليك، تعطيني وعوداً وتحلم معي أحلاماً كثيرة، والآن تحاول أن تقنعني بأنني لست الحبيبة التي ترجوها، لأنك فيلسوف لا تصلح للزواج! أو تتحدّث معي بشكل مضحك، مكرّراً ما سبق أن قلته حتى تبدو مملاً فأشعر بالضجر في صحبتك، بينما أنا أعرف بأنك ساحر في أحاديثك وأفكارك المذهلة. (صمت) أعرف بأن هذا ليس من طبعك وأنك تمثّل معي. من أنت؟ لا أفهمك لقد تغيّرت الآن. وبالرغم من ذلك

فإني أحبك.

سورن كيركغارد: لا أصلح للزواج.

ريجينا أولسن: أنت تمزح أليس كذلك؟

سورن كيركغارد: ما ينبغي أن يحدث علينا أن ندعه يحدث الآن كي لا نستمرّ في قضية خاسرة بعد ذلك. أرجو أن تنسيني، اغفري لي.

ريجينا أولسن: أوه إنك تمزح؟

سورن كيركغارد: اغفري لي، لا أستطيع أن أُسعد فتاة جميلة وبريئة مثلك.

ريجينا أولسن: لماذا؟

سورن كيركغارد: (صمت، مرتبكاً) لا أستطيع، لا أصلح زوجاً لك.

ريجينا أولسن: لا، لا تتركني أتوسّل إليك، باسم كل ما هو مقدّس عندك، لا تتركني.

سورن كيركغارد: يجب ألا أتزوّج.

ريجينا أولسن: لماذا؟ أنا لا أفهمك.

سورن كيركغارد: لا أستطيع.

ريجينا أولسن: إنك تمزح، لماذا؟

سورن كيركغارد: لا أستطيع.

ريجينا أولسن: لماذا؟

سورن كيركغارد: لا... لا أستطيع، أرجوك أن تتركيني أذهب.

ريجينا أولسن: لكن لماذا... لماذا؟

سورن كيركغارد: أنتِ لن تتحمّلي.

ريجينا أولسن: أتحمّل أي شيء ما عدا فراقك، أنت زهرة الحياة في روحي.

سورن كيركغارد: أنتِ لن تتحمّلي.

ريجينا أولسن: لماذا؟

سورن كيركغارد: لن تتحمّلي.

ريجينا أولسن: أتحمّل كل المصاعب التي ستواجهنا.

سورن كيركغارد: أنت لا تعرفين عن أي شيء أتكلّم.

ريجينا أولسن: عن أي شيء؟

سورن كيركغارد: (متردّداً) أ... أ... أنا... جسدي... جسـ... (يحاول الاعتراف، لكنه يغيّر رأيه) لن تتحمّلي ذلك العبء.

ريجينا أولسن: قلت لك أنا مستعدّة للعيش معك حتّى في خزانة حقيرة.

سورن كيركغارد: هراء، أنت تتشبّثين بالزواج كمنقذ لك (يحدّث نفسه) أما إشباع الغريزة أو إشباع الروح (إلى ريجينا) وحتى أجنّبك ثرثرة الناس، افسخي الخطوبة أنت.

ريجينا أولسن: لا أصدّق (صمت) إن كنتُ سأتحمّل الابتعاد عنك، فسوف أتحمّل ثرثرة الناس أيضاً. يجب أن تحبّني لأني أحبّك وأمنيتي الوحيدة أن تبقى معي إلى الأبد.

سورن كيركغارد: وهذه أمنيتي أيضاً، لكن لا أستطيع، وبدل الزواج أعرض عليك أن نكون أصدقاء.

ريجينا أولسن: لماذا بحق السماء؟

سورن كيركغارد: أعرف بأنني لن أستطيع تأدية واجبات الزواج والعائلة.

ريجينا أولسن: (تفقد صوابها، تهجم عليه كالنمرة الشرسة) إنه عذر مرفوض. لكل خطيئة عذابها، وخطيئتك أنت هي رفضكَ لحبّي. لقد أحببتك، لكنك انصرفت عني، وها أنت تُهينني، لماذا؟ تكلّم، تكلّم، لماذا أنت صامت؟ لماذا لا تحبّني لماذا؟

سورن كيركغارد: لقد أحببتك دائماً.

ريجينا أولسن: إذاً لماذا ترفض زواجنا؟

سورن كيركغارد: (صمت)

ريجينا أولسن: لن تمنحك طبيعتك هذه، ولا حتى فلسفتك، من البهجة ما يمنحك إيّاه حبّي. وإذا كان حبّي المخلص لا يرضيك الآن فأي شيء سيرضيك في هذا العالم؟ أنا أحبّك وصعب عليّ أن أفارقك. أما أنتَ فلن يفيدك الندم الذي سيأكل قلبك عندما تختلي بنفسك.

سورن كيركغارد: كل أزهار قلبي باردة كالثلج، لكني أحببتك، وسأحبّك دائماً. أرجو ألا تفكّري بي كإنسان قلق مضطرب وسوداوي الفكر، وإنما كإنسان طيّب يملك الأمل والثقة، أَحَبَّك. (ترتجف ريجينا غضباً، شبه فاقدة الوعي، يخلع الفيلسوف الخاتم ويتركه جانباً) سامحيني في ما سببته لك من آلام. لن أنساك. (ريجينا مذهولة، صمت طويل) أملي، أملي أن تفهمي في المستقبل حبّي لك، فتسامحيني. (يهمّ بالخروج) إن حبّي لا يُعبَّر عنه بالزواج، إنه شيء آخر. وداعاً، وداعاً.

(يخرج)

3- الجحيم

الطقس العاشر

العرّافات

(نور رمادي، سورن كيركغارد يصلّي. تتدّلى ثلاثة حبال من السقف. من هذا المشهد وحتى النهاية سيظهران دائماً ريجينا أولسن وسورن الصغير وهما يراقبان الفيلسوف بصمت)

سورن كيركغارد: إلهي ساعدها على تحمّل هذه المعاناة. ساعدها كي تعبر جسر الآلام الصعب هذا. ساعدها في أن تجد سعادتها في الزوج الذي يقدّر براءتها وأحلامها. أنا لا أستطيع أن أحقق هذا، فإن فعلتُ وقفتُ ضدّ إرادتك، وضدّ ما رغبتَ أنت أن أكون عليه، كخادم لك وللحقيقة.

(موسيقى. العرّافات يتسلّقن الحبال)

العرّافة الخضراء: أنا الفاتنة.

العرّافة الثانية: أنا الفاتنة الأجمل.

العرّافة الثالثة: أنا الفاتنة الأكثر جمالاً.

العرّافة الخضراء: أنا الفاتنة، أجتذب بجمالي من أرغب، فألتفّ حوله كالشبكة التي ليس منها خلاص، أنا الفاتنة، أنا الفاتنة.

(يتمتمن بلا وضوح)

سورن كيركغارد: حتى هذه اللحظة من حياتي كان صراعي مع ذاتي، أما الآن فسيبدأ صراعي مع أولئك الذين يقفون ضدّ الحقيقة.

(يدخل القسّ برأس نسر حديدي، والصحافي برأس ثعلب، وفولهولم برأس وحيد القرن، وهم يسحبون كرسياً ذهبياً ضخماً يجلس عليه المطران منستر بملابسه الذهبية وكأنه دمية في موكب جميل. يبدأ المطران - الدمية إلقاء خطبة دينية صامتة يعبّر عنها بالإشارات، والكل يصغي إليه باحترام. وعندما ينتهي تنزل العرّافات من الحبال. العرّافة الخضراء تحتضنه فيجمد بين يدَيها كدمية ميّتة. يموت. العرّافات يرقصن على الموسيقى الجنائزية ويخرجن)

القسّ: وأسفي كان المطران منستر شاهداً علىالحقيقة، ومنه تُفضي أفكارنا إلى جميع القدّيسين وشهود الحقيقة ورسلها.

سورن كيركغارد: هراء، الشاهد على الحقيقة، إنسان لا يجب أن تكون المتعة هدف حياته. في وقتنا الحالي يسيء الجميع الحكم على شاهد الحقيقة، يكرهونه ويحتقرونه ويهينونه ويسخرون منه. لا يملك قوت يومه، يخرج من سجن ليدخل آخر، أو يُنفى من بلد إلى بلد، ومن ثم يُصلب في النهاية أو يُحرق أو يُربط بصخرة ثم يُلقى في البحر، وقد لا يُدفن، بل يُترك في العراء ليتعفّن. أما المطران منستر الذي تشبّهونه بالقدّيسين والشهداء فقد عاش مترفاً في حياته. في الكنيسة كان يقول مواعظ مهمة، لكن في حياته الخاصة كان ذكاؤه في خدمة مصلحته الذاتية، وبين حياته في الكنيسة وحياته الخاصة ثمة هوّة عميقة. الكلّ يستغل الدين لخنق الإنسان

وتشويه مواقفه الإنسانية.

القسّ: (ومعه فلهولم والصحافي يزأرون وينبحون) كيف تجرؤ؟ هذا كلام قذر، لا يمكن لفيلسوف عاقل كما تدّعي أن يتحدّث بجنون كهذا، إنك حقاً لمريض.

سورن كيركغارد: نعم أنا مريض، لكن من منكم أنتم الذين تستغلّون الدين لمصالحكم، يستطيع أن يقول عن نفسه إنه سليم تماماً. إذا كان المفكّر العاقل يفترض بأن رجال الدين يؤدّون واجبهم، فأنا أقول بأنه شريك لهم. وإذا أراد رجل الدين القيام بواجبه، فعليه أن يكون شاهداً على ظلم الآخرين ورذائل عصره ومحارباً لها. لكن معظم رجال الدين يهربون من هذه المهمّة، هم يخدعون هؤلاء المساكين الذين يذهبون إلى أماكن العبادة عندما يعدونهم بامتلاك السعادة الأبدية والخلود مقابل أن يدفعوا نقوداً لشراء صكوك الغفران أو قطعة أرض في الجنّة، فيستغلونهم لخدمة مصالحهم. احذروا هؤلاء الذين يقلبون حقيقة الدين، لأنهم جعلوا من الحياة جحيماً، ومن الإيمان بالله مستحيلاً.

فولهولم: (إلى القسّ) ما دام قد تهجّم على المقدّسات وأدان الكنيسة ورجال الدين وهاجمهم، فيجب أن تُغلق أبواب الكنيسة في وجهه.

سورن كيركغارد: هذا ما ينبغي أن يقال، فأصدروا أمركم وفتواكم بذلك. إني لا أقلق من هذا التهديد.

القسّ: ماذا تريد بحق الرب؟ هل تريد أن تفرض على رجال الدين حمل المسدّسات بدل الصلبان.

الصحافي: حتى يدافعوا عن الحقيقة التي تبغيها؟

سورن كيركغارد: من السهولة أن تتهموا من تشاؤون، لكن توقّفوا عن ممارسة العنف ضدّ الناس عندما تحرفون حقيقة الدين، فيتحوّل عذاباً أبدياً؟ أنا لا أريد إلا الإخلاص للحقيقة، ومن أجلها سأخاطر بكل شيء، لأنه يجب أن يكون للإنسان جحيمه على الأرض. أن تكون صادقاً هو أكثر ألوان العذاب رعباً في هذا العصر المزيّف. فهذه الحياة سوف تنتهي بكارثة مخيفة إذا استمرّ الحال هكذا. (صمت) يا زورقي كم حملّوك بالشرور.

(الصحافي وفولهولم والقسّ يسحبون الكرسي ويختفون وهم يتمتمون ويثرثرون وينبحون حقداً)

سورن كيركغارد: (وهو يتابعهم) يا زورقي كم حملّوك بالشرور.

موسيقى

الطقس الحادي عشر

زهرة الآلام ستتفتح عندما نقول الحقيقة

(سورن كيركغارد يقول الحقيقة للجمهور، يمكن أن تكون كهذيان عنيف يثرثر الفيلسوف به، إنها خطبة عنيفة وكأن الفيلسوف يتعارك مع نفسه ومع الجمهور، لكن من دون صراخ. المرّافة الأولى والمرّافة الثانية توزّعان مرايا صغيرة للجمهور. ريجينا وسورن في زاوية مضيئة على المسرح. يمكن تحويل جزء من خطبة الفيلسوف عن الانهيار الحضاري إلى صورة متجسّدة، من دون كلام اعتماداً على الحركة والصور الفيلمية والفوتوغرافية المتتالية. أما الفيلسوف فهو يراقب فقط)

كيركغارد: جئت كي أحب فكرهتموني. لكني أعرف نفسي في معاناتي. وهكذا أدركت مهمّتي في هذا الزمن الذي يقوم الفساد فيه على إلغاء تفرّد الإنسان. فلا أحد يجرؤ على أن يبني ذاته الحقيقية أو يقول رأيه المختلف. كل واحد تتقلّص ذاته وتذوب مع الآخرين، مع الرعاع، مع الجهلة. رجل السياسة لا يتعامل إلا مع الشعب فهو يتحدّث باسمهم دائماً ويتباكى عليهم عندما يريد تحقيق مآربه ومصالحه الذاتية، ظانّاً أنه يخدم الناس والوطن. ورجال الدين يستغلّون مناصبهم وخطبهم لقذف الإنسان في هوّة الوهم والضياع عندما يحرّفون قيم الدين السامية من أجل منافع السلطة السياسية، أو لمدح كبيرها، وهذا يعود عليهم بالمنافع والهبات، هم يضعون أنفسهم وسطاء بين الله والإنسان، ناسين عن عمد ألا وساطة

في نيل الجنّة أو الحقيقة. أما المثقف المزيّف فإنه يتكيّف في كل لحظة من أجل أن يكذّب الحقيقة. وهكذا تضافرت جهود رجال الدين والساسة والمفكّرين مزيّفي الحقيقة لضياع ذات الإنسان الفردية والقضاء عليها. والهدف من الممارسات السياسية والاجتماعية والفكرية في هذا البلد تسطيح الذات الواعية، وتحويل الإنسان إلى رقم في آلية الزيف، وما يحتاجه عالمنا الآن هو بناء الذات من داخلها حتى يمكن إنقاذ الإنسان من الضياع في عصر انحطاط الحضارة. ويل لكم أيها المراؤون تحاربون أبناء وطنكم وتبنون قبوراً للمفكّرين أصحاب الحقيقة وهم أحياء. يا أولاد الأفاعي، ها أنتم تتهمونهم وتطاردونهم في كل مكان. يا أبناء مانحة الرجال جبينها، يا من تحاربون بعضكم بحرب طائفية لن تنتهي بسلام أبداً. كل شيء مزيّف، وما أكرهه هو انفصام الإنسان. إني أصرخ: كنْ ذاتك... كنْ حرّيتك.

العرّافة الأولى: (توزّع المرايا على الجمهور) أصغِ يا أخي كنْ ذاتك.

(كل واحدة منهن تكرّر الجملة كخلفية لحوار زميلتها حتى تتحوّل إلى همس)

العرّافة الثانية: (توزّع المرايا) أصغِ كنْ حريتك، أصغِ يا أخي.

العرّافة الأولى: (توزّع المرايا) كن ذاتك، كن حريتك.

العرّافة الثانية: (توزّع المرايا) أصغِ إلى مرآتك.

العرّافة الأولى: (توزّع المرايا) أصغِ إلى ذاتك وانظر في مرآتك.

العرّافة الثانية: (توزّع المرايا) مرآتك الحقيقية ستنقذك.

...

سورن كيركغارد: الحقيقة هي الذات، والذات هي الحرّية. لكن المشكلة أن الفرد العظيم صاحب المواهب النادرة هو الذي يحاربه ويسخر منه الجميع ويطردونه، أما التافه والمهرّج الذي لا وزن له فهم ينصّبونه فيلسوفاً كاذباً أو حاكماً دكتاتورياً ليُغرِق الآلاف من الناس في بحر من الدماء. كل شيء مزيّف الآن، وما أحاربه هو انفصام الإنسان.

العرّافة الأولى: (توزّع المرايا) أصغِ... أصغِ كنْ حريتك،أصغِ يا أخي (تكرّر الجملة حتى تتحوّل همساً)

العرّافة الثانية: (توزّع المرايا) أصغِ... أصغِ إلى ذاتك... أصغِ وتأمّل مرآتك.(تكرّر الجملة حتّى تتحوّل همساً)

العرّافتان: كن ذاتك... تأمّل مرآتك كن ذاتك... تأمّل مرآتك كن ذاتك... تأمل مرآتك كن ذاتك...

سورن كيركغارد: ولأنهم يخافون الحقيقة، يلجؤون إلى وسائل الحرب والتدمير محوّلين الناس إلى قوّة لتخريب جبروت الفكر وتشويه نقاء الروح. إن هذا العالم سيصل إلى نهايته، فكل شيء مزيّف الآن، وما أحاربه هو انفصام الذات.

(يهدأ الفيلسوف ويتنحّى جانباً ليكتب، العرّافات ما زلن يوزّعن المرايا. الصحافي وفولهولم والقسّ تصاحبهم العرّافة الخضراء التي تحمل دمية كبيرة للفيلسوف وعلى صدر الدمية لافتة كُتب عليها: المفكّر. من هذه اللحظة وحتى نهاية الطقس يتحدّثون مع الدمية، لكنهم يغمزون إلى الفيلسوف المشغول بالكتابة)

القسّ: ملعون من الرب هو.

الصحافي: مجنون حاول الانتحار مرّات عدّة.

فولهولم: هاجم الدين والأخلاق وسياسة الدولة.

الصحافي: (بسخرية) لأنه الفيلسوف والمفكّر الذي يكتب في كل شيء، في الفلسفة والدين وغيرهما. لكنه لم يكتب حرفاً واحداً ضدّ الأعداء عندما حاربونا (إلى الفيلسوف) لماذا... لماذا؟

القسّ: يا يسوع المسيح، ألا تعرف بأن الحرب تخرّب الحياة والإنسان؟

فولهولم: لماذا لا يكتب عن الأحداث القومية الكبرى؟

الصحافي: وعن الدستور الذي يهم كل إنسان؟

القسّ: لماذا... لماذا؟

الصحافي: لأنه الذاتي شبه المجنون.

فولهولم: إنه خطر علينا جميعاً.

القسّ: إذاً لا بدّ من أن يُهدر دمه.

فولهولم: نعم يُهدر دمه.

الصحافي: هذا اقل إجراء بحقّه، فليُهدر دمه.

القسّ: فليُهدر دمه وليغفر له الرب.

الصحافي: ولأنه الذاتي شبه المجنون فليُهدر دمه.

فولهولم: ولأنه خطر علينا فليُهدر دمه.

(يهجمون على الدمية. العرّافة الخضراء تقطع رأس الدمية وتضعه في إناء. الممثّلون يأخذون الرأس ويخرجون به بصمت وموسيقى جنائزية وبمبالغة ساخرة. الفيلسوف يراقب كل شيء)

كيركغارد: لن يستطيع أحد أن يهجس بما يدور في داخلي، تلك هي حياتي سوء تفاهم مستمرّ. طوبى للمعذّبين من أجل الحقيقة، لأن لهم ملكوتاً في كل مكان.

العرّافة الفتاة الأولى: (توزّع المرايا) كن ذاتك، كن حريتك، أنتم ملح الأرض (تكرّر الجملة حتى تتحوّل همساً).

العرّافة الفتاة الثانية: (توزّع المرايا) أنتم نور الأرض، تأمّل مرآتك (تكرّر الجملة حتى تتحوّل همساً يمتزج بحوار الفيلسوف)

سورن كيركغارد: يا وطني الشهيد كم حمّلوك بالشرور، وها هم يسخرون منك حتى الموت... حتى الموت.

حتى الموت... حتى الموت.

(الرجال يكوّنون كتلة واحدة، ويحاولون الهجوم على الفيلسوف... هم يتقدّمون وهو يتراجع)

ظلام

4- الرقص في دوّامة الأبدية

Dance in the whirlpool of infinity

الطقس الثاني عشر

حلم في مرآة الروح

(أمام الباب المقدّس)

(فضاء من النور، الممثّلون عراة، ينظرون لكنهم لا يرون شيئاً، يسيرون بلا هدى خائفين ومرتبكين، يتزاحمون ويختفي أحدهم خلف الآخر خجلاً من الفيلسوف. نرى بينهم الصحافي برأس ثعلب، والقسّ برأس نسر حديدي، وفلهولم برأس وحيد القرن، والمطران منستر عارياً وحليق الرأس، يدورون حول الفيلسوف ليغفر لهم. من الممكن أن يكون يوم الحساب أو أن يكون هذا الحلم هو رؤية الفيلسوف لمستقبل معاصريه عندما ينتقلون إلى الحياة الأخرى. في زاوية ما نرى ريجينا أولسن وسورن الصغير)

المجموعة: (بأصوات متفاوتة) اغفر لنا. اغفر لنا. اغفر لنا.

(في ظلام عمق المسرح نرى شبح الشاعر بول مارتن موللر يقترب بثقة وهدوء، حافي القدمين حليق الرأس)

سورن كيركغارد: (مأخوذاً) من أنت؟ ماذا تريد؟

بول مارتن موللر: ألم تعرفني؟ أنا من بلاد ليست بعيدة عن الحلم، بلادي التي يعرفها حتى من لم يذهب إليها بعد. فالشهرة تمجّدها. أنا من شعب لا يفتقر إلى شيء من مجد الخير والقوّة. إنه يسير دائماً في طريق العدالة ويزدري طريق الشرّ،

أنا من حملتُ المحبّة والإخلاص إلى بلادي حتى في موتي.

سورن كيركغارد: إذاً أنت ذلك النبع الذي يفيض بالكلام كنهر عظيم. أيها الشاعر العظيم، يا فخر الشعراء والفلاسفة، ظلَّ مكانك خالياً في حياتنا بعد رحيلك. أما أنا فصمتُّ أياماً حزناً على فراقك. والآن ابتهج قلبي حين لم أركَ بين هؤلاء الخطاة.

بول مارتن موللر: أنت أيها الفيلسوف ستكون في المكان الذي أنا فيه الآن عندما تترك الدنيا التي تعذّبتَ فيها كثيراً لتأتي إلى عالمنا السرمدي لأنك مجّدتَ شعبك في كتبك، لكنهم واأسفاه لم يفهموك، فسخروا منك، إلا أنهم سخروا من الحقيقة والفكر العظيم من خلالك، إنك روح عملاق لا يعرف العالم نظيراً له إلا مرّة واحدة كل قرن.

المجموعة: (بهمس متفاوت كالفحيح) اغفر لنا، صلِّ لأجلنا، اغفر لنا.

سورن كيركغارد: أيّ أصوات هذه، ولماذا يتزاحمون ويختبئون هكذا؟

بول مارتن موللر: إنهم معاصروك الذين أساؤوا إليك، تعال لأريك مصيرهم، فهنا يصبح عقلنا رؤيا، والصدق هو عالمهم الآن. تحدّث إليهم.

سورن كيركغارد: (إلى الصحافي بعد أن يعرفه) أهذا أنت؟

الصحافي: (بحركة دائمة، لا يهدأ ورأسه يتحرّك في مختلف الجهات) نعم أنا صديقك القديم، لم أكن حكيماً عندما شهّرت بك في الصحافة. كان دمي بنار الحقد يستعر ضدّ عبقريتك. كنت أبتهج لعذابك، وكل ما قلته أنت وكتبته كان هو الحقيقة. كنتَ أنت البحر وأنا ملّاح سفينة بائس، لأن ملّاحي البحر التائهين يُمنون دائماً بأفدح الخسائر عندما يصابون بخطيئة الحسد والغباء وعدم الرؤية. والآن لا

تخمد نار ندمي إلا بأن تغفر لي.

سورن كيركغارد: أنا فهمت مخططاتك وكل ما كنتَ تفكر به منذ زمن بعيد، لكنك أمام الباب المقدّس الآن، فطهّر نفسك أولاً وليغفر لك الرب.

(يستمر الصحافي بتحريك رأسه صامتاً)

بول مارتن مولل: (إلى الفيلسوف) أمعن النظر في هذا الذي يبدو أكسل من الكسل نفسه (إلى فولهولم) أخبرني ما طعم الذهب؟

فولهولم: (وهو ينهش ويحكّ جسده) كمذاق الحيلة والخداع والكذب. (إلى نفسه) كم من الناس بحاجة إلى التطهّر من شهوة المال؟

سورن كيركغارد: لمَ أنت جالس هكذا تنهش جلدك؟ أتنتظر منقذاً؟

فولهولم: وما تجدي الحركة؟ فبالرغم من أنني لم أشقَ في حياتي، إلا أنني ربحت أكثر من الآخرين بحيلتي، فتراكم كل شيء الآن فوق جسدي لينهش لحمي، وسأظلّ هكذا إذا لم تسامحني لأنني وقفت ضدّك وعذّبتك وحاربتك دون أن تعرفني ودون أن تنافسني.

سورن كيركغارد: أنت أمام الباب المقدّس الآن، فتطهّر.

القسّ: (من وسط المجموعة) طوبى لصانعي السلام، لأنهم بالحب يحمون العالم. لا يمكن أن تخفى حقيقة ناصعة، إنها النور الذي يضيء الجميع.

سورن كيركغارد: لماذا لم تدافع عن هذا من قبل؟

القسّ: كنت أسير بلا نور مصباح أبدّد فيه ظلمتي، وأنت كنت تسير وخلفك مصباح لا لتبدّد فيه الظلام من حولك فقط،

بل لتنير الطريق من بعدك لسائر الناس. اشفع لي، اشفع لي. (يردّدها وهو يختفي وسط المجموعة)

سورن كيركغارد: كم من الظلام يحيق بالإنسان ويحتاج إلى نور! كانوا جميعهم يدافعون عن الخطأ.

بول مارتن موللر: إن العصر سيتجدّد في المستقبل والإنسان سيمجّد العدالة والحقيقة التي كنتَ تبغي، وسينير الفكر النبيل روحه وعقله، وسينتشر اسمك في الأرض.

المجموعة: اغفر لنا. اغفر لنا. اغفر لنا.

(تتداخل أصواتهم مع صوت بول مارتن موللر وهم يخرجون، تخرج أيضاً ريجينا أولسن وسورن الصغير)

بول مارتن موللر: سينتشر اسمك في الأرض. سينتشر اسمك في الأرض. (يختفي)

سورن كيركغارد: أيها النقاء البشري أين اختفيت؟ أيها النبيل أين أنت؟ (صمت) هل هذه الروح التي تتمنّى المسارات الصعبة، على يقين مما تبغي؟ هل هذا هو الهدف الأمثل للوصول إلى الحقيقة؛ الحقيقة هل هي الحياة والموت من أجل فكرة سامية؟ حقاً إن ظلام العالم بحاجة إلى النور. (يسير طويلاً نحو العمق حتّى يختفي في الظلام)

موسيقى

الطقس الثالث عشر

العرّافات

(نور رمادي يغمر المسرح. العرّافات الثلاث يهبطن بالحبال المتدلّية من السقف، يهمسن بما يشبه التمتمة، ريجينا أولسن وسورن الصغير موجودان في زاوية من المسرح يراقبان المشهد)

العرّافة الخضراء: أنا الفاتنة التي أضلّل ملّاحي بحر الحياة. أنا الفاتنة، أنا الفاتنة.

العرّافة الثانية: أنا الفاتنة.

العرّافة الثالثة: أنا الفاتنة.

العرّافة الخضراء: أنا الفاتنة الخضراء أجتذب بجسدي من أريد، فألتفّ حوله كالشبكة التي ليس منها خلاص. أنا الفاتنة.

العرّافة الثانية: أنا الفاتنة، أضلّل ملّاحي بحر الحياة.

العرّافة الثالثة: أنا الفاتنة، أجتذب بجسدي من أريد.

(يبدأن برقصهن الطقسيّ الذي يزداد إيقاعاً. يُضاء سورن كيركفارد وهو في زاويته. العرّافات يرقصن حوله بانتصار وكأنهن وجدن فريستهن)

العرّافة الخضراء: ومن يألف معايشتي لا يرتحل عني، لأني مملوءة بالشهوة، أمنحها لمن يصغي إلي. أنا الفاتنة دائماً.

العرّافة الثانية: أنا الفاتنة، ألتفّ حوله كالشبكة التي ليس منها خلاص. أنا الفاتنة.

العرّافة الثالثة: أنا الفاتنة لأني مملوءة بالشهوة.

العرّافة الخضراء: (إلى الفيلسوف) تعال، تعال، تعال، تعال (تحاول أن تُغريه).

سورن كيركغارد: (ينجذب إليها لكنه كمن يفيق من كابوس. وكأنه يحدّث نفسه) لن تخدعيني

فأنا أفيض من روحي على جميع البشر

يتنبّأ الشيوخ أحلاماً،

ويرى الشباب رؤى جديدة.

العرّافة الخضراء: (تهمس) سيعمّ الخراب.

العرّافة الثانية: (تهمس) سيعمّ الدمار والخراب.

العرّافة الثالثة: (تهمس) سيعمّ الموت.

(يخرجن وهن يردّدن حوارهن الأخير باحثات عن فريستهن)

موسيقى

الطقس الرابع عشر

الدروب الضيّقة

(القسّ والصحافي وفولهولم جامدون. وفي زاوية أخرى نرى ريجينا أولسن وسورن الصغير. الفيلسوف يكتب وهو يتحرّك قلقاً)

سورن كيركغارد: يجب أن أنجزه، أن أنتهي منه.

العرّافة الخضراء: (توزّع قطعاً من الخبز على الجمهور) الإنسان لا يعيش إلا مرّة واحدة.

العرّافة الثانية: (توزّع الخبز) اليأس مرض الذات.

العرّافة الثالثة: (توزّع الخبز) اليأس خطيئة.

العرّافة الخضراء: (توزّع الخبز) اليأس هو ألا يريد الإنسان أن يكون ذاته.

العرّافة الثانية: (توزّع الخبز) أرقص في دوّامة الأبدية.

العرّافة الثالثة: (توزّع الخبز) الفرح هو أن يتعذّب الإنسان مرّة واحدة ويربح الحقيقة.

(الفيلسوف يكتب متمتماً. العرّافات يقتربن منه وهن يكرّرن هامسات حواراتهن)

سورن كيركغارد: (يضع نقطة على الأوراق) الآن أستطيع أن أقول إني أنجزت عملاً مهماً. ها هي كلمتي الأخيرة إلى هذا العالم المجنون (ينهار) ما هذا الصمت المخيف؟ كأنه الموت من حولي. (فترة. الفيلسوف يحضّر بنفسه طقوس موته) بعدما مشيت في دروب الأسى وطرقت أبواب هذا العالم القاسي، أأضع رأسي لأنام الآن إلى الأبد؟ الموت...

ليأتِ، نعم ليأتِ، فعزائي هو أن أموت وأنا ما زلت على حبّي لريجينا، الذي جعلني سعيداً وشقياً في آنٍ واحد.

(يستمرّ الفيلسوف في تحضير طقوس موته، شموعاً وزهوراً وغير ذلك. يطهّر نفسه بالماء أثناء الحوار الآتي. المرّافتان تساعدانه)

العرّافة الأولى: الحب يستر كثرة الخطايا. طهِّر نفسك.

العرّافة الثانية: طهِّر نفسك بماء الحياة. طهِّر نفسك بالماء الزلال.

العرّافة الخضراء: بماذا ستحدّثنا زهور الحقل وطيور السماء. طهِّر نفسك بماء الصحراء.

سورن كيركغارد: أيها الموت لقد آن الأوان. سلامي إلى الجميع لقد أحببتكم، لكن من فرط محبّتي لكم لم أطق السكوت عن أخطائكم. كانت حياتي عذاباً لم يعرفه ولم يفهمه جميع الناس، ربما كانت تبدو غروراً وكبرياء. لكنها لم تكن شيئاً من ذلك قطّ. أنا لست أفضل من الآخرين، لقد قلتُ هذا في جميع كتبي، ولم أقل شيئاً غيره.كانت عندي شوكة في جسدي فلم أستطيع أن أتزوّج. في هذه الحياة كنت قادراً على أن أحصل على ما أشاء من ثرواتها، لكن بدلاً من هذا أصبحت المكروه، فعانيت كثيراً حتى حفظت ذاتي من التشوّه وهذا هو المهم. وهأنذا سأقوم كمولود جديد وصوت طاهر كي أتهيّأ للخوض في أعظم الأمواج قدسيّة.

(يتمدّد في مكان موته، المرّافتان مستمرّتان بالحوار همساً)

لم تبقَ سوى لحظات قليلة وبعدها أظفر.

صراعي على هذه الأرض انتهى إلى الأبد،

انتهى إلى الأبد... انتهى إلى الأبد.

(يموت، صمت طويل وموسيقى مناسبة. العرّافة الخضراء تغطّيه بشرشف أبيض. وبمواجهة الجمهور تجمد في مكانها كما في البداية، ريجينا أولسن وسورن الصغير يغطّيانه بالزهور)

العرّافة الخضراء: كان يا ما كان أب وابن. كان الابن أشبه بالمرآة التي يرى الأب نفسه فيها، في حين كان الأب بالنسبة إلى الابن المرآة التي يرى فيها ما سوف يكون عليه في المستقبل. اكتشف الأب أحاسيس الابن الملتهبة، والابن فهم دواخل عذابات الأب أيضاً. وكل منهما اكتشف نفسه وتعرّف إليها من خلال الآخر، فالحوار الحيّ كان هو التسلية الوحيدة لهما في هذه النزهات الخيالية... النزهات الخيالية... النزهات الخيالية...

(أثناء حوار العرّافة نشاهد سورن الصغير يأخذ شمعته ويتجه نحو الجمهور فيبدو الممثّلون كأنهم ظلال على المسرح، وكما في البداية، يُقذف من أعلى المسرح بالون يضيء المكان بحدّة تغشي بصر الممثّلين والجمهور، مع موسيقى مناسبة. سورن الصغير بعد أن يضع الشمعة في مقدّمة المسرح، يمسك البالون ويتقاذفه في الفضاء متقدّماً وسط الجمهور، ويسير بينهم حتى يختفي من باب القاعة. يقوم سورن كيركفارد من موته حاملاً الزهور ويتابع الطفل ثم يتوجّه إلى القسّ والصحافي و فولهولم وهم ما زالوا أحياء واقفين جامدين كالموتى، لا يشعرون بقيامة الفيلسوف الذي يعزّيهم وهم في الحياة عندما يضع زهوراً أمامهم وهو يتمتم بشكل غير واضح متجهاً نحو المسرح، ثم يلتفت إلى ريجينا أولسن...)

سورن كيركغارد: (يمدّ يده إلى حبيبته ريجينا) هيا لنرحل أزف الوقت.
(الفيلسوف يسير متمتماً وروجينا أولسن تتبعه. الجميع يتابعونهما بنظراتهم، حتّى يختفيا في ظلام المسرح)

ظلام تدريجي

موسيقى الختام

دراما الصورة وتنظيم فوضى العالم
في مسرح فاضل سوداني

بقلم: عبد الرحمن بن زيدان

جمع شتات الذات والذوات الأخرى بالكتابة الدرامية

حينما يورّط فاضل سوداني مسرحه في إبداع الرؤية التراجيدية للعالم، وحين يتخلّص من ورطة اللحظة التي يتفاعل معها، ويتأثّر بها، لإجلاء هذه الرؤية، فهذا يعني أنه يختار السفر في متخيّله وفي واقعه ليتبنّى المرفوض والمُهمَّش والمهرَّب من الرؤية من أجل استعادة التوازن للواقع المختلّ، ومن أجل إعادة نور الحياة إلى ظلمة الأمكنة والأزمنة التي عاش فيها وغادرها مضطرّاً.

ورطة الكتابة عنده اختيار يصطفيه زمن الإبداع كي يضع الكاتب أمام أسئلته الوجودية، ويجعل الوجود بكل معانيه، وبكل غموضه، وبكل وضوحه، وحقيقته، وعبثيته ماثلاً أمام الاختيارات الصعبة، أو الممكنة أمامه، بها يقترب من الصعب، وبها يَفكّ لُغز الغموض، ومنها ينسج من لُبس كل المعاني الدرامية الممكنة؛ كتابة الكتابة التي تبني زمن المواجهة بين فعل اختيار شعرية الورطة استجابة إلى نداء الواقع في الذات، أو استجابة إلى ما تولّده هذه الورطة من متعة تنبع من دفق إبداع هذا الكاتب بعدما تجمّعت لديه كل المؤشرات التي تدفع به كي يقول قوله درامياً.

الاختيار عند سوداني يعني السير بذاته المنفيّة إلى الذوات الغائبة عن المكان والحاضرة في ذاكرته الثقافية لمحاورتها، ويعني الدفع بزمن السرد كي يقوم بإحضارها في لغة النص حسب ما تُمليه خصوصيات هذا النص، على مستوى البناء، وعلى مستوى النوع الأدبي والفنّي، فتتدرّج الكتابة وتتجمّع من شتات الأفكار لتحقّق وحدتها فتتقارب على الرغم من تناقض معاني النص في جماليته، وتناقضه في رهافة الإحساس فيه لأن الاختيار هو ما يُخضع هذه الاختيارات إلى عنف الواقع الممارس على الذات لتتحرّر منه، وتُحيي كل الذوات إبداعياً كونها تعيش في لحظة زمانية واحدة، لكن الذي يفرّق بينها هو مستوى الوعي بهذا العنف أثناء بناء النص الدرامي.

ومهما تآلفت الورطة مع هذا الاختبار الإرادي أو اللاإرادي بها عند فاضل سوداني، فنصّه الدرامي يبقى كلاماً يفصح عن الجنون الخفيّ في ذاته، ويبقى الائتلاف بين معاناته، وما تأخذه الكتابة من هذه المعاناة، حواراً مع بقيّة الذوات لتُتخذ أشكالاً عدّة، وطقوساً وأغانيَ تنتج دلالات عديدة، وتفصح عن لذّة الخلاص من أزمنة الصمت العنيد، وتبوح بآهات وحكايات تحكي عن مدارات الذات في الواقع، فتقول قول الكاتب حول هذا الواقع كما تراه ذاته من خلال رؤيتها التراجيدية للعالم.

ولما كان النصّ، أي نصّ درامي يكتبه الدكتور سوداني بالصورة، تأريخاً لتجربة الكتابة بكلام النص، ولمّا كان تأريخاً لتجربة الكتابة ذاتها حول العراق وحول العالم، في كل مراحل المعاناة زمن ورطة الكاتب، ولما كانت الكتابة تدويناً لسيرة الكاتب والمكتوب، وسرداً اختيارياً ولا شعورياً وهذيانياً لما ستصير عليه حياة المتخيّل في هذا النص الدرامي البصري، فإن تفعيل التجربة الذاتية والجماعية لا تتحقّق إلا بوجود العلامة المحرّكة لكل العلامات في النص، وهي علامة الكاتب الذي يصير علامة متفاعلة، ومنفعلة، مع كل العلامات التي تؤثّث زمناً إبداعياً للطقس، فيحوّل غرابته في هذه الورطة إلى اندماج موقّت مع علاماته، وينفصل عنها بعد أن يكتمل فعل التأمّل، والتأويل، وانتقاء المفردات التراثية والمعاصرة التي تدخل في تغيير دلالات العلامات أثناء إغنائها بصور أخرى لتعطي أبعاداً أخرى لمجازات طقس مسرحيّ قوامه وسنده السفر بها نحو المعلوم والمجهول.

إن تاريخ التجربة الدرامية مع مسرح الصورة عند سوداني هو تاريخ تراجيدي يسمى به إلى أن يخلق الإبداع فرادته، ويخلق تميّزه، ويعمّق خصوصيات تمثّل أسلوبه في أسلوب النص، ويمثّل النص أسلوبه في الطقس المسرحي، وهي التي تمكّنه من معرفة مساربه، ومراوغاته، ومتاهاته، ونبضه ضمن كل الإبداعات

التي تنتمي إلى النوع نفسه، أو التجربة نفسها، أو المخاض الإبداعي الدرامي العراقي نفسه، داخل العراق أو خارجه.

هذا ما عملت هذه التجربة المسرحية في كل ورطاتها، وفي كل اختياراتها، وفي كل أزمنتها المعاصرة على أن تكتب زمانها الشاحب، أو تكتب أزمنتها الحالمة، أو تكتب عن خيبة الأمل بعد فشل العديد من الأيديولوجيات في بلورة مواطنة حقيقية للمواطن العربي، وهذا يُعدُّ حافزاً لهذه الكتابة كي تولي بظهرها لصمت اللحظات فتتجه إلى تسليط الضوء على العَتَمَات التي لا تراها العين المجرّدة، وكان الكاتب لا يراها إلا زمن الإبداع النافذ إلى ما وراء الصور التي يقدّمها الواقع، لأنه إبداع أقوى تفحّصاً وتحليلاً وتوليفاً وأبعد نظراً من هذه العين الحولاء. وكثيرة هي التجارب المسرحية العراقية التي تمكّنت من فهم الواقع العربي، ففهمت العالم، وأوّلت ما يقدّمه من حقائق، وكشفت كلّ ما يروّجه من مغالطات، وكشفت عن التجربة الإنسانية في الواقع درامياً، وكثيرة هي التجارب المسرحية العراقية التي كتبت نصوصاً كانت تنطلق من المجرّد، لتصل إلى ما هو إنساني عام، ومجرّد، دون قطع صلاتها بمرجعياتها العراقية، ودون بتر الروابط التي تشدّها إلى جذورها، ودون اختزال دفق معاناتها المأسوية في كلام مُفرغ من محتواه الإنساني، لأن الصلة بين هذه التجارب تبقى صلة حاضرة بأشكال مختلفة في النص الدرامي حين تعبّر عن رؤية الكاتب للعالم التراجيدي، إما بعدَ تأويل الواقع التاريخي في السياق الجديد للنص فتصير لها حياة أخرى هي حياة النص، وإما أنها تبقى محافظة على بنياتها العميقة، ودلالاتها الموروثة، لكنها تُدمج في بنية النص الجديد لتساعد العلامات التي أبدعها الكاتب على إكمال معانيها لتكتمل أشكال الخطابات وإيحاءاتها بالتناقض أو التكامل بين مكوّنات الفعل الدرامي وهو يتحقّق في مسرح الصورة الذي لا يمكن تفعيل وجوده إلا في فرجة المسرح الطقوسي.

حيوية الصورة في المسرح الطقوسي

وفي هذا الإطار تدخل التجربة مسرح الصورة لفاضل سوداني ذات الوقع الخاص في تجربة المسرح العراقي والعربي، وهي تجربة لها حالات، ولها معاناتها، ولها إصرارها على الدفع بالتجربة المسرحية العراقية إلى أقصى درجات الوعي بالورطة الكبرى التي وضعت التاريخ العربي في مأزق الامتحان الصعب بين الاستسلام لإغراءات التواكلية والاستسلام للأمر الواقع، أو الدخول في زمن التحدّي لتغيير ضغوطات هذا المأزق، وهذه الورطة بالكتابة المتخيّلة التي تريد أن تقدّم البديل الممكن لهذا الواقع. وحتى يتمكّن سوداني من الانتماء إلى فعل التجريب المسرحي في الوطن العربي، على مستوى الكتابة النصّية التجريبية، ثمّ على مستوى بناء زمن الفرجة التجريبية أيضاً، ثم على مستوى نقل الواقع المعيش من واقعيته الصارمة، للوصول به إلى بناء الفكر أو الأفكار والتفكير بمرارة هذا الواقع، وبهشاشته، وعِلاّته، فقد جعل هذه التجربة تحمل وزرَ واقع عصيّ يريد الخلاص منها، ويحلم بالفكاك من أسرها بالتطهير من الأدران التي تجمّعت في التاريخ العربي نتيجة الأخطاء السياسية، والبشرية، وتراكمت في هذا الوجود البئيس الذي يبحث فيه إبداعه عن لحظات تنفرج فيها غمّة الأمّة.

وتُفصح سيرة فاضل سوداني عن مستويات ودلالات هذه التجربة في مسرحه الطقوسي بمسرح الصورة بعدما عاش في زمانه تجارب الانكسار، والغربة، والألم، والعزل، وعاش مرارة غياب الابتسامة عن الحياة، فأدرك الفرق بين ضياع وطنه وبين البحث عن وطن خارج الوطن، وهو المسرح الذي وُلد من أزمنة الضياع، والغربة، والحروب، والسفر الدائم بين أَلفَة العيش اليومي مع كوابيس لحظات الإغفاءة والغفوة، وبين روافد اليقظة والحلم، وهو في هذا الإفصاح يتبع أنفاسه المتقطّعة في شريط مفكّك الذكريات لا يرى منها سوى

جرح الوطن، وجرح الإنسان، وجرح حضارة منهارة بعد عزّ وسؤدد، ولا يحسّ إلا بجرح الحلم، وجراح أمّة، وانهيار أزمنة لم تعد لها دلالاتها في التذكّر والنسيان، لأنها دلالات ضاعت بضياع الإنسان، لكنه يتذكّرها في طقوسه وكأنه بهذا التذكّر يحاكم الماضي بزمن النص الدرامي الذي يكتبه في الحاضر.

في هذه السيرة يعلن فاضل سوداني عن وجوده في ورطة، ليست هي فقط ورطة الانتماء إلى المأزق التاريخي للوطن، لكنها ورطة الكتابة واتخاذها طوق نجاة تفضي به إلى الوصول إلى أفق إبداعي يكتب فيه سيرة الإنسان المجنون، وسيرة المنفيّ، وسيرة المقصيّ من التاريخ، وفي هذا الإعلان عن هذه الحالات يرتسم منحيان اثنان في تجربته وهو يجوب عوالم هذا الأفق، يتمثّل المنحى الأول في ما يسمّيه «مسرح الصورة» كمشروع لإبداع النص الدرامي العربي المستفيد من التجارب المسرحية العربية والعالمية التي تعيد النظر في شكل الكتابة، وتعيد النظر في المفاهيم التي تبني التصوّرات، وتسند الخطوات التي تساعد على دعم وجود هذا المشروع. أما المنحى الثاني فهو عنده مشروط بوصل تجربة النص اللغوي للصورة، بنص الإخراج كتجربة تعدّ امتداداً طبيعياً لمشروع مسرحي فنّي يتأسّس على العلاقة الجدلية بين نص الصورة ونص العرض. ومن هذا الأفق الإبداعي أراد سوداني الإسهام في نقل المسرح العربي من ثورة النص المنطوق إلى ثورة كلام الصورة، وتحريره من سلطة اللغة المنطوقة الخاوية من كل دلالات الصورة، وإخراجه من هيمنة الأداء الشاحب لكلام النص، ليصل به إلى زمن مسرح الصورة باعتبار أن هذا المسرح الذي يروم تحقيقه سيساعده على الخلاص والتطهير من هذه الورطة التي يعيش فيها هذا المسرح بالتكرارية، ويعيش فيها على استنساخ اللغة الخشبية الكسولة التي تقتل حيوية اللغة الشاعرة، أو تغتال النصَّ في مهده، فلا يستطيع التحرّر من حالة مضغ الكلام اليابس في حياة تغرق بالمتناقضات

فلا تجد من ينقذها من الضلال المسرحي، ويعتقها من هذا الغي الاتباعي الذي يتبع تجارب مسرحية، أعلنَ التوجّه الجديد للمسرح العربي، وأعلن النقد المسرحي الجديد، إفلاسها أو فقدان صلاحيتها.

وتعدّ تجربة مسرح الصورة لفاضل سوداني مخاضاً إبداعياً أراد به أن يعطي لزمن كتابة النص الدرامي الجديد كل الاحتمالات الواردة فيه كي يكون مشروعاً للتواصل بينه وبين زمن تلقّي النص، فيقوم على مخاطبة الإنسان كإنسان شامل، يسمع، ويرى، ويفهم، ويُحسّ، ويتساءل، ويسأل، ويقلق، ويغضب، ويعشق، ويعرف كيف يخترق حجب الصورة، ويفهم الدلالات الكامنة وراء الصورة، ويتمكّن من إدراك العالم الموجود وراء الصورة، لأن الصورة تبقى حاملة للعلامات، والعلامات تصبح حاملة لعوالم مختلفة تنتمي إلى أزمنة متقاربة ومتباعدة هي ما تبقّى أمام الكاتب كي يورّط المتلقّي في قراءة لعبة بناء النص بهذه العلامات. وسوداني حين يختار تجربة مسرح الصورة، ويتبنّى قواعدها، يختار الدخول في مغامرة إبداعية صعبها أكثر من سهلها، وذلك بسبب وعورة إنجاز هذا الفعل الدرامي في مسرح الصورة الذي يريد أن يكتبه بشاعرية الصورة كي يمّهد السبل للدراماتورجيا وللسينوغرافيا كي تُفعّل فعل إبداع الإخراج القائم على نسج بلاغة الصورة في التواصل مع طقس العرض من أجل المتلقي. وتعني الصورة هنا من بين ما تعنيه في النص البصري المكتوب قبل أن يتحوّل إلى عرض مسرحي بالصورة، تقديم تجربة مسرحية عراقية تكون محكومة بالعديد من الثوابت التي لا يمكن إغفالها أثناء إنجاز هذا العرض، ولا يمكن تناسيها أثناء التفكير في آليات اشتغال النص قبل وبعد إخراجه، كما لا يمكن إغماض العين عن إشراقاتها في النص، منها تأثيث زمن رسم هذا النص الدرامي بالعديد من المفردات التراثية البابلية والآشورية واليونانية بأساطيرها الغنية بالإيحاءات والدلالات، والمفردات

الإسلامية والصوفية، والمفردات المسيحية، والتراث الفنّي الهولندي، إضافة إلى التاريخ المعاصر، وكأن الكاتب بهذه المفردات التراثية يعيد كتابة هذه المفردات برؤية تراجيدية هي تراجيديا الذات، وتراجيديا العالم المعاصر، وتراجيديا الوطن المستباح الذي يريد أن يقدّمه في مسرح طقوسي برحلات ضوئية هي مجاله الحيوي في التعبير أثناء الكتابة الدرامية.

روافد المسرح الطقوسي في الرحلة الضوئية

وفي هذه المسرحيات، قام سوداني بعملية الصهر الكيمياوي للعديد من هذه المفردات في بنية النص المكتوب بشعرية الصورة التي تورّطت مع الكاتب في المأزق التاريخي الذي يعيش فيه، وهي غالباً ما تكون مستمدّة من عمق التاريخ العراقي، وواقعه، ومن الأسطورة، والمحكي الشعبي، ومن المسرودات المكتوبة في الموضوع المراد معالجته، أو المراد الكتابة حوله بالقضايا التي اختارت الكاتب واختارها هذا الكاتب لتحقيق الانزياحات الممكنة عن الأصول، وكأنه كاتب لا يحيا إلا حين تحيا هذه المفردات في ذاته، وكأنها لا تعيش إلا إذا ساعدته على معرفة الخلل المحيط به وبغرابته، وبغُربته، وكأنها لا تبقى حيّةً إلا إذا وجدت معانيها في حياتها الجديدة في الطقس المسرحي الجديد.

والكاتب بهذه المفردات يريد أن يجعل روافد الطقس الفنّي أساس شعرية إعادة قراءة الواقع بعد إسقاط أقنعته، فيفتح الحالات المزمنة، ويفتح قضاياها على ما ستصير عليه لغة الطقس، كي تصبح هي كلام النص الدرامي المنفتح على عالم الكاتب والكتابة في كل طقس يشكل مجال الكتابة، ويمثّل حالاتها، وفي المسرحيات التي اختار لكل واحدة منها طقساً خاصاً يضع فيه الأحداث، والشخوص، والجنون، وحالات المزج بينه وبين شخوصه متماهياً معهم، نجده يتعاطف بلغته مع حواراتها أحياناً وينوب عن شخوصه في الكلام للبوح

بمواجعه أحياناً أخرى، وكأنها تتحدّث هي بلسانه، أو كأنها امتداد له، وهو امتداد لها. وهذه المسرحيات أو الطقوس هي: «الرحلة الضوئية» ، «النزهة أو النار المتوحّشة» ، «أغاني جلجامش»، «النزهات الخيالية».

وفي هذه المسرحيات تظهر صورة البطل المنهار الذي يريد تنظيم الفوضى السائدة في كونه، وعالمه، ومجتمعه، لكنه لا يستطيع تنظيم فوضى روحه، ومن هذه الفكرة المحورية في كل نصوصه يكون الضوء عنصراً ثابتاً في كل هذه المسرحيات، مثل العديد من التيمات المتحكّمة في السير بطقوسه نحو اكتمالها الدلالي، فيظهر الغياب تيمة مركزية في المكتوب الذي تبرز فيه تيمة الجنون، والجحود، والإجحاف في حق المبدع والمفكّر والفنان، وتظهر تيمة الصراع بين الوفاء والخيانة، وتيمة بائعي الوطن، والمخبرين، والموت، والغربة، وهي حالات تنسج عوالم الصورة في مسرح الصورة في تجربة فاضل سوداني وكأنها ترتّب صور فيلم تتتابع أحداثه، وأزمنته، وصراعاته في زمن عبثيّ مُقرف.

وفي هذه المسرحيات الباذخة بغنى الصور، وغنى العلامات، وبحالات السقوط التراجيدي للبطل، تقف أنا الكاتب تلملم جراحاتها، وتَجبر انكسارها، لتمارس عملية إسقاط ما هو واقعي على العالم الذي أمامها، أو أنها تسقط ما هو موضوعي على ما هو واقعي في الواقع الذي يقبض على أنفاسها، أو أنها تسقط ما هو واقعي على العالم كلّه، وكأن الكاتب يكتب صكوك الغفران لأبطاله ضحايا العسف الذي يلحق بهم، بعدما صاروا ضحايا الواجب من أجل الحب، أو صرعى التضحية من أجل الوطن، أو ملسوعين بالفن من أجل الفن، ومن أجل الآخرين، أو من أجل الآخر الذي هو الكاتب نفسه.

هذا ما أفصحت عنه مسرحية «الرحلة الضوئية» في أول جملة تقول عن المسرحية إنها «طقس بصري عن وجد الفنان فان كوخ»، وهذا وصف لا يخرج على دائرة هذا الاهتمام بالإنسان المتّهم دوماً بالهذيان وهو عاقل.

هذه المسرحية التي تُرجمت إلى الدانمركية، وأخرجها الكاتب نفسه على أحد مسارح كوبنهاكن («تيرا نوفا تياتر») مع ممثّلين دانمركيين محترفين، وأخرجها باللغة العربية مع ممثّلين عرب وسويديين، وتُرجمت إلى الإنكليزية في جامعة عبد المالك السعدي في مدينة تطوان بالمغرب، أقنعت الكاتب ألا تبقى صور النص في النص المكتوب خرساء، صامتة، منفيّة في أزمنة الصمت، لأن هذه الصور إنما وُضعت لتكون طقساً في عرض مسرحي بصري يقدّم مصير الفنان المنهار وهو يعيش وسط الدمار، والعنف، والتباسات مصيره الغشوم، وليست كلاماً من دون طقس احتفالي. وشخصية فان كوخ تقدّم صورة هذا البطل الإشكالي في واقع إشكالي جحيمي لا يرحم، لأن ألوان ما يرسم تضعه في قفص الاتهام، وأحداث ما يرسم إذا كانت لا تتشابه في تناقضه معه، فإنها تتوحّد في خلق مأساويته، ومأساة المجتمع والعالم. وقد وزّع سوداني طقوسية النصّ على أربعة طقوس مسرحية بصرية، ويبرّر اختياره لهذه الشخصية للكتابة الدرامية متسائلاً: «أين تكمن هذه الدراما التي يمكن أن تشكّل عرضاً متفرّداً بامتياز كما أراها، هل تكمن في حياة فان كوخ البائسة والمليئة بالمتناقضات أم في طموحاته ورؤاه الفنية الغنية بالتناقض؟». الإجابة نجدها موزّعة على الحوارات التي تدور بين شخوص هذه الطقوس التي عنونها بعناوين هي نطقها الأول في بداية كلام الطقس، وهي كالآتي:

الطقس الأول: قربان القيامة.

الطقس الثاني: وهم الحب.

الطقس الثالث: ملاك وشيطان يتخاصمان على جسدي.

الطقس الرابع: الاعتراف.

الطقس الخامس: البابان الضوئيان.

الباب الأول: زهرة الشعراء وقدّاس النقّاد.

الباب الثاني: عينا ميدوزا الجميلتان.

الطقس السادس: غابة السديم في مرآة الأسرار.

ماذا تريد هذه الطقوس قوله بعدما تحرّر الكاتب من ورطة الكتابة، أو أن الكتابة تحرّرت بعدما تحرّر هو نفسه من روتينية الحالات ليدخل إلى طقسية الحالات الصوفية التي وضع فيها التباسات البطل؟ كيف يجب أن يكون الفضاء المسرحي الذي يمكن أن يعبّر عن مأساة فان كوخ؟ هل يمكن أخذ تراكم عذاباته مُحرّكاً لهذه الصور نتيجة العنف ليخلق منها تاريخاً يثير الشفقة والغضب أو التطهير؟ أم أن الهدف الجوهري في هذه الطقوس هو إبراز تلك الرؤية الجحيمية العنيفة للواقع والطبيعة التي حاول أن يمكسها هذا الفنان في لوحاته بهندسة الطقس الضوئي اعتماداً على شعرية الصورة؟

هندسة الطقس الضوئي بشعرية الصورة

تقوم هندسة هذا الطقس الضوئي على تقديم الأجوبة الممكنة، وعلى توزيع ضوء النص على طقوسية الكتابة بوصفها طقساً للحياة، وبوصفها حياة تُعاش في هذه الطقوسية المحيّرة، وبوصفها فعلاً يُدخل الوهم والواقع في طقس الكتابة الدرامية، تسهيلاً لعملية إدماج الأزمنة بعضها مع بعض، الماضي يحضر في الحاضر، والحاضر يسافر إلى الزمن الفائت، فيكون فان كوخ وميدوزا، مع الدلالات الدينية والأسطورية المصاحبة للرحلة الجنونية البئيسة للبطل، رحلة ضوئية للنص إلى البحر المقدّس، إلى النار المقدّسة، إلى المجهول، وفي هذا السفر يسعى فان كوخ، كما يؤكّد النص ذلك، إلى محاربة الفناء في داخله، بعدما اختار العيش في جحيم الألوان، يضحّي بنفسه، ويرسم من أجل مومس أراد إسعادها، ويدافع عن نفسه في مشفى المجانين والحمقى والمعتوهين، بعدما اختار النور دليله إلى حقيقة الذات، وأراد لألوانه أن تواسي الناس وهم

يعانون من بؤس الحالات، كما يفعل سحر الموسيقى في علاج الذوات المكلومة، وأراد أن يرى نفسه في مرآة مشروخة، لكنه رأى صورته تصبح صورتَين في صورة واحدة، صورة الأنا، وصورة الآخر شبيهه في المرآة، فتزيد عذاباته بهذه المعرفة التي ستؤدي إلى سقوطه التراجيدي، وتزيد حدّة الصراع بينه وبين نقيضه وشبيهه البدوية التي تحمل العديد من الرموز. وكما يقول الكاتب نفسه: «فالصراع بين هذين القطبَين أو الرمزَين هو الذي يجب أن يؤكّد ويأخذ حجمه وإيقاعه الطبيعي في الفضاء وفي ذهن المشاهد. فالصراع هنا بين شبيه فان كوخ الإنسان والفنان أي الذات الأخرى، وبين البدوية كرمز للغموض والسرّ والجمال الزائف أو الموت الذي يخرّب روح الإنسان ويزيّفه. إن الإيقاع، والصمت المتوتّر، هما اللذان يعطيان للحدث معناه».

ومن عمق هذا الصراع وحِدَّته، يرى فان كوخ أن الجنون يقوم بتخريب سلطة العقل بعدما نفى عن نفسه صفة الجنون، وبعدما وجد نفسه يعيش في غابة متوحّشين في عالم ليس حرّاً، ومن أجل هذا حاول تعميق شعوره بالحاجة إلى الضوء الذي ينير له عَتَمَات الحياة. فالظلام في رأيه يمنع بزوغ الروح، فيسعى بفنّه جاهداً إلى تحويل الألوان الصفراء الميتة إلى نور يضيء بألوانه روح الإنسان، ليرى شموساً أخرى تساعده على الوصول إلى المطلق. و«الرحلة الضوئية» في هذا الطقس لا تمنع كلام النصّ من التواصل الدقيق مع حياة هذا البطل، ولا تمنع الكاتب نفسه من الدخول في حوار مع حوارات البطل ليكتبها بما يريد بلوغه، ويريد إبلاغه من خلال حياة هذا البطل، وهو حين يمدّ قنوات التواصل بينه وبين البطل فإنه يقدّم صورة «الأزمة الحقيقية» لفنان مثل فان كوخ، ويريد كما يقول أن «يرسم بعض أسرار الحياة ويفهم أزمته التي هي أزمة الإنسان الحسّاس إزاء عبثية الواقع والطبيعة والوجود». ولم يجد سوداني من مَخرَج لمغادرة ورطة شساعة القضايا وكثرتها في حياة البطل، سوى المزج

بين المادي والميتافيزيقي في بناء حوارات الطقس وهو مندهش من نقاء روح البطل، وحسّه التصوّفي، وهو ما دفع به إلى أن يكتشف أن البطل وجد خلاصه بالدين حين عمل كمساعد راهب، فحافظ على فنّه ليبقى فناناً يعيش ليرسم، ويبحث عن الفردوس المفقود بعدما أحاط به البؤس من كل جهة، وهو بؤس نفسي وجودي شامل، وليس بؤساً يُختصر في حالة البؤس الاقتصادي. وسوداني حين يرسم صورة البطل في صور متحرّكة تحكمها الأحداث المتعلّقة بحياة هذا البطل، إلى جانب النص المترابط في هذه الطقوس التي تبني هذا النص من نصوص سابقة، غائبة وحاضرة، فإنه يستنبت منها صوراً جديدة اجترحها من العديد من النصوص السابقة، ليبني بها الحالات الإنسانية للبطل، في صور ممهورة بشهقات هذا البطل في صدره بعدما وضعه الواقع المختلّ في مدينة سُمّم فيها المكان والزمان بالمكر والخديعة في صخب الحياة التي تحجب مرارة الواقع. وتتدفّق هذه الصور بأنفاس فان كوخ المجروحة وهو يشجب محاكمته، ويشجب سقوطه التراجيدي، ويكتب أسئلته الوجودية حول من يكون في هذا العالم المختلّ؟ ولماذا هو ضحية الظلم؟ ولماذا يضحّي عن اقتناع من أجل الآخرين؟

الأجوبة نجدها في المفهوم الذي يقدّمه الكاتب حول هذا البطل التراجيدي حيث حضور الفنان في البطل، وحضور البطل في الفنّان، وحضور الفيلسوف المتصوّف في هذا المجنون يؤكّد على النهج الذي سلكه الكاتب في إبداعه الطقسي معرّفاً هذا الإبداع بقوله: «الإبداع الفنّي الذي يعتمد حرّية التخيّل والحلم، هو الحضور في اللامرئي، وهو كشف اللامرئي في الحياة والوجود والطبيعة من طريق الإبداع والفن الذي يحقّق حضور القيمة واللوحة الفنية». فكيف ستكون هذه الطقوس، وكيف ستكون هذه «الرحلة الضوئية» زمن العرض الذي يتبنّى مسرح الصورة لتحقيق التواصل بين زمني العرض والتلقّي؟

الإخراج المسرحي والتواصل في مسرح الصورة

يقترح سوداني بعض التصوّرات التي يراها ممكنة لتجاوز محدودية المفاهيم العرجاء التي تحصر القيمة الفنّية للعرض في ما يقوله النص فقط دون الالتفات إلى المكوّنات الجمالية التي تعطي الصورة جماليتها وهي تتابع حالات البطل فان كوخ في المجتمع الذي عاش فيه بعدما اختلّت موازينه، فعاش مرارة الاشمئزاز، والقنوط من الحياة التي قادته إلى الانتحار، وفي هذا يقول: «ويمكن القول إن أي نص مسرحي يؤسّس عرضاً ضمن هذا المفهوم لا يتناول وبصراحة موضوع العنف الاجتماعي ضدّ الذات الفنّية المبدعة وعنف الذات ضدّ كينونتها للتعبير عن جوهر الالتباس والغموض في عالمنا المعاصر، يُعدّ كتابة بمستوى النفاية، وأي رؤيا إخراجية خارج هذا المفهوم تعدّ التباساً، وغموضاً جديداً يزيد الغموض الذي يملكه الكثير من أولئك الذين يتنافسون على التصريح بأنه مجنون لأنه قطع أُذُنه».

لكن ما الإمكانات التي يقترب بها المخرج من الطقوس التي يبني بها طقس العرض؟ يجيب سوداني قائلاً إن هذه الإمكانات «تمنح المخرج إمكان التعبير البصري لتحقيق رؤاه الحالمة، والتي تبدو أحياناً صعبة التحقّق، إنها لغة لها علاقة بميتافيزيقا العنف، وميتافيزيقا ذاكرة الجسد المطلقة، إضافة إلى ذلك نحتاج إلى مسرح مغاير، وإلى مفهوم مسرحي يرى العنف، والجمال، والتطهير برؤيا تتناسب مع حجم خراب الإنسان وضياعه المعاصر».

من هذا الاعتبار يريد الكاتب بهذه الرؤية جعل النص يقول قوله بالصورة اعتماداً على مجموعة من الاعتبارات التي كوّن بها مفهومه للطقس والإخراج المسرحي، وعن كيفية تحويل الزمن الواقعي إلى زمن مقدّس يقدّم أسس هذه الاعتبارات كالآتي:

– يعتبر المسرح شعر الكون والوجود في لحظة التغيير، إنه الفضاء الجحيمي

في لحظة الاحتراق.

- الطقس يتكوّن من أنساق بصرية مثل الجسد وذاكرته المطلقة.

- يتمّ تحويل الزمن الواقعي إلى زمن مقدّس، زمن الرؤية والحلم والواقع اللامرئي، في حيوية ضمن البعد الشعري للزمن والفضاء المسرحيَّين.

- إعطاء الحركة المعبّرة المتقنة وإيقاعها والصمت إمكانات التأثير في الفضاء وفي المدى الواقعي في التعبير.

- رؤية الطقس هي رؤى لونية وبصرية وضوئية، تنطلق من جوهر الواقع للوصول إلى اللامرئي عبر فضح المسخ الذي تمارسه ميدوزا في الواقع البشري. بهذا يغدو الهدف الفنّي والجمالي لكل طقوس العرض في تجربة مسرح الصورة هو إضاءة روح الإنسان بروح الحقيقة التي يبحث عنها الفنان في فنّه، بعد أن يقتنع بأن خواء الحضارة من قيمها الإنسانية يُفقد الإنسان الأمل في الحياة، ويُفقده القدرة على الرؤية القدسية، ويضع أمامه العقبات حتى لا يصل إلى فردوس النور، وحتى لا يبلغ وهج النار المقدّسة.

إن الإحساس بعبث الوجود، ولعنته، ورؤية الجحيم الأرضية في الحياة الخاصة، وحياة العالم، والعيش في ظلمة النفس، والأمكنة المغلقة، والإحساس بالجمال المفقود واستعادة صوره، والرغبة في رؤية ملامح الوجه الضائع للإنسان بين تجاعيد البؤس، والديجور، والرغبة في مقاومة الشغف في تدمير حسن الحياة وبهائها، ورفض الدلالات المليئة بالغموض، والبحث عن التطهير بتفضيل الموت على الحياة، أو تفضيل الحياة على العدم، كلّها حالات تحتاج رؤية بصرية توصل معنى الطقس إلى الجوهر الحقيقي للصورة في الطقس المأسوي الذي وضع فيه فاضل سوداني الشخصية الدرامية فان كوخ: الفنان الهولندي الإنسان والفيلسوف والقدّيس والعبثي، مقابل شخصيات أخرى هي: «هو» (ذات الفنان الأخرى) والمرأة الملاك والبدوية ومجموعة من نزلاء

المستشفى الذين يمثّلون أيضاً كورس النقّاد، وذلك تحقيقاً لما يريد تحقيقه في تجربة مسرح الصورة الذي يبنيه على الثقافة الإنسانية ليكون إنسانياً في خطابه، وفي مضمونه، وبعلاماته. ويدخل في تكوين هذا النص مشروع الإخراج الذي يقدّمه النص الموازي لحوارات النص، متمثّلاً في الإرشادات المسرحية التي تريد أن تقدّم تصوّرات مسرح الصورة وآليات اشتغاله في العرض، دون نسيان مفاتيح دلالات طقس الرحلة الضوئية التي تضيء مكامن الأحداث مثل طبائع البطل المتقلّبة، والقيامة، وعبّاد الشمس، والموت، والأقيانوس، والملاك، والعذاب الأبدي، ولوحات فان كوخ، والهستيريا، والبعد عن اليقين، والشيطان، وميدوزا. هذه الإرشادات المسرحية بهذه المفاتيح صارت مكوّناً أساساً في تفعيل حركية النص للسير به نحو الطقس الذي يريد الكاتب المخرج الوصول إلى تحقيقه، لأنه طقس تمّت كتابته في مكانَين مختلفَين هما بغداد وكوبنهاكن في أزمنة أفصح فيها الكاتب عن معاناته ومعاناة بطله الذي بدأ تشكّله من فكرة، ثم تحوّلت إلى طقوس فيها المأساة كما فيها الفرح، حيث الكتابة الأولى بدأت في بغداد (أكتوبر 1979)، أما تشكّلها النهائي فكان في كوبنهاكن (2003). أما عن الغربة والأسطورة في تكوين الرؤية المعاصرة للصورة، فهناك مسرحيات أخرى اختار فيها الكاتب طقوساً مختلفة ليوسّع من رحابة أفكاره فيها.

الغربة والأسطورة في تكوين الرؤية المعاصرة للصورة

وإذا كانت هذه المسرحية تمثّل مشروع مسرح الصورة في التجربة المسرحية العراقية لدى فاضل سوداني، فهناك تصوّرات أخرى، ومفاهيم أخرى حول هذا المسرح قدّمها في نصوص إبداعية أخرى في طقس آخر شكّله في مسرحية «النزهة أو النار المتوحّشة» التي كتبها في الغربة بصيغتها النهائية بين بغداد

وصوفيا سنة 1980، حيث ينهض موضوعها على الصراع بين الأمومة رمز الوطن، والأبوة رمز السلطة، والابن رمز التضحية، والمؤسّسة السياسية المخابراتية رمز الإقصاء.

والكاتب في هذا النص لا يسمّي شخوص المسرحية بأسمائها، ولا يحيلها على أي مرجع، لكن الذي يحدّد هويّتها هو مضمون الطقس ذاته، وكأن سوداني يكتب الدراما العائلية داخل عالم كفكاوي مظلم يمثّل طرفه الأول كل من: الأب والأم والابن، أما طرفه الثاني فيمثّله: رئيس المخابرات والمؤسّسة التي يرأسها، والأب الموزّع بين مسؤوليته فيها ومسؤوليته العائلية، فالابن يرفض الحرب، لكنه لا يبيع وطنه، والأم التي خرج من رحمها هذا الابن تبكيه بكاءً مُرّاً لأنه ذهب ضحية مبادئه، والأب وإنقاذاً لابنه يُبلّغ عنه، لكن المؤسسة لا تفي بالوعد الذي قطعته على نفسها بالحفاظ على سلامة هذا الابن فتقوم باغتياله. وفي طقوسية بكائية، أثناء محاكمة هذه المؤسّسة، وهذا الأب، والواقع الذي يعيشان فيه، يدعم سوداني كل حوارات الشخوص بالنصوص التراثية وبالأدعية المستمدّة من المآتم الحزينة التي تردّدها الأم بكاءً على فقيدها الشهيد الذي لم يستطع تحمّل أهوال هذه الحرب الغبيّة وويلاتها، فترك ميدان المعركة، وهو في رفضه لها لم يتخلَّ عن حبّه لوطنه، ولم يهرب من أجل الهروب، لكنه أراد أن يسجّل موقفاً في التاريخ، ومن واقعه، ومن مهندسي الحروب والمستفيدين من هذه الحروب.

أما «ملحمة جلجامش» التي أعاد كتابتها وتأويلها مسرحياً، فقد عمد سوداني إلى عصرنتها بما يساير رؤيته المعاصرة، فوظّف أغانيَ طقوسيةً تنشد الأحداث وتحكي عن سير الأبطال وتروي آلامهم المختلفة، دون أن تتطابق مع «ملحمة جلجامش» الأصلية، ودون أن تتخلّى عن جوهرها، ودون أن تتطابق مع رؤى من وظّف هذه الملحمة في التجربة المسرحية العراقية.

هذا النص مبنيّ على قوّة التحكّم في المفارقات الموجودة بين جلجامش الأسطورة، وجلجامش المسرحية المعاصرة، ومبني على اختيارات مركزية يسيّر بها الكاتب لعبة بناء الحوارات وتوزيعها بين شخوص النص، ومن بين هذه الاختيارات أنه وضع النص في سياق وجودي قسّم به أغاني النص (المشاهد والفصول) تقسيماً يوحي بدلالة هذا الاختيار ليساعد المتلقّي على تفسير عناوين الأغاني، ويسهّل عملية توضيح المكوّنات الفكرية والوجودية والأسطورية التي تكوّن بناء رؤى الطقس بالرؤى المتناقضة للشخوص المحورية والهامشية في العملية الدرامية.

ومن بين هذه الاختيارات التي تعلن عن وجودها في علامات الكتابة المعاصرة للأحداث المراهنة على البعد الوجودي في بناء الأحداث وبناء الشخوص وبناء الأحداث اعتماداً على الحرّية والاختيار كمبدأين صاغهما جان بول سارتر فلسفياً في نظريته الفلسفية، وقدّمه في كتاباته الدرامية، وأبرز كيف أن الجحيم هي الآخرون، وأن التناقض وجحيم الحرّية والخوف والقلق يعطون للذات في محاولاتها اليائسة الرغبة في اختراق الوجود الآخر، الوجود الموجود، أو المفقود، لا يقف فاضل سوداني عند حدود هذين الاختيارَين، بل يلجأ إلى ملحمة هذا الوجود مبرّراً ذلك بقوله: «ومن أجل أن يتحقّق الوعي الملحمي المعاصر في «أغاني جلجامش» لم أعتمد في كتابتها على تفاصيل الأحداث، والشخصيات، كما أكّدها الشاعر الملحمي القديم، بل عمدت إلى اتّباع أسلوب التناقض، بمعنى استخدام بعض أحداث الملحمة، والتناقض معها، والإبقاء على بعض شخصياتها مثل جلجامش وعشتار وأنكيدو وغيرهم مع التغيير الجذري لمصائرهم وأهدافهم، وخلق شخصيات جديدة كالملك، والكاهن، والحبيبة، وتفعيل دور الأم الذي كان مُموَّهاً في النص الملحمي القديم بغية التركيز على: الرحم الأرض الخصب، ومسك اللحظة الزمنية المعاصرة التي

تؤدي إلى الإبداع الدرامي البصري».

وفي هذا النص البصري يسير التناقض بين الشخوص نحو قدرهم، أو نحو مصيرهم الذي لا يمكن فصله عن الرؤية المعاصرة للبطل، وحتى عندما يجد معوّقات تحول دون الوصول إلى نهاية الحالة، أو الحياة، أو طقس العرض تبقى هناك دوماً قضايا عالقة مفهومة برموزها، وواضحة بغموضها، وبين الوضوح والغموض يُعلن هذا النص الدرامي بأصوات أبطاله عن التيمات التي تلتقي بجوهر النص الأصلي، وينقل هذا الأصل من سياقاته المتداولة ليضعه في الزمن المعاصر دون الإخلال بعمق هذا الأصل الذي يخاطب به زمن الكاتب المعاصر، ويوحّد ما بين العناصر التي تساعد على تثبيت وجود قضايا إنسانية يبوح بها هذا النص الدرامي حين يجعل النصوص التي تكوّن بنيته تسير على النهج نفسه، وتختار الاختيارات نفسها لبلوغ الهدف من الكتابة متمثلاً في الأهداف الآتية:

- جلجامش يقوم بمحاكمة العصر الراهن.

- عشتار، كما يقول سوداني، شخصية «ترتبط كينونتها التاريخية والمعاصرة بآلية السلطة وقوّتها أو أسطورتها القدرية كونها مومس الدولة المقدّسة، فتُغري جلجامش بمفاتنها وتدعوه إلى الانتماء لعالمها مقابل أن تُبعد عنه حتميّة القتل، لكنه يرفض مغرياتها، لأن من يدخل بيتها - ماخورها المقدّس لا بدّ من أن يصاب بلعنة الرذيلة».

- سخرية الكتابة تحوّل الدلالة المتداولة للمحكمة من وقارها وهيبتها لتصير ماخورَ عشتار حيث تجري محاكمة جلجامش و«كأنه بطل شمولي متمرّد في مختلف الأزمنة حتى المعاصر منها».

- يريد النص أن يكون كشّافاً للمحجوب، يقرأ أسرار المسرحية ليس باعتبارها تقنيّة، وإنما باعتبارها أسراراً ذاتية وروحية، يودّ الممثّلون الكشف عنها أمام

المتلقّي زمن الفرجة.

زمن جلجامش في الكتابة المعاصرة لأسطورة هذا البطل الملحمي في هذا النص، يعني إبراز وعيه الحرّ ورحلته المصيرية نحو المعرفة، ونحو كشف أسرار الوجود، وليس السعي وراء الخلود كما في الملحمة. وعيه ورحلته في هذا النص هدفهما ممارسة فعل حرّيته الواعية حتى النهاية. ويبقى هدف هذا النص البصري، كما أراد له سوداني، إنطاق زمن الشخصية الآنيّ (الآن) فوق الركح بدلالات المعاصَرة، وتمكين الممثّل من التكيُّف مع شخصيته وهو في حضرة المتلقّي لحظة الكشف عن الدلالات العميقة لملحمة جلجامش المعاصر.

لقد عاين فاضل سوداني ما يعيشه العالم من فوضى، وعايش كيف يعيش الإنسان في زمن عبثي مقلق، وقرأ الملاحم، وقرأ سير الفنّانين والسياسيين، وبحث في نظريات المسرح المعاصر، ودرس الإخراج المسرحي، وعندما شعر بضيق الحال، وبأنه يكتوي بلهيب التراجيديا التي يعيشها هذا الإنسان، اختار ورطة الكتابة الدرامية، واختار مسرح الصورة والطقوس المسرحية للكتابة عن دراما الصورة لتنظيم فوضى العالم بصرخة أبطاله وبموقفهم من الحياة التي يحيون فيها، وهما الصرخة والموقف اللذان كان يتماهى معهما، وكان يقدّم بهما رؤيته التراجيدية للعالم: العالم بمعناه العام، والعراق في معناه الإنساني الخاص، وهذا ما يجعل الإنتاج المسرحي لدى الدكتور فاضل سوداني مصنَّفاً ضمن المسرح الذي يعرف كيف يحاور العالم بثقافة العالم دون أن يفقد خصوصياته العربية.

المحتويات

المهرّج الأول: (إلى المهرّج الثاني) لكنك لست إنساناً ما دمت لا تعي أنك إنسان.

المهرّج الثاني: كيف؟

المهرّج الأول: أنت مهرّج ومهنتك البكاء والضحك...

الممثّل الثاني: البكاء على أحزانك والضحك لإدخال السرور إلى قلوب الملوك.

المهرّج الأول: ولا تصبح إنساناً إلا إذا كففت عن هذا.

الممثّل الأول: (يضحك) وإذا تركت هذه المهنة تموت جوعاً.

الممثّل الرابع: أو تموت بالطاعون.

(ضحك متواصل من الفرقة)

المهرّج الثاني: إني ولدت إنساناً كبقيّة البشر.

الممثّل الثالث: ألم أقل لكم بأنه لم يتقن مهنته بعد.

المهرّج الأول: لقد ولدتَ إنساناً، لكنك الآن مهرّج وستموت مهرّجاً.

الممثّلة الأولى: وكذلك الفحّام يولد إنساناً ويموت فحّاماً.